نصوص التوراة

والمعاني الكامنة وراءها

- **Author** :
- **Title**:
- **Translated by** : Adel Asaad Al Mairy
- **First Edition**: 2017
- **Cover Design by**: Amr AlKafrawy

- المؤلف: جون جراي
- العنوان: نصوص التوراة والمعاني الكامنة وراءها
- ترجمة: عادل أسعد الميري
- الطبعة: الأولى 2017
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ؟؟؟؟؟
الترقيم الدولي: ISBN
987 - 977 - 765 - ؟؟؟ - ؟

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أى جزء منه. أو تخزينه فى نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأى شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

نصـــوص التـــوراة

والمعاني الكامنة وراءها

تأليف

جون جراي

ترجمة

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جراي، جون

نصوص التوراة والمعاني الكامنة وراءها- ترجمة :عادل أسعد الميري

ط1القاهرة -آفاق للنشر والتوزيع - 2017

240 ص، 24 سم.

رقم الإيداع ؟؟؟؟؟ / 2017

الترقيم الدولي ؟ - ؟؟؟ - 765 - 977 - 978

1 -

أ - العنوان

المحتويات

المحتويات	٥
الفصل الأول: في البدء كانت اسرائيل	٩
١ - برج بابل	٩
٢ - جنّة عدن	١١
٣ - قايين وهابيل	١٤
٤ - العماليق	١٦
٥ - قصّة الخلق	١٩
٦ - آدم وحوّاء	٢١
٧ - على صورته ومثاله	٢٢
الفصل الثاني: التوراة بين الأسطورة والتاريخ	٢٥
١ - الخلاص العظيم وعقد اتفاقية العهد	٢٥
٢ - سفر الخروج وعبور الماء	٢٨
٣ - الظهور الإلهي على جبل التجلّي	٣١
٤ - يشوع يوقف الشمس	٣٥
٥ - سرد وقائع الماضي	٣٨
٦ - حكايات شمشون	٤١
٧ - معجزات إيليّا وإليشع وإشعياء	٤٤
أولا: النار من السماء	٤٥
ثانيا: إشباع الجموع	٤٦

ثالثا: إحياء الموتى ٤٧
رابعا: الدقيق والزيت لا ينفدان ٤٨
خامسا: ملاك الربّ يقتل عشرات الآلاف ٥٠
الفصل الثالث : الأسطورة البابلية/ الكنعانية في التوراة ٥١
١ – المياه الهادرة ٥١
٢ – الحيوانات المتوحّشة ٥٧
٣– الربّ ضدّ ملك بابل ٦٠
٤ – الربّ يغفر لشعبه المختار ٦١
٥ – الرب قاضٍ وقائد عسكر ٦٣
٦ – ظهور الشيطان ٦٦
٧– غضب الربّ ٦٨
٨ – فخاخ الصيّاد ٧٠
٩ – ملِك الموت ٧٢
الفصل الرابع: مملكة الرب على الأرض ٧٥
١ – التحوّل إلى مجتمع زراعي ٧٥
٢ – سفر النبيّ أيّوب ٧٨
٣– رؤى نهاية العالم ٨٠
٤ – الحكم الألفي للمسيح ٨٤
٥ – الجنّة وجهنّم على الأرض ٨٦
٦ – أفعال الشرّير ٨٩
٧– تحريم عبادة الأصنام ٩٢
٨ – الملاك ميخائيل ٩٤
الفصل الخامس: المسيح ملك إسرائيل ٩٧

١ - المَلِك في مجتمع مقدّس ٩٧
٣- المسيح من نسل داود ١٠٥
٤ - مملكة المسيح الأرضية ١٠٩
٥ - مأدبة المسيح ١١٣
٦ - لقب ابن الإنسان القادم فوق السحاب ١١٧
الفصل السادس: أرباب بلاد الرافدين ١٢١
١ - أرباب السماوات والرياح ١٢١
٢ - ربّ المياه ١٢٥
٣- عِشتار ربّة الأمومة ١٢٩
٤ - أرباب آخرون ١٣٣
أولا: ربّ الشمس ١٣٤
ثانيا: ربّ القمر ١٣٥
ثالثا: نيبو ١٣٦
رابعا: مردوخ ١٣٧
خامسا: ايريش كيجال ونِرجال ١٣٨
الفصل السابع : أساطير بلاد الرافدين ١٤١
١ - نشأة الأساطير ١٤١
٢ - مهرجان يوم الكفّارة ١٤٧
٣- أسطورة الخلق البابلية ١٥٢
٤ - نزول عِشتار إلى العالم السفلي ١٥٩
٥ - أسطورة آدابا **Adapa** ١٦٤
الفصل الثامن: ملحمة جِلجامش ١٦٩
١ - نصف إنسان نصف إله ١٦٩

٢- جلجامش يقابل إنكيدو ١٧٣
٣- جلجامش يرفض عِشتار ١٧٦
٤- موت إنكيدو: ١٧٩
٥- البحث عن سرّ الخلود ١٨١
٦- قصّة الطوفان ١٨٣
الفصل التاسع : صورة الملك الأرضي ١٨٩
١- رحلة إيتانا إلى السماء ١٨٩
٢- الوريث الشرعي ١٩٣
٣- الملك سرجون هو النبي موسى ١٩٧
٤- المسؤولية الاجتماعية للملك ١٩٩
الفصل العاشر: الأساطير الكنعانية ٢٠٣
١- أسطورة بعل وعنّات ٢٠٣
٢- بناء بيت الربّ ٢٠٦
٣- الذهاب إلى العالم تحت الأرضي ٢١٠

معجم مختصر لبعض مفردات الكتاب: ٢١٥

إبراهيم/ إبليس/ أبو كريفا/ أخنوخ/ آرام/ الآرامية/ الأردن/ أَرز/ إرميا/ أسبوع/ اسحق/ إسرائيل/ آشوريّون/ إشعياء/ أكّاديّون/ أموريّون/ بابل/ سفر التثنية/ سفر التكوين/ التوراة/ جورج سميث/ سفر الخروج/ رأس شمرا (أوغاريت)/ زيجّورات/ السبي البابلي/ سومريّون/ عبرانيّون/ سفر العدد/ كنعانيّون/ سفر اللاويّين/ مدينة ماري/ مسماري/ موسى/ نبوءات/ نجاسة/ نينوى/ يعقوب/ يهوذا.

قائمة بأسماء أهم مراجع الكتاب ٢٣٩

الفصل الأول
في البدء كانت اسرائيل

١- برج بابل

إن أقدم أسلاف مؤكّدين لشعب إسرائيل، كانوا على علاقة بشمال بلاد الرافدين. كانت عشيرة إبراهيم، ترتبط بأماكن استقرار مجموعات بشرية، من أصول آرامية، سيرتبط بهم كذلك ابنه اسحق، ثم حفيده يعقوب، بعلاقات زواج. إن الأعراف الواضحة فيما يتعلّق بالتشريعات الأسرية الأكثر بدائية، تشير إلى ضرورة أن يتزوّج الابن من عشيرة الأب. من خلال هذه الأقوام البدائية الآرامية، من الرعاة المتنقّلين، خلف منابع المياه والأراضي العشبية، اللازمة لرعي أغنامهم، انتقلت التشريعات من بلاد الرافدين إلى أرض فلسطين.

فيما بعد رويت الحكايات المذهلة، عن حضارات قديمة في بلاد الرافدين، تميّزت ببناء الزيجّورات الهائلة **Ziggurat**، وهي أبنية ضخمة الحجم، تبنى بغرض ممارسة الطقوس الدينية، مرتفعة إلى درجة كبيرة، تتخذ شكل الطبقات المتتالية المتدرّجة في الحجم، لتصبح في النهاية قريبة الشبه من الهرم المدرّج. لذلك يعتقد بعض المتخصّصين في تاريخ حضارات بلاد الرافدين، أن هذه الكلمة الآرامية الأصل، قد انتقلت إلى اللغة المصرية القديمة، حيث أطلقت على نفس النوع من المباني المتدرّجة، التي انتقل استعمالها من بلاد الرافدين إلى مصر القديمة، وعرفها المصريون القدماء في شكل هرم

سقّارة المدرّج، المبني في بداية الأسرة الثالثة، ويقولون إن كلمة سقّارة ما هي الا أحد أشكال كلمة زيجّورات، إذ تتكوّن كل منهما من أربعة حروف سواكن متشابهة، السين والزاي، القاف والجيم، الراء، والتاء، الثاني منها، وهو الجيم أو القاف، مشدّد.

في حين يقول علماء الآثار المصرية، إن هذه الكلمة مشتقّة من كلمة (سوكر)، وهو اسم اله مصري قديم، كان معروفا في الدولة القديمة، في الأسرات من الأولى إلى السادسة، بصفته حارس الجبّانات الملكية، وظهر غالبا في صورة تمساح، لأن هذا الحيوان كان من أكثر الحيوانات، قدرة على إثارة الرعب في مصر القديمة. أما الرحّالة العرب الأوائل، فقد اعتقدو بأن هذه الكلمة من أصل عربي، مشتقة أو محرّفة عن كلمة صخرة، حيث أن الأهرامات المدرّجة كانت تبنى من الصخور.

هذه البنايات الضخمة، التي تقع غالبا خارج المدن البابلية القديمة، بدت لرعاة الغنم المتنقلين، خلال الألف الثاني قبل الميلاد، أي بين سنة ٢٠٠٠ ق م ، وسنة ١٠٠٠ ق م، رمزا للديانات التي يمارسها سكّان تلك المدن القديمة. عند دمار أحد هذه البنايات الضخمة، لسبب أو لآخر، كانت شعوب هذه المناطق، تعتقد أن هذه علامة أكيدة على غضب الربّ. كان هذا هو الأصل في حكاية برج بابل، الواردة في النصوص التوراتية القديمة.

تقول التوراة في أول أسفارها، وهو سفر التكوين، في الاصحاح (الفصل) الحادي عشر، الأعداد من الأول إلى التاسع، مع ملاحظة أن شنعار هو الاسم الذي أطلقته التوراة على المملكة السومرية (١- وكان أهل الأرض جميعا يتكلّمون أولا بلسان واحد ولغة واحدة. ٢- وإذ ارتحلوا شرقا وجدوا سهلا في أرض شِنعار فاستوطنوا هناك. ٣- فقال بعضهم لبعض: هيا نصنع طوبا مشويّا أحسن شيّ، فاستبدلوا الحجارة بالطوب، والطين بالزفت. ٤- ثم قالوا: هيا نشيّد لأنفسنا مدينةً وبرجاً يبلغ رأسه السماء، فنخلّد لنا اسما لئلاّ نتشتّت على وجه الأرض كلها.

٥- ونزل الربّ ليشهد المدينة والبرج اللذين شرع بنو البشر في بنائهما. ٦- فقال

الربّ: إن كانوا كشعب واحد ينطقون بلغة واحدة، قد عملوا هذا منذ أول الأمر، فلن يمتنع إذن عليهم أي شيء عزموا على فعله. ٧- هيا ننزل اليهم ونبلبل لسانهم، حتى لا يفهم بعضهم كلام بعض. ٨- وهكذا شتّتهم الربّ من هناك على سطح الأرض كلها، فكفّوا عن بناء المدينة. ٩- لذلك سمّيت المدينة بابل، لأن الربّ بلبل لسان أهل كل الأرض، وبالتالي شتّتهم من هناك في أرجاء الأرض كلها.)

هذا النصّ هو الذي أصبح لاحقا، التفسير الساذج للسبب، في نشأة التنوّع في ألسنة وأجناس أهل الأرض. هذا الأسلوب كان مقبولا شعبيا، خلال قرون طويلة، حيث قيل إن كلمة بلبلة العربية، وكذلك كلمة بلّل العبرية، وكل من هاتين الكلمتين العربية والعبرية تحملان نفس المعنى، وهو اختلاط الأفكار، في حين أن الدراسة الحديثة للغة الآرامية، تؤكّد أن كلمة بابل هي في الأصل، باب إيلي، أي باب الله، كنتيجة لما وصلت اليه علوم الاشتقاق اللغوي الحديثة، المعروفة في اللغات الأوربية باسم **Etymology**.

إن الاعتقاد في حدوث فيضان دمّر العالم المأهول بالسكّان، كان هو الآخر قد جاء في أساطير بلاد الرافدين، إذ ورد ذكره في ملحمة جلجامش، ثم جاء بعد ذلك بنفس التفاصيل في سفر التكوين، الاصحاحات السادس والسابع والثامن، وانتشرت رواية هذا الفيضان المدّمر، في كل التقاليد الشفاهية والمكتوبة، في ديانات الشرق الأدنى القديم، وهو ما تشير اليه مثلا شقفة من الفخّار، تمّ العثور عليها في موقع مجدّو بفلسطين، وتعود إلى حوالي سنة ١٢٠ ق م.

٢- جنّة عدن

ثم هناك كذلك الاعتقاد، في وجود نموذج أصلي للإنسان الأول، عاش في حدائق عدن، واسمه آدم. وعدن هي الحدائق التي كانت ممتلئة بالأشجار من كل نوع وصنف، وكانت من بينها شجرة الحياة، التي أطلقت عليها النصوص التوراتية، اسم شجرة معرفة الخير والشر. هذه المعتقدات كانت سائدة، في كل الأساطير التي رويت عن الملوك الأوائل لبلاد الرافدين، ثم تبنّتها كل المعتقدات الدينية التالية، والتزمت بكل ما فيها حرفيا.

إن قصّة طرد الإنسان الأول من الحديقة، قد تكون انعكاسا لمشاعر الحرمان، التي عانى منها البدو الرعاة الرحّل، حين كانوا مضطرّين هم وقطعانهم من الماشية، إلى ترك الأودية الخصبة، والبحث في الفيافي وفي المناطق الصحراوية المتاخمة، عن وديان الأعشاب البريّة، اللازمة لغذاء الماشية.

هذه هي التجربة التي كان لها لاحقا أكبر الأثر، في تشكيل المعتقدات الأصلية، لآباء الشعب العبري الأوائل، ثم في ظهور شعب إسرائيل، كشعب متميّز عن أصوله البابلية التي خرج منها، بل عن غيره من شعوب الأرض كافة، ليصبح لاحقا شعب الله المختار. وكان الربّ قد بدأ في تمييز هذا الشعب، منذ زمن ابرهيم، لكنه لم يسرع إلى نجدة هذا الشعب الا على زمن إقامته في أرض مصر، كما ورد في سفر الخروج، في الاصحاح الثاني الأعداد من ٢٣ إلى ٢٥، التي تقول (وبعد مرور حقبة طويلة مات ملك مصر، وارتفع أنين بني إسرائيل، وصراخهم من وطأة العبودية، وصعد إلى الله، فأصغى إلى أنينهم، وتذكّر ميثاقه مع ابرهيم واسحق ويعقوب، ونظر الله إلى بني إسرائيل ورقّ لحالهم).

هذا هو الأصل في كل المعتقدات اللاهوتية الواردة في التوراة، المعتقدات التي أطلق عليها عصرنا الحديث اسم أساطير. الأصل هو هذا الاهتمام الخاص الذي يظهره الله نحو شعب إسرائيل، دونا عن سائر شعوب العالم الأخرى. هذا هو الملح الرئيسي في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، التي كان النبي موسى قد بدأ في كتابتها حوالي القرن الثاني عشر ق م، الا أن من استأنف كتابتها لم يتم عمله فيها الا بعد قرنين من الزمان، أي في حوالي القرن العاشر ق م. هذه الأسفار الخمسة الأولى هي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية.

ثم تأتي بعد ذلك في التوراة أخبار إقامة مملكة إسرائيل، على زمن الملكين داود وسليمان، في القرن العاشر ق م. وهي المملكة التي تكوّنت في الأساس من الشعب اليهودي، الذي خرج من مصر إلى بريّة سيناء، في زمن النبي موسى، بسبب سوء معاملة المصريين لأفراده. ظهر لاحقا في هذا الشعب اليهودي، وعبر قرون عديدة، عدد كبير من

الأنبياء، الذين كانوا هم أيضا يتلقّون الوحي الإلهي والرحمة الإلهية من الله، ويسجّلون رسالاتهم في أسفار متتالية، وهو ما آمن به الشعب اليهودي، بدءا من تلقّى موسى أول أنبيائهم، فوق جبل التجلّي في سيناء، الآيات الأولى من الأسفار الخمسة، ثم استمر الأنبياء من بعد موسى، يتلقّون الوحي وينقلونه إلى غيرهم من الشعوب، عبر كتاب التوراة.

لكن هذه العملية تعرّضت للكثير من الصياغة وإعادة الصياغة، عبر اثني عشر قرنا، حتى جاءت الترجمة التي قام بها سبعون عالما متبحّرا في العبريات، في القرن الأول ق م، ولذلك سمّيت بالترجمة السبعينية. وفي الحقيقة فإن كل من قام بتجميع وتصنيف وتأليف وصياغة وإعادة صياغة، نصوص أسفار التوراة، استعان بكل المعتقدات الأسطورية التي كانت سائدة في زمنه، وفي الأزمان السابقة على زمنه، التي كانت سائدة في كل مناطق حضارات الشرق الأدنى القديم.

من هذه المعتقدات الأسطورية، فكرة سقوط الإنسان الأول في خطيئة عصيان أوامر الربّ، بسبب طمعه في الحصول على كل المعارف الإلهية، من شجرة معرفة الخير والشر، بدلا من الانصياع إلى إرادة الربّ، وإطاعة أوامره دون مناقشة، أو حتى دون تفكير، عندما يدعوه الربّ، في الوقت الذي يناسب الربّ، بالطريقة التي يختارها الربّ، وهو العصيان الذي أدّى بآدم إلى طرده من حدائق الربّ.

من هذه المعتقدات الأسطورية، فكرة حدائق الربّ، حدائق عدن، وكلمة عدن في اللغة العبرية تعني السعادة، وفكرة الحيّة التي تتكلم بلغة تفهمها حوّاء، وفكرة الملائكة من حرّاس الشجرة، الذين تسمّيهم التوراة (الشاروبيم). بكل هذه الأفكار تمّ نقل مأزق معنى وهدف الوجود الإنساني، وبكفاءة شديدة، من طريق مسدود لا يمكن الا أن تؤدّي اليه، المهاترات الجدلية الطويلة المعقّدة، إلى طريق سلس يسير الولوج. هذا هو على غرار ما يحدث أحيانا، أو ما يحدث غالبا، من أن ينجح الشاعر، في ما سبق وأن فشل فيه الفيلسوف.

٣- قايين وهابيل

إن الكراهية العميقة المتبادلة، بين زرّاع الأرض المستقرّين في ديارهم، في ضواحي المدن السومرية الكبيرة، وبين رعاة الماشية المتنقّلين أبد الدهر في البادية خلف الأعشاب، هو ما نجده بوضوح في الأساطير السومرية، التي تحاول أن تفسّر لنا هذه الظواهر الاجتماعية، وهو ما ينعكس بوضوح، على القصّة التوراتية الخاصة بالأخوين قايين (قابيل) وهابيل، كأن فلاّحي الأرض ممثلين في قايين، يكرهون رعاة أغنام الأرض الممثلين في هابيل. ولأن من كتبوا التوراة كانوا من رعاة الأغنام، فهم يظهرون في هذه القصّة على أنهم المرضي عنهم من قبل الله. نجد جزء هذه القصّة الأول وهو عن الكراهية والقتل، في سفر التكوين الاصحاح الرابع من العدد ١ إلى العدد ٨. أما جزؤها الثاني وهو عن العقاب الإلهي بالطرد، ففي نفس الاصحاح، من العدد ٩ إلى العدد ١٦.

يقول الجزء الأول من النص (١- وعاشر آدم حوّاء زوجته فحبلت، وولدت قايين - ومعناها مقتنى أو قِنية - إذ قالت: اقتنيت رجلا من عند الربّ. ٢- ثم عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعيا للغنم. أما قايين فقد عمل في فلاحة الأرض. ٣- وحدث بعد مرور أيام أن قدّم قايين من ثمار الأرض قربانا للربّ، وقدّم هابيل أيضا من خيرة أبكار غنمه وأسمنها. فتقبّل الربّ قربان هابيل ورضي عنه. لكنه لم يتقبّل قربان قايين ولم يرضَ عنه. فاغتاظ قايين جدًّا وتجهّم وجهه كمدا.

٦- فسأل الرب قايين: لماذا اغتظت؟ لماذا تجهّم وجهك؟ لو أحسنت في تصرّفك ألا يشرق وجهك فرحا؟ وإن لم تحسن التصرف فعند الباب خطيئة تنتظرك، تتشوّق أن تتسلّط عليك، لكن يجب أن تتحكّم فيها. ٨- وعاد قايين يتظاهر بالودّ لأخيه هابيل. وحدث إذ كانا معا في الحقل أن قايين هجم على أخيه هابيل وقتله.)

أما الجزء الثاني من نفس النصّ فيقول (وسأل الربّ قايين: أين أخوك هابيل؟ فأجاب: لا أعرف. هل أنا حارس لأخي؟ ١٠- فقال الربّ له: ماذا فعلت؟ إن صوت دمّ أخيك يصرخ اليّ من الأرض. ١١- فمنذ الآن تحلّ عليك لعنة الأرض التي فتحت فاها وابتلعت

دمّ أخيك الذي سفكته يدك. ١٢- عندما تفلحها لن تعطيك خيرها، وتكون شريدا وطريدا في الأرض. ١٣- فقال قايين للربّ: عقوبتي أعظم من أن تحتمل.

١٤- ها أنت اليوم قد طردتني عن وجه الأرض، ومن أمام حضرتك أختفي، وأكون شريدا طريدا في الأرض، ويقتلني كل من يجدني. فقال الربّ له: سأعاقب كل من يقتلك بسبعة أضعاف العقوبة التي عاقبتك بها. ووسم الربّ قايين بعلامة تحظر على من يلقاه اغتياله. ١٦- وهكذا خرج قايين من حضرة الربّ، وسكن في أرض نود شرقي عدن.) هنا تظهر صورة الله المنتقم الجبّار، التي تختلف تماما عن صورة الله الرحيم الغفور، كما هي ستأتي بعد ألف عام في كتاب الإنجيل.

إن طرد قايين إلى أرض نود شرقي عدن، ثم تطوافه المستمر ودورانه في فراغ المتاهة التي عاش فيها بعد ذلك، مثلما هي غالبا أحوال رعاة الأغنام دائمي التجوال، رغم أن الكلمة العبرية التي يشتق منها اسمه، تحمل معنى أن تكون صاحب مهنة، الا أنه لم يعثر لمدّة طويلة على مكان يستقر فيه، ليمارس من جديد مهنة فلاحة الأرض. هذا المفهوم لا يعترف برعي الغنم كمهنة. هناك نص توراتي آخر من نفس الاصحاح، يفهم منه أن الناس دائمي التجوال، مطلوب منهم أن يسلكوا سلوكا مستقيما، في الأماكن التي يقيمون فيها إقامات مؤقّتة.

وضع الربّ علامة على جسد قايين، بحيث إن من يراها لا يقتله. يبدو أن أولاد آدم الآخرين من حوّاء كانوا قد بدأوا الانتشار في الأرض. هذه العلامة هي غالبا في صورة وشم على جلد البشرة في مكان ظاهر. مرة أخرى، هذا هو ما كان يفعله الناس عادة، في هذه المنطقة من العالم، في عصر كتابة سفر التكوين، إذ اعتادت القبائل السومرية المختلفة، على استعمال وشم خاص لكل منها، حتى لا يحدث أن يتقاتل اثنان من نفس القبيلة، بل يميّز كل منهما نفس الوشم على جلد الآخر فلا يتقاتلان.

وكما سبق القول، فإن التزاوج المستمر بين أبناء قبائل رعاة الغنم المتنقّلين، من أبناء وأحفاد ابرهيم واسحق ويعقوب، وهم من سيعرفون لاحقا باسم شعب اسرائيل،

وبين بنات قبائل المجتمعات الزراعية المستقرّة في المدن السومرية، أدّى لاحقًا إلى انتشار معتقدات بلاد الرافدين، في أرض فلسطين، التي ستشهد إقامة دولة اسرائيل. هذا لا يقتصر فقط كما شاهدنا، على أسطورة خلق العالم، بل كذلك فيما يتعلّق بالعادات العائلية، وبالتالي بالنظم الاجتماعية. هذا هو ما أدّى لاحقا إلى دخول معتقدات بلاد الرافدين تلك، في النصوص السردية الأولى، التي اعتنقها الشعب اليهودي، واعتبرها الوعاء الذي احتوى أصول اللاهوت التوراتي العبري، وهي الأسفار الخمسة الأولى من التوراة.

٤- العماليق

في العدد الرابع من الاصحاح السادس من سفر التكوين، نجد ذكرا لشعب من العمالقة، كان قد ظهر لفترة وجيزة ثم اختفى. الكلمة العبرية التي تصف هذا الشعب (نيفيليم) تعني الذين اختفوا. نفهم من النصوص اللاحقة أنهم كانوا شعبا متميّزا جدًّا، شكلا وموضوعا، على غيرهم من الشعوب البشرية المعاصرة لظهورهم. كان هذا الشعب من العماليق وفقا للمعتقدات البابلية والتوراتية، هو نتاج التزاوج بين آلهة قدامى، مع نساء من الجنس البشري. هذا الشعب من العماليق كان يعتبر إذن من أنصاف الآلهة، إذ إنه نصف إله نصف بشر. تعود بعض النصوص التالية في التوراة إلى ذكر هذا الشعب، باسم (ريفاييم).

إذ يقول السفر الخامس من التوراة، وهو السفر المعروف باسم سفر التثنية Deuteronomy، في العددين ١٠ و ١١ من الاصحاح الثاني بخصوص شعب سكن أرض موآب (هذه الأرض سكن فيها الايميّون قبلًا، وهم شعب كثير من طوال القامة، وهم يعتبرون ريفاييم كالعمالقة). وكذلك في العدد ١١ من الاصحاح الثالث (وكان عُوج آخر الجبابرة الريفاييم، وكان سريره مصنوعًا من حديد، ولا يزال محفوظا في بني عمّون، طوله تسعة أذرع، وعرضه أربعة أذرع). مع ملاحظة أن الذراع التوراتي هو نصف متر، في حين كان الذراع المصري القديم هو ٥٢ سنتيمترا.

فإذا عدنا إلى سفر التكوين، في العدد الرابع من الاصحاح السادس، نجد هذا النصّ (وفي تلك الحقب كان في الأرض جبابرة، وبعد أن دخل أبناء الله على بنات الناس، ولدن لهم أبناء، صار هؤلاء الأبناء أنفسهم الجبابرة المشهورين منذ القدم). هذه هي أسطورة كنعانية، وجدت طريقا لها في نصّ توراتي، وستجد لها طرقا أهم وأبقى، في نصوص انجيلية لاحقة، عن مولد ابن الله.

هناك كذلك اسطورة أخرى، قد تكون ذات صلة بالعماليق الريفاييم، أو أن تكون نصوص التوراة انعكاسا لها، وهي أسطورة كنعانية تقول إن الملوك المتوفّين يتحوّلون إلى ما نحي خصوبة، والكلمة العبرية هي (ربعوم). ظهر نفس هذا المعتقد في بعض النصوص الجنائزية للحضارة الفينيقية. هذا هو الاعتقاد الذي لا يزال موجودا، لدى العديد من شعوب المنطقة، حتى وقتنا الحالي، من أن زيارة الموتى يمكنها أن تعيد الخصوبة إلى المرأة العاقر.

إن حقيقة هذا الشعب من العماليق الجبابرة، الذي اختفى من التاريخ، يمكن أن نجد لها أثرا في نصوص توراتية أخرى، في قرون لاحقة، مثل النص الموجود في نبوّة إشعياء، المكتوب في القرن الثامن ق م، ونصوص أخرى في نبوّة أيّوب، وفي سفر الأمثال الذي يعزى إلى النبي سليمان.

ومع ذلك فإن هذه المعتقدات، لم تدخل إلى النصوص التوراتية، الا بعد أن تمّت بلورتها وإعادة صياغتها، بحيث تتفّق مع سياق النصوص التوراتية، وتدخل بسلاسة ضمن منظومتها السردية الضخمة، فالتوراة كتاب ضخم، يتكون في نصّه الإنجليزي من ١٢٠٠ صفحة من القطع الكبير، استمرّت كتابته والاضافات التي أدخلت عليه، خلال حوالي ألف ومائتي عام، منذ بدأت كتابته مع النبي موسى في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولم تنته كتابته الا في القرن الأول للميلاد. وفي كل مرة كان يتمّ فيها إدخال إحدى النبوّات ضمن السياق العام، كان ينبغي إعادة صياغتها لاحقًا، حتى تصبح منسجمة مع السياق العام.

مع ملاحظة أخرى، هي أن الهدف الرئيسي الذي صيغت من أجله، نصوص كتاب التوراة، هو اثبات التزام الربّ (الله/ ايلوهيم)، بتخليص شعبه المختار إسرائيل من كل أزماته، وانقاذه من أيدي أعدائه، وغفران خطاياه وآثامه، التزاما تاما لا يشعر به الله، تجاه غيرهم من شعوب الأرض، وارشاد الله شعبه المختار، إلى الطريق القويم الذي يريد لهم أن يسيروا فيه، حتى يصلوا كلهم في نهاية الأمر، إلى جنان الله الموعودين بالعودة اليها، منذ لحظة طرد آدم أبي البشرية منها.

وحيث إن قايين يمثّل أهل المدن القائمين بالزراعة، وحيث إن كاتب نصوص التوراة هو من أهل الرعي المتنقّلين في البوادي، فقد أساءت التوراة إلى قايين، الذي ظهرت فيه كل الطباع الشرّيرة، مثل الحسد والحقد تجاه أخيه، والعنف الذي وصل إلى حدّ فقدان أيّة مشاعر رحمة تجاهه. وقد استمرّت هذه الطباع الشريرة في ذرّيّة قايين من بعده، إذ تذكر لنا التوراة في الاصحاح الرابع العدد ٢٣، أن حفيده المدعو لاماك (لامش)، رغب في الانتقام ممن جرحه سبعة وسبعين ضعفا.

ثم ملاحظة أخرى تتعلّق كذلك بكاتب نصوص التوراة، وهي أن برج بابل لم يكن بالنسبة اليه معبدا للإله، ومكانا يصبح فيه هذا الإله المتعطّف المتنازل، في متناول يد البشر، وهي الفكرة التي كانت سائدة بخصوص هذا البرج في الأساطير السومرية والبابلية القديمة، بل إن هذا البرج هو رمز لرغبة الإنسان الشرّيرة غير التقيّة، في التطاول على الله، وغزو مجاله المقدّس، وتدنيس مكان إقامته في السماء، لذلك حقّ لله تدمير هذه المحاولة الوقحة.

هناك كذلك إشارات عديدة في التوراة، إلى أن الطوفان على زمن النبي نوح، كان هو الآخر بسبب ازدياد شرور البشر. هذه الفكرة هي انعكاس للأسطورة البابلية التي تقول إن الله قد تكدّر سلامه، بسبب ضجيج البشر المزعج. لا يجب أن نستمر في الاندهاش، من هذا القدر الضخم من تأثير الأساطير السومرية والبابلية، على النصوص الرصينة لكتاب التوراة.

٥- قصّة الخلق

إن قصّة الخلق، كما وردت في الأعداد من ١ إلى ٥ من الاصحاح الأول لسفر التكوين، تبدأ بذكر الأرض والسماء، على أنهما كيانان كانا بالفعل موجودين، إذ لم تذكر التوراة كيف خلق الله الأرض والسماء، قبل أن يبدأ الله في خلق الأشكال المختلفة، من الحياة النباتية والحيوانية على الأرض، وهنا تذكر التوراة المخلوقات بالتفصيل. ووفقا لهذا النصّ كانت الأرض ترتكز على المياه التحت أرضية. وهو نفس التعبير المستعمل في الأسطورة البابلية.

يقول النصّ (١- في البدء خلق الله السماوات والأرض. ٢- وإذ كانت الأرض مشوّشة ومقفرة، وتكتنف الظلمة وجه المياه، وإذ كان روح الله يرفرف على سطح المياه. ٣- أمر الله: ليكن نور، فصار نور. ٤- ورأى الله النور فاستحسنه، وفصل بينه وبين الظلام. ٥- وسمّى الله النور نهارا، أما الظلام فسمّاه ليلا. وهكذا جاء مساء أعقبه صباح، فكان اليوم الأول).

سأورد لكم هنا بعض الخطوات المتتالية، في خلق الله للكائنات، وفقا لترتيب ورودها في الاصحاح الأول من التكوين، مع بيان أرقام الآيات (الأعداد).

في اليوم الثاني: ٧- فصل الله بين المياه التي تغمر الأرض، والمياه التي تحملها السماء وتسقطها كأمطار.

في اليوم الثالث: ٩- أمر الله لتتجمّع كل مياه الأرض في البحار، ولتظهر اليابسة. ١١- أمر الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا، وشجرا مثمرا.

في اليوم الرابع: ١٦- خلق الله نورين عظيمين، النور الأكبر ليشرق في النهار، والنور الأصغر ليضيء في الليل، كما خلق النجوم أيضا.

في اليوم الخامس: ٢٠- ثم أمر الله، لتزخر المياه بشتّى الحيوانات الحيّة، ولتحلّق الطيور فوق الأرض، عبر فضاء السماء. ٢٢- وباركها الله قائلا انتجي وتكاثري.

هنا يبدو بوضوح من النصّ، أن الله لم يكن في احتياج إلى التراب أو إلى الطين، الذي يشكّله على عجلة الفخراني لصنع الكائنات الحيّة، بل تكفي كلمة واحدة من فمه لخلق الكائنات. مثلما فعل أعلاه فيما يتعلّق بإعطاء الأمر إلى الرياح بالسكوت فتسكت. هناك نصّ في الإنجيل، أسكت فيه يسوع المسيح الرياح بكلمة واحدة منه، عندما كان الجو عاصفا فوق بحيرة طبرية، وخشى تلاميذه من الغرق.

في موضوع الخلق هذا يمكن الاستدلال، على وجود اختلافات بين النص التوراتي والأساطير البابلية، التي لم تكن تسمح لالهتها بخلق الكائنات فقط بمجرّد نطق كلمة. أما التشابه الواضح فهو في وجود المحيط الأزلي من المياه، والظلام الذي كان يحوم حوله، قبل خلق العالم، في كل من بابل ومصر القديمة والنص التوراتي، قبل أن يقوم مردوخ في بابل ورعّ في مصر والله في التوراة، بإظهار قرص الشمس في السماء. (رعّ خلق نفسه).

هناك اختلاف آخر، ألا وهو أن مردوخ البابلي، كان يجد معارضة من اله الظلمات والأعماق (تيامات)، مما أدّى إلى نشوب صراع عنيف بينهما في مرّات عديدة، كان مردوخ هو المنتصر فيها على طول الخط، في حين أن الله في التوراة لا يجد أيّة معارضة، من أي كائنٍ كان. لكن هناك حقيقة توراتية تقول إن الله سيتصارع لاحقا، صراعا جسديا واقعيا، مع رجل من الكائنات البشرية التي خلقها، وهو النبي يعقوب. الا أن بعض مفسّري التوراة يقولون، إن هذا الصراع لم يكن بين يعقوب وربّه، بل كان بين يعقوب وملاك الربّ.

في اليوم السادس: ٢٥- خلق الله وحوش الأرض، والبهائم والزواحف. ٢٦- ثم قال الله، لنصنع الإنسان على صورتنا، فيتسلط على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى الأرض وعلى كل زاحف يزحف عليها. ٢٧- ذكرا وأنثى خلقه. ٢٨- وباركهم الله قائلا لهم، أثمروا وتكاثروا واملأوا الأرض واخضعوها.

نلاحظ في النصوص السابقة، أن الله كان يخلق كل الكائنات بكلمة منه، كن فيكون، وهي نفس نظرية الخلق في منف عاصمة مصر في عصر الدولة القديمة، إذ إن الإله بتاح،

في القرن الثلاثين قبل الميلاد، أي قبل ظهور أول نصوص التوراة بألفي عام، كان هو الآخر يخلق جميع الكائنات بكلمة واحدة منه، كن فيكون. نظرية الكلمة (لوجوس logos).

في اليوم السابع (يأتي في بداية الاصحاح الثاني): ٢- وفي اليوم السابع، أتمّ الله عمله الذي قام به، فاستراح فيه. ٣- وبارك الله اليوم السابع وقدّسه، لأنه استراح فيه.

اليوم السابع هو السبت أي الثبوت وعدم الحركة، وهو التقليد اليهودي المتبّع حتى الآن. لكن في نفس نصّ هذا الاصحاح الثاني، يأتي لاحقا نصّ آخر محيّر، إذ يعود الله إلى ذكر كيفية خلقه للإنسان، ليس بنطقه للكلمة، كن فيكون، بل بطريقة أخرى.

٦- آدم وحوّاء

في الاصحاح الثاني من سفر التكوين، الذي من المفترض، أن تدور أحداثه، بعد تمام الأسبوع الأول من الخليقة (٥- ولم يكن قد نبت بعد في الأرض شجر برّي ولا عشب برّي، لأن الربّ الإله لم يكن قد أرسل مطرا على الأرض، ولم يكن هناك إنسان ليفلحها. ٧- ثم جبل الله آدم من تراب الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسا حيّة. ١٨- ثم قال الرب الإله، ليس مستحسنا أن يبقى آدم وحيدا، سأصنع له معينا مشابها له. ٢١- فأوقع الرب الإله آدم في نوم عميق، ثم تناول ضلعا من أضلاعه وسدّ مكانها باللحم. ٢٢- وعمل من هذه الضلع امرأة أحضرها إلى آدم).

لوحظ في الحروف المسمارية cuneiform، للكتابة السومرية، أن العلامتين الدالتين على (ضِلع) و(حياة) متشابهتان. كما يمكن بسهولة ملاحظة أن كلمات (حوّاء) و(حياة) و(حيّة)، هي كلمات متشابهة في اللغتين العبرية والعربية. (حياة) في العبرية هي (حاييم). يقول الاصحاح الثالث من سفر التكوين، في العدد ٢٠- وسمّى آدم زوجته حوّاء لأنها أم كل حيّ.

فيما بعد اكتشف أن الكلمة الدالة على إنسان وعلى رجل هي واحدة في النصوص العبرية الأولى، مثلما هو الحال في الإنجليزية أو الفرنسية الحالية (man/ homme)، لكن

الفرق في العبرية القديمة بين كلمة رجل وكلمة امرأة، هو أنها نفس الكلمة الا أنها في حالة امرأة، ترسم إلى جوار الكلمة ثلاثة خطوط أفقية قصيرة، كما لو كانت إشارة إلى أضلاع القفص الصدري.

أمّا فيما يتعلّق بالاختلافات التي لوحظت، فهناك ملحوظتان، الملحوظة الأولى هي أن النصّ التوراتي يقول إن الله قد خلق آدم من طين الأرض، ثم نفخ نفس الحياة في منخاريه، بينما النص البابلي يقول، إن مردوخ قد أضاف إلى طين الأرض، الدم المستخلص من (كينجو)، وهو الإله الضدّ، والعدو التقليدي لمردوخ. هل يكون دمّ هذا الإله الضدّ، هو السبب في احساس مردوخ أحيانا بالعداء للبشر؟ أما الملحوظة الثانية فهي أن النص التوراتي يقول إن الله خلق آدم أولا، ثم بعد بعض الوقت أخذ منه ضلعه وصنع منه حوّاء، بينما النصّ البابلي يقول، إن الربّ مردوخ قد صنع آدم وحوّاء في نفس الوقت وبنفس الطريقة.

٧- على صورته ومثاله

ثم نأتي على ذكر الحديقة الإلهية المسمّاة عدن، فهي بالإضافة إلى كونها المكان الذي استقر فيه آدم وحوّا، فهي أيضا الحديقة التي كان الربّ يستنبت فيها الأنواع المختلفة من الأشجار والثمار، ويحيطها بسياج حتى لا تتمكن الماعز من نهبها. الا أن أهم ما يأتي نص التوراة على ذكره، فهو أنه في هذه الحديقة يقع منبع الأنهار الأربعة الأكبر في العالم. سيحون وجيحون ودجلة والفرات. وهو نفس ما تذكره الأساطير البابلية، معطية لهذه الأنهار نفس الأسماء.

فإذا ذهبنا إلى شمال سوريا، إلى حيث تقع مدينة أوجاريت على ساحل البحر المتوسّط، سنجد أن الأساطير الأوجاريتية تقول إن عرش العليّ (Eli) القدير، أكبر آلهة مجمّع الآلهة، يقع في نفس المكان الذي تنبع منه الأنهار الأربعة الكبرى. أو كما تقول نصوص دولة مدينة city state ماري، في سوريا الحالية، على لوحة جدارية برسومات من الفريسك (الجصّ الملون)، تعود إلى القرن ١٨ ق م، إن منبع الأنهار الأربعة العظمى،

يأتي من الماء المنسكب من الكأس التي يحملها كبير الآلهة في يده. هناك نقش على أحد جدران معبد فيلة في مصر، نرى فيه اله النيل (حابي)، وهو يصبّ الماء من كأس يمسك بها في يده، ويقول النصّ المصاحب للنقش، إن هكذا تنبع مياه النيل.

في بعض نصوص بابل القديمة، يتمّ تصوير الإله خالق الكائنات كفخراني، يستعمل طين الأرض الجاف النيّ، في صنع البشر والحيوانات وقولبتهم على عجلة الفخراني. وهي نفس صورة الفخراني المصري خنوم برأس كبش، خالق الكائنات. ثم يأتي الربّ بكل الكائنات الحية، واحدا واحدا أمام آدم ليعلّمه أسماءها، ليتمكّن آدم من التمييز بين أشكالها، ثم من السيطرة عليها ليؤكّد تفوّقه عليها ويسخّرها لخدمته.

يقول الاصحاح الثاني (١٩- وكان الربّ قد جبل من التراب، كل وحوش البريّة وطيور الفضاء، وأحضرها إلى آدم ليرى، بأي أسماء يدعوها، فصار كل اسم أطلقه آدم على كل مخلوق حيّ اسما له. ٢٠- وهكذا أطلق آدم أسماء على كل الطيور والحيوانات والبهائم). ورغم أن الأمر الإلهي للحيوانات بالتكاثر، يفهم منه ضمنيًّا، أن الله قد خلق هذه الحيوانات من ذكر وأنثى، إلا أن هذا المعنى لم يأتِ في النص التوراتي.

إن نظرية خلق الكائنات في الأساطير القديمة، وفي نصوص التوراة، تتفّق مع الحقائق العلمية المكتشفة حديثا، من أن أول أشكال الحياة البيولوجية كانت في مياه البحار المالحة. الا أن الاختلاف هو في أن النصّ التوراتي، ربط بين خلق الأسماك والطيور في جملة واحدة، كما لو أنها قد خلقت معا في نفس الوقت.

في حين أن العلم الحديث يقول لنا، إنه بين خلق الأسماك وخلق الطيور، لابد لمراحل تطّور الفقّاريات **vertebrae**، من المرور بمرحلة الكائنات البرمائية **amphibians**، والزواحف **reptiles**. فالكائنات وفقا للعلم الحديث قد خلقت بهذا الترتيب: الأسماك، البرمائيات، الزواحف، الطيور، الثديّيات، ثم يأتي الإنسان على قمّة الثديّيات.

يقول النصّ التوراتي إن الله قد خلق الإنسان (على صورته ومثاله)، وهي العبارة التي فسّرت، على أن الإنسان هو الكائن الوحيد، القادر على التواصل الشخصي مع الله، لأنه

ميّزه بالروح والعقل، وبنطق الكلمات التي يتبادلها مع الله. كلمة صلاة العربية مشتقة من كلمة صلة، أي القدرة على التواصل مع الله.

قد يكون هناك تشابه كذلك بين النفس الإلهي، الذي نفخه الله في منخاريْ الإنسان، أي فكرة أن الإنسان لديه هذه المادة الإلهية الأولى ألا وهي النفس الإلهي، مما يبرّر عبارة (خلق الله الإنسان على صورته ومثاله). التشابه هو بين هذا المعنى في التوراة، وبين أن يأخذ مردوخ دما من كائن الهي آخر (هو الإله الضدّ كينجو)، ويمزجه بجسد الإنسان، فقد يعني هذا كذلك وجود عنصر الهي، في إنسان الأسطورة البابلية.

فإذا فحصنا أسطورة جِلجامش البابلية، لوجدنا أنها تقول إن بطلها الملك جِلجامش، كان ثلثيْ إله، وثلث إنسان. وفي مصر القديمة كان أغلب ملكوها، منذ أوسركاف في الأسرة الخامسة، قد قالوا لشعوبهم إنهم أنصاف آلهة، وأنّهم مولودين بطرق معجزية. نجد هنا اللبنة الأولى، للفكرة التوراتية في خلق الله للإنسان على صورته ومثاله، وفي الفكرة الانجيلية التي تمزج بين الآلهة والبشر، في صورة كائن نصف بشر نصف اله.

تفسّر التوراة إن الهدف من وجود هذا العنصر الإلهي داخل الإنسان، أنه هو الذي مكّن الإنسان من السيادة والسيطرة على بقية مخلوقات الله. هذا هو ما نراه كذلك في تعلّم الإنسان على يد الله النطق بأسماء الكلمات المختلفة واحدًا واحدًا. هذه الأسماء هي نفس الكلمات التي تستعملها اللغة العبرية حتى الآن، منذ ثلاثة آلاف عام، فاللغة العبرية المكتوب بها كتاب التوراة المقدّس، هي في حدّ ذاتها لغة مقدّسة، لا ينبغي تغيير أي شيء فيها، لا في مفرداتها ولا في قواعدها، لأنها اللغة التي تحدّث بها الله إلى آدم منذ لحظة خلقه له، ولأنها اللغة التي سيستعملها أفراد من الشعب اليهودي في الجنّة، إذا كان مقدّرا لهم الذهاب اليها في نهاية حيواتهم.

الفصل الثاني
التوراة بين الأسطورة والتاريخ

١- الخلاص العظيم وعقد اتفاقية العهد

كانت نصوص التوراة المتعلّقة بقيام مملكة إسرائيل، تشير إلى معلومتين تاريخيتين، المعلومة الأولى هي أن هذه الجماعة التي قدّسها الربّ، تعود بجذورها الأكثر عمقا في التاريخ، إلى عملية خلاص عظيم، حرّر بها الربّ شعبه المختار، من عبودية الأسر لدى ملوك مصر، وأن هذه الجماعة المقدّسة كانت قد أزيحت من مكانها عدّة مرات من قبل. هذه الجماعة هي التي تشير اليها النصوص المصرية القديمة، باسم خابيرو، ومن هذه الكلمة جاءت تسمية الشعب العبري.

أما المعلومة الثانية، فهي أن هناك تجربة روحية هامة، مرّ بها هذا الشعب المقدّس بعد خروجه من مصر، عندما أعلن الرب تبنّيه لهذا الشعب المختار، وقرّر أن يتجلّى على جبل سيناء المقدّس للنبي موسى، القائد الروحي لهذا الشعب المختار، ويعقد معه ومع شعبه عهدا مقدّسا.

عندما بدأ أفراد هذه الجماعة العرقية الدينية، في الاستقرار على أرض فلسطين، جذبت أفرادا غيرها من بني جلدتها، ممن لم يكونوا حاضرين لا في تجربة الخروج من مصر، ولا في تجربة العهد بين الربّ والبشر، لكن هؤلاء الأفراد الجدد، انضمّوا إلى الديانة

الجديدة، التي تنصّ على المساواة بين كل أفرادها، واعتبروا أنهم من بين من يعنيهم هذا العهد بين الربّ والشر، وأن هذه الرسالة تخصّهم أيضا مع بقيّة الشعب اليهودي.

ازدادت أواصر الارتباط والتضامن بين القدامى والجدد، عندما بدأ الجميع في ممارسة نفس الطقوس الدينية، وهو نفس ما سيحدث لاحقا في زمن المسيحيين الأوائل، عندما تؤدّي ممارسة نفس الطقوس الدينية، المتعلّقة بذكرى جسد ودمّ يسوع المسيح، التي علّمهم إيّاها المسيح في عشائه الأخير مع تلاميذه، إلى تقوية أواصر الارتباط بين المسيحيين الأوائل.

عبر عدد من مثل هذه الممارسات الطقسية، المحتفل بها في عدد من المذابح والهياكل المتناثرة فوق أرض فلسطين، تمّت إعادة صياغة التصوص التوراتية، ليتمّ أولا: التأكيد على خلاص شعب إسرائيل، من العبودية في مصر على يد الربّ، وثانيا: التأكيد على العهد الذي أخذه الربّ على نفسه، بحماية شعبه المختار من كل أعدائه المتربّصين به.

هكذا أصبح لممارسة هذه الطقوس، ولتلاوة هذه النصوص، أهمية متزايدة عبر القرون المتتالية. لكن هنا ينبغي أن نحاول معرفة ما هو تاريخي وحقيقي في هذا التراث العبري، من ما هو دخيل وأسطوري ومزيّف فيه. ذلك لأن كل هذه العناصر التاريخية الحقيقية والدخيلة الأسطورية المزيّفة، قد امتزجت معا، إلى الدرجة التي أصبح من الصعب فيها، التمييز بينها.

مع مرور الزمن، والتباعد بين الجيل الذي حضر أحداث الخروج من مصر، وبين العديد من الأجيال اللاحقة، تمّت إضافة الكثير من العناصر الجديدة، لزيادة التأثير الدرامي العاطفي العنيف، المطلوب للتأثر في المستمعين للحكايات المروّية، أو للقارئين لها في نصوص التوراة. وكنتيجة لكل هذا، أصبحت المعتقدات المتعلّقة بشعب إسرائيل، أقرب شبها بمسرحية تراجيدية بها الكثير من التوابل، لتنال إعجاب الجمهور.

هذا التحوير الدرامي العنيف، أدّى إلى تحوير الكثير من الحقائق التاريخية، التي أصبحت معروفة لنا في القرن العشرين، بفضل الوسائل العلمية الحديثة، التي تمكننا

الآن من فهم الأوضاع التاريخية والجغرافية في الأزمنة القديمة. إن الإصرار على الالتزام الحرفي بنصوص التوراة، من قِبَل العلماء اليهود، يمنعنا من الوصول إلى صياغة موضوعية، للحوادث المصاحبة لخروج الشعب اليهودي من مصر.

إن النصوص التوراتية الأولى، المكتوبة باللغة العبرية، التي تعود إلى القرن العاشر ق م، وتمّ تجميعها لاحقا في شكل كتاب واحد، يتكون من خمسة أسفار، هي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية، يمكن بسهولة تمييز أسلوبها، المختلف عن أسلوب بقيّة أسفار التوراة، المكتوبة في قرون لاحقة، على يد عدد كبير من أنبياء التوراة، وهو مجموع النصوص الذي سيعرف لاحقا، لا باسم التوراة بل باسم العهد القديم، تمييزا له عن نصوص الإنجيل، التي ستعرف لاحقا باسم العهد الجديد. فالعهد القديم كان بين الربّ ونبيّه موسى والشعب العبري، أما العهد الجديد فبين الربّ ونبيّه يسوع المسيح وكل شعوب الأرض.

يبدو بوضوح الطابع الدرامي المسرحي العنيف، للخمسة أسفار الأولى من التوراة، إذ تصوّر صراعا يزداد زخما وكثافة عبر السنوات، بين الربّ وشعبه المختار، منذ أن كان هذا الشعب لا يزال واقعا تحت نير عبودية الفراعنة في أرض مصر، حين تمكّن موسى بمساعدة الربّ، من الاتيان بأفعال معجزية عديدة، مثل توجيه ضربات متلاحقة لشعب مصر، في صورة مجموعة من الكوارث الطبيعية وغير الطبيعية، تصيب فقط المصريين، ولا تمسّ بأي سوء، أي فرد من الشعب العبري المختار، بشكل معجزي.

أمكن للتوراة تفسير الكيفية التي قتل بها الربّ أبكار الشعب المصري، بالقول بأن ملاك الموت كان يستطيع تمييز بيوت اليهود فيتجنّبها، ولا يدخل الا إلى بيوت المصريين ليقتل أبكارهم، حتى أبكار مواشيهم لم تسلم من الكارثة. أما في حالة إصابة المصريين بالطاعون، فالسؤال هو: كيف ينجو كل الشعب العبري، ويصاب كل الشعب المصري، في حين أن هذا المرض يسهل انتقال عدواه بين الناس، رغم أن اليهود كانوا يقيمون غالبا مع المصريين في نفس الأحياء السكنية؟ لم تذكر التوراة أيّة إجابة على هذا السؤال عدا

كون المسألة معجزة إلهية.

ثم هناك كذلك معجزة إصابة جميع مصادر المياه في مصر بالتلوّث، مسبّبة الأمراض الوبائية المعدية، ومع ذلك يكن أي حيوان من قطعان المواشي التي يملكها اليهود، قد أصيب بطاعون المواشي، فالحيوانات المصابة كانت فقط في قطعان المواشي التي يملكها الشعب المصري. ثم امتلاء مياه النيل والترع بالضفادع، وامتلاء سماء مصر بأسراب الجراد، وسقوط كرات الثلج من السماء، وسماع أصوات البرق في السماء. حدث كل هذا بسبب غضب الربّ من الشعب المصري، الذي يستعبد شعبه المختار.

إن مثل هذه المرويّات، التي تمزج بين المعتقدات البدائية وأهازيج الملاحم الشعبية، كانت منتشرة في الحضارات البدائية القديمة، وفي ثقافات شعوب القبائل الأفريقية، للتدليل على غضب آلهة الطبيعة، ثم أعيد استعمالها في نصوص التوراة، التي من المفروض أنها من وحيّ الإله، الذي تبدو صورته هنا في هذا النصّ، كما لو كان أحد آلهة القبائل البدائية، الذي يدافع فقط عن أفراد قبيلته هو، ضد كل من يفكّر في معاداتها، ولا يفكّر اطلاقا في أن البشر الآخرين، هم أيضا من ضمن مخلوقاته. إن عنصرية هذا الإله الواضحة جدا، هي من بقايا عبادات وثنية لآلهة القبائل البدائية.

٢- سفر الخروج وعبور الماء

كان الشعب اليهودي يحتفل، منذ زمن ما قبل الخروج من مصر، بالطقس الذي كان اليهود يسمّونه طقس (الانتقال)، وهي كلمة (بصخة) العبرية، في إشارة إلى كثرة انتقالات الشعب اليهودي المكانية، بين المواقع الجغرافية المختلفة عبر القرون، من بلاد الرافدين إلى أرض كنعان، في حوالي القرن ٢٠ ق م، ثم من أرض كنعان إلى أرض مصر، في حوالي القرن ١٧ ق م، في وقت لم تكن توجد فيه حدود بين الدول والممالك، وفقا لعادات الرعاة من بدو الصحراء، في التنقّل بحثا عن الكلأ. ورغم استقرار اليهود في مصر، لمدّة قد تصل إلى أربعة قرون، إلى القرن ١٣ ق م، الا أنهم استمروا خلال تلك القرون في الاحتفال بهذا الطقس.

بعد خروج شعب إسرائيل من أرض مصر، أصبحت هذه الكلمة (بصخة)، تطلق فقط على ذكرى الخروج. ثم ظهرت تفسيرات مختلفة للربط بين هذه الكلمة، والكلمة اللاتينية باسكوا **pass/aqua**، ومعناها (عبور الماء). وهكذا أضيف إلى هذا الطقس القديم الكثير من التوابل، لتحويره دراميا بغرض التأثير الشديد على كل من يستمع إلى الرواية.

من الإضافات اللاحقة هناك مثلا، تصوير شدّة معاناة اليهود أثناء عبوديتهم في مصر، وهناك الكوارث التي أصابت الشعب المصري، وهناك كذلك أسطورة عبور الماء التي تصل بحلقات هذا المسلسل الدرامي العنيف إلى ذروته، عندما يعود الماء بعد عبور شعب إسرائيل، ليغرق فقط فرعون وجنود جيشه، كأن هذا الماء، وهو من قوى الطبيعة، مسخرٌ فقط لخدمة شعب إسرائيل. الحقيقة الجغرافية على أرض الواقع تقول، إن ما عبره اليهود لم يكن بحرا، بل مجرّد بحيرة ضحلة قليلة العمق، من مجموعة البحيرات التي تسمّى الآن المرة أو التمساح، التي لم تكن متصّلة بالبحرين الأحمر والأبيض، قبل حفر قناة السويس، بحيث أنه كان يمكن المرور فيها دون التعرّض للغرق.

تأملوا في هذا الوصف الدرامي العنيف، الذي وضعه مؤلّف سفر الخروج، في الاصحاح الرابع عشر، بين العدد ١٠ والعدد ٢٩:

(١٠- ولمّا اقترب فرعون، نظر بنو إسرائيل، وإذا بالمصريين يندفعون نحوهم، فارتعبوا واستغاثوا بالربّ. ١١- ثم قالوا لموسى: هل لافتقار مصر للقبور، أخرجتنا إلى الصحراء لنموت فيها؟ ماذا فعلت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ ١٢- ألم نقل لك في مصر: دعنا وشأننا فنخدم المصريين، إذ كان خيرا لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في الصحراء. ١٣- فقال موسى للشعب: لا تخافوا، قفوا وانظروا خلاص الربّ الذي يجريه لكم اليوم، لأن المصريين الذين رأيتموهم اليوم، لن تروهم في ما بعد إلى الأبد. ١٤- فالربّ يحارب عنكم وأنتم تصمتون.

١٥- وقال الربّ لموسى: ما بالك تستغيث بي؟ قل لبني إسرائيل أن يرحلوا. ١٦- ارفع عصاك وابسط يدك فوق البحر وشقّه، فيجتاز بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة.

١٧- فها أنا أغلّظ قلوب المصريين فيسعون وراءكم، فأتعظّم بالقضاء على فرعون وعلى مركباته وفرسانه. ١٨- فيدرك المصريون أنني أنا الربّ. ١٩- وانتقل ملاك الله الذي كان يتقدّم عسكر إسرائيل، إلى المؤخّرة خلفهم، وكذلك انتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم. ٢٠- فدخل بين عسكر المصريين وعسكر الإسرائيليين، وصار عمود السحاب ظلاما قاتما على المصريين، وضياءً على بني إسرائيل، فلم يقترب أحدهما من الآخر طوال الليل.

٢١- وبسط موسى يده فوق البحر، فأرسل الربّ طوال تلك الليلة ريحا شرقية قوية ردّت البحر إلى الوراء، وحوّلته إلى يابسة، وهكذا انشق البحر. ٢٢- فاجتاز الإسرائيليون في وسط البحر على أرض يابسة، فكان الماء بمثابة سورين عن يمينهم وعن يسارهم. ٢٣- لحق بهم المصريون، ودخلوا وراءهم إلى وسط البحر، بجميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه. ٢٤- وقبل طلوع الصباح، أشرف الربّ في عمود النار والسحاب، على عسكر المصريين وأربكهم.

٢٥- فجعل مركبات عجلاتهم تتخلّع، فطفقوا يجرّونها بمشقّة، حتى قال المصريون: لنهرب من الإسرائيليين، لأن الربّ يحارب عنهم ضدّنا. ٢٦- وقال الربّ لموسى: ابسط يدك فوق البحر ليرتدّ الماء على المصريين مع مركباتهم وفرسانهم. ٢٧- فبسط موسى يده فوق البحر عند انبثاق الصباح، فارتدّ البحر إلى موضعه على المصريين الهاربين في اتجاهه، فجرفهم الربّ نحو وسط البحر. ٢٨- ارتدّت المياه وأغرقت المركبات والفرسان، وكل جيش فرعون الذي لحق بهم إلى البحر، فلم يفلت منهم ناجٍ واحد. ٢٩- أما بنو إسرائيل فقد ساروا فوق أرض يابسة وسط مياه البحر).

جاءت بعد ذلك ترنيمة شكر إلى الربّ، يتغنّى بها الشعب اليهودي، على ما أعانه به من معجزات، في الاصحاح التالي (١٥)، الأعداد من ١ إلى ١٢، ثم زيدت في عصور لاحقة بالأعداد من ١٣ اى ١٨. وكما لاحظنا فإن النصّ التوراتي، يؤكّد على جانب الاعجاز الإلهي، في أحداث وقائع يوم خروج شعب إسرائيل من مصر.

٣- الظهور الإلهي على جبل التجلّي

وفقا لنفس السياق السابق، الذي أعلن الربّ فيه، مساندته غير المشروطة لشعبه المختار إسرائيل، ظهر الربّ بنفسه، لنبيّه موسى على جبل سيناء المقدّس. وقد تحوّل هذا الظهور الإلهي هو الآخر إلى منظر مسرحي، عند صياغته في نصّ توراتي. إذ يصاحب هذا الظهور، وجود عدد من علامات الطبيعة، التي أصبحت مرتبطة بظهورات إلهية تالية، مثل الرعد والبرق وزلزلة الأرض، وظهور دخّان كثيف. ولديكم هنا نصّ سفر الخروج الاصحاح ١٩ الأعداد من ١٤ إلى ١٩.

(١٤- وبعد أن انحدر موسى من الجبل إلى الشعب، قدّسهم وغسلوا ثيابهم. ١٥- وقال للشعب: كونوا متأهّبين لليوم الثالث، وامتنعوا عن معاشرة نسائكم. ١٦- وفي صباح اليوم الثالث، حدثت رعود وبروق، وخيّم سحاب كثيف على الجبل، ودوّى صوت بوق قوي جدا، فارتعد كل الشعب الذي في المخيّم. ١٧- فأخرج موسى الشعب من المخيّم للقاء الله، فوقفوا عند سفح الجبل. ١٨- وكان جبل سيناء كله مغطّى بدخان، لأن الربّ نزل عليه في هيئة نار، وتصاعد دخّانه كدخّان الأتون، واهتز الجبل كلّه بعنف. ١٩- وازداد دويّ البوق وأكثر فيما كان موسى يتكلّم، والربّ يجيبه برعد).

في الحقيقة إننا لا نعرف بدقّة، ما هو المقصود بجبل سيناء، فمن المحتمل أن يكون فعلا هو الجبل، الذي يقصده الحجّاج من بلاد العالم المختلفة، والواقع بالقرب من جنوب شبه جزيرة سيناء، الا أن هناك احتمالا آخر، وهو أن يكون هذا الجبل بالقرب من واحة، كانت معروفة باسم قادش، وتقع بالأحرى في الثلث الشمالي من شبه جزيرة سيناء. في الحقيقة كذلك، لم تكن لأيٍ من هذين المكانين، أيّة أنشطة بركانية معروفة، في ذلك الوقت من نهايات الألف الثاني قبل الميلاد. إن أقرب حقل بركاني من منطقة سيناء الجنوبية أو الشمالية، هو ذلك الواقع في شمال منطقة الحجاز، من شبه جزيرة العرب، في الأرض التي كانت تسمّى قديما أرض (مِدْيان).

كانت هناك علاقات ذات مغزى، بين نبيّ الله موسى، وبين قبائل من البدو الرحّل

معروفين باسم (يِثْرون Jethro)، إذ كان موسى، أثناء فترة هروبه الأول من أرض مصر، قد لجأ إلى شمال سيناء، حيث تزوّج من ابنة شيخ هذه القبيلة. وهذا هو نصّ من سفر الخروج الاصحاح الثاني الأعداد من ١٦ إلى ٢٢.

(١٦- وكان لكاهن مديان سبع فتيات، فأقبلن واستقين ماءً، وملأن الأجران، ليسقين غنم أبيهنّ. ١٧- فأتى الرعاة وطردوهنّ. غير أن موسى هبّ لنجدتهنّ وسقى غنمهنّ. ١٨- وعندما رجعت الفتيات إلى رعوئيل أبيهنّ سألهنّ: ما بالكنّ بكّرتنّ بالرجوع اليوم؟ ١٩- فأجبنه: رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة، فاستقى لنا ولغنمنا أيضا. ٢٠- فسألهنّ: وأين هو؟ لماذا تركتنّ الرجل؟ ادعونه ليأكل طعاما. ٢١- وقبِل موسى أن يقيم مع الرجل، الذي زوّجه من ابنته صفّورة. ٢٢- فأنجبت له ابنا دعاه جِرشوم، ومعناه غريب، إذ قال: كنت نزيلا في أرضٍ غريبة).

عندما التقى موسى بأفراد هذه القبيلة، للمرّة الأولى التي ذُكِرَت عاليه، كانوا غالبا دائمي التنقّل، بين واحة قادش في شمال سيناء، وبين منخفض من الأرض الواقعة إلى الشمال من خليج العقبة، بحثا عن الماء والكلأ. في ذلك الوقت كان ناس الإقليم، قد بدأوا فعلا في البحث عن مناجم النحاس، في منطقة جرف المنحدرات الشرقية، وهي نفس المناجم التي ستسمّى لاحقا، مناجم الملك سليمان. هناك احتمال كبير، أن يكون هؤلاء القوم من المديانيين **Midianites**، قد جاؤوا في الأساس، من منطقة أودية شمال الحجاز، حيث كان أسلافهم يعيشون، وحيث كانت الجبال بركانية، فاتجهوا شمالا إلى سيناء، حتى استقرّوا في واحة قادش، جالبين معهم تقاليدهم ومعتقداتهم.

كانوا يؤمنون بوجود هياكل مقدّسة فوق الجبال، تحدث في بعضها أحيانا ظهورات الهية. وبالتالي أصبحت الجبال في عرفهم أماكن مقدّسة، بما فيها كذلك جبال سيناء. هذا الايمان هو الذي انتقل لاحقا، عبر نبوّة موسى، إلى الشعب اليهودي، ثم انتقل بعد ذلك، عند إقامة دولة مملكة إسرائيل، إلى جبل صهيون في مدينة أورشليم. هنا نصّ من مزمور النبي داود، رقم ٤٨ الأعداد من ١ إلى ٣ (١- ما أعظم الربّ، وما أجدره بالتسبيح،

في مدينة ربّنا، في جبل قداسته. ٢- جبل صهيون جميل في شموخه، هو فرح كل الأرض حتى أقاصي الشمال، هو مدينة الملك العظيم. ٣- الله المقيم في قصورها معروف بأنه حصن منيع). نجد كذلك في نصوص (رأس شمرة)، في موقع بشمال سوريا، أن كرسي عرش الإله (بعل)، كان موجودا فوق قمّة جبل (الأَقْرا al- Aqra).

هكذا أصبحت مستلزمات ظهور الإله ربّ إسرائيل معروفة، النار والدخّان وزلزلة الأرض، وهي كلها من بين الظواهر البركانية. لدينا هنا نص آخر من سفر النبي إشعياء، وهو كذلك من بين أسفار التوراة، التي أضيفت إلى نصوص الكتاب المقدّس في القرن الثامن ق م. فلدينا في الاصحاح السادس من هذا السفر، الوصف الذي وضعه هذا النبي، عن تفاصيل الرؤيا الإلهية، التي تمّت خلالها دعوته إلى النبوّة.

(١- شاهدت السيّد الربّ جالسا على عرش مرتفع سام، وقد امتلآ الهيكل من أهدابه. ٢- وأحاط به ملائكة السرافيم، لكل واحدٍ منهم ستّة أجَنحة، أخفى وجهه بجناحين، وغطّى قدميه بجناحين، ويطير بالجناحين الباقيين. ونادى أحدهم الآخر: قدّوس قدّوس قدّوس الربّ القدير، مجده ملء كلّ الأرض. ٤- فاهتزّت أسس أركان الهيكل من صوت المنادي، وامتلأ الهيكل بالدخّان. ٥- فقلت: ويلٌ لي لأني هلكت، لأني إنسان نجس الشفتين، وأسكن وسط قوم دنسي الشفاه، فإن عينيّ قد أبصرتا الملك الربّ القدير. ٦- فطار أحد السرافيم اليّ وبيده جمرة أخذها من على المذبح. ٧- ومسّ بها فمي قائلًا: انظر، ها إن هذه قد مسّت شفتيك فانتُزِع إثمُك وتمّ التكفير عن خطيئتك.

٨- وسمعت صوت الربّ يقول: من أُرسِل؟ ومن يذهب من أجلنا؟ عندئذ قلت: ها أنا ارسلني. ٩- فقال: امضِ وقل لهذا الشعب: اسمعوا سمعا ولكن لا تفهموا. انظروا نظرا ولكن لا تدركوا. ١٠- قسِّ قلب هذا الشعب، وثقِّل أذنيه، وأغمض عينيه. لئلا يرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويفهم بقلبه، فيرجع عن غيّه ويبرأ. ١١- ثمّ قلتُ: إلى متى يا ربّ؟ فأجاب: إلى أن تصبح المدن خربة مهجورة، والبيوت خالية من الرجال، والحقول خرابا مقفرا. ١٢- وينفي الربّ الإنسان بعيدا، وتكثر الأماكن الموحشة في وسط الأرض. ١٣-

وحتى لو بقيَ بعد ذلك عُشْر الأرض، فإنها ستحرق ثانيةً). نبوءة دموية قاسية، لاله دموي شرّير.

في ذلك الوقت من تاريخ مملكة إسرائيل، حول القرن الثامن ق م، كانت تقام في هيكل أورشليم، طقوس الاحتفال بمهرجان مقدم الخريف، وهي المرتبطة كذلك باحتفالات العام الجديد، حيث تساق إلى الهيكل مناظر مسرحية، يحتفل خلالها الممثّلون من الكهنة، على غرار ما كان يحدث في معابد مصر القديمة، بانتصار قوى الخير الممثّلة في الرب الإله الواحد القهّار، على قوى الشرّ الممثلة في الشيطان، فيؤسّس الربّ مُلْكَه في مملكة إسرائيل، ويقدّم اليه الشعب القرابين، احتفالا بالعهد المقدّس بين الربّ والشعب.

هذه الاحتفالات يشار فيها إلى صورة الربّ، كما جاءت في سفر آخر من أسفار التوراة، هو سفر نبوّة حبقوق، الاصحاح الثالث من العدد ٣ إلى العدد ١٣ (٣- قد أقبل الله من آدوم، وجاء القدّوس من جبل فاران بسيناء، فغمر جلاله السماوات وامتلأت الأرض من تسبيحه. ٤- إن بهاءه كالنور، ومن يده يومض شعاع، ٥- يتقدّمه وباء، والموت يقتفي خطاه. ٦- وقف وزلزل الأرض، تفرّس فأرعب الأمم، اندكّت الجبال الأبدية، وانهارت التلال القديمة.

٧- لقد رأيت شقق أخبية ديار مديان ترتجفّ رعبا. ٨- هل غضبك منصبّ على الأنهار يا ربّ؟ أعلى الأنهار احتدم سخطك؟ أم على البحر سكبت جام غيظك؟ ١٠- رأتك الجبال فارتعدت. ١١- القمر والشمس توقّفا في منازلهما. ١٢- تطأ الأرض بسخط، وبغضب تدوس الأمم. ١٣- لكنك خرجت لخلاص شعب مختاريك، فهشّمت رؤوس زعماء البلاد الأشرار، وتركتهم مطروحين عراة). نفس صورة الإله الغاضب دائما القاسي المرعِب المدمّر، المتعصّب فقط لصالح شعبه المختار.

إننا نجد نفس هذه الصورة بتنويعات مختلفة، في مختلف أسفار العهد القديم، فمثلا في سفر النبي حزقيال، في الاصحاح الأول منه نجد (١- في سنة الثلاثين من عمري، فيما كنت بجوار نهر خابور، أن انفتحت السماوات فشاهدت رؤى من عند الله. ٤- فأبصرت

ريحا عاصفة تهبّ من الشمال، مصحوبة بسحابة هائلة، ونار متواصلة متوهّجة بهالة محيطة من الضياء، ومن وسطها يتألّق مثل النحاس اللامع البارق من وسط النار. ٥- ومن داخلها بدا شبه أربعة كائنات حيّة، تماثل في صورها شبه إنسان.

٦- وكان لكل واحد منها أربعة أوجه، وأربعة أجنحة. ٨- وتحت أجنحتها القائمة على جوانبها الأربعة أيدي بشر. ١٣- أما منظر الكائنات الحيّة هذه فكان كجمرات نار متقدة، أو مشاعل تجوز جيئة وذهابا بين الكائنات الحيّة، وكانت النار مضيئة يلمع منها وميض برق. ٢٦- وانتصب فوق رؤوسها شبه عرش، ويجلس على شبه العرش من فوق من هو كشبه إنسان. ٢٨- وكان منظر اللمعان المحيط به كمنظر قوس قزح، في يوم مطير، وهكذا كان منظر شبه مجد الربّ). هكذا نلاحظ أن العنصر الأكثر تكرارا، في وصف مناظر كل هذه الصور الإلهية، هو عنصر النار.

هاكم جزء ضئيل من رؤيا النبي دانيال، في السفر المسمّى باسمه في التوراة، الاصحاح السابع في العددين ٩ و١٠ (٩- وفيما كنت أنظر نُصِبت عروش، واعتلى الأزلي كرسيه، وكانت ثيابه بيضاء كالثلج، وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيبا متوهّجا، وعجلاته نارا متقدة. ١٠- ومن أمامه يتدفّق ويجري نهر من نار، وتخدمه ألوف ألوف الملائكة، ويمْثُل في حضرته عشرات الألوف. فانعقد مجلس القضاء وفتحت الأسفار). صورة قريبة الشبه من يوم الحشر، أو يوم الحساب الأخير.

٤- يشوع يوقف الشمس

يبدو بوضوح خلال جميع أسفار التوراة، بدءا من سفر يشوع، ومرورا بأسفار القضاة وصموئيل والملوك، وهي الأسفار التي تمثّل مصادرنا الرئيسية، فيما يتعلّق بتاريخ شعب إسرائيل، منذ حوالي ١٢٢٥ ق م، إلى انهيار مملكة يهوذا سنة ٥٨٦ ق م، أنه يلزمنا الفحص المدقّق لكلمات النصوص، حتى نستطيع التمييز بين ما هو تاريخ حقيقي، وبين ما هو تاريخ أعيدت صياغته، لخدمة أغراض أنبياء وملوك وكهنة شعب إسرائيل، أي لخدمة طقوسهم الدينية الدرامية العنيفة، ولخدمة أساطيرهم الشعبية، ولتجميل رواياتهم

السردية، وأشعارهم القومية، وتحويل كل هذا إلى تراث عبادة الإله ربّ الشعب اليهودي.

إن النموذج المثالي الذي يمكننا أن نشير اليه هنا، هو النصّ الوارد في سفر يشوع النبي والملك، عن الغزو الذي قاده ضد أعدائه من العموريّين، وهو في الحقيقة كان من قبل أن يكتب في سفر التوراة، يمثّل أسطورة شعبية تناقلتها الشفاه، عن انتصارات قبلية تقليدية، وفق الأسلوب المتبّع في رواية أساطير قبائل الشعوب البدائية، وعند وصف المعارك التي تقود القبيلة إلى الانتصار على أعدائها. وردت مثل هذه الروايات الأسطورية، بنفس هذا الأسلوب البدائي، في أسفار القضاة والملوك عن إيليّا وإليشع.

هذا هو التقرير الذي كتبه يشوع، عن احتلال شعب إسرائيل لأرض (كنعان) فلسطين، في الأعداد الأولى من الاصحاح الأول، من السفر الذي يحمل اسمه الذي يقول (١- بعد موت موسى عبد الربّ، قال الربّ ليشوع بن نون، خادم موسى: ٢- والآن وقد مات موسى عبدي، قم واعبر نهر الأردن هذا، أنت وهذا الشعب كله، إلى الأرض التي أنا واهبها لبني إسرائيل. ٣- كل موضع تطؤه بطون أقدامكم أهبه لكم، كما وعدت موسى. ٤- فتمتدّ حدودكم من صحراء النقب في الجنوب، إلى جبال لبنان في الشمال، ومن البحر المتوسّط في الغرب، إلى نهر الفرات في الشرق. ٥- ولن يقدر أحد أن يقاومك كل أيام حياتك، لأني سأكون معك كما كنت مع موسى. ٦- تقوَّ وتشجّع، لأنك أنت الذي ستوزّع على هذا الشعب، الأرض التي حلفت لآبائهم أن أهبها لهم).

وهذا النصّ تكرّر مرّات عديدة في مواضع مختلفة من التوراة، انظروا مثلا إلى سفر التكوين الاصحاح ١٥ العدد ١٨ (عقد الله ميثاقا مع ابراهيم قائلًا: سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير، نهر الفرات). ثم في سفر التكوين أيضا، الاصحاح ١٧ من العدد ٤ إلى العدد ٨ (٤- هأنا أقطع لك عهدي فتكون أبا لأمم كثيرة. ٥- أجعلك أبا لجمهور من الأمم. ٧- وأقيم عهدي الأبدي بيني وبينك. ٨- وأهبك أنت وذرّيتك من بعدك جميع أرض كنعان).

هذه هي الأسطورة المؤسِّسة للشعب اليهودي، ألا وهي الوعد الذي التزم به الربّ أمام

شعبه، بأن تكون له هذه الأرض، التي أسموها (أرض الميعاد)، أو (الأرض الموعودة). هذا هو الموضوع الذي تحتفي به العشرات من الروايات السردية الدرامية العنيفة، والترانيم الدينية والأغاني الشعبية، في مديح وتقريظ ربّ إسرائيل، وهو ما كان يروى ويرنّم به، في هيكل (جِلجال)، بمدينة أريحا، حتى زمن القضاة. فموضوع أرض الميعاد هذا، هو الأسطورة التي كانت تنتشر شفهيا، بين أفراد قبائل الشعب اليهودي، قبل أن يكتب في أسفار التوراة، حتى أصبح هذا الموضوع، هو الأساس الذي تقوم عليه عبادة ربّ اليهود.

هذا هو الموضوع الذي يجب علينا أن نبحث فيه، لنميّز بين ما هو تاريخي، وما هو أسطوري، ثم نبحث عن البذرة التاريخية، التي أدّت إلى مولد الأسطورة. يمكننا هنا أن نحاول الاستدلال على الحقائق التاريخية، بدراسة كل الأساطير المرويّة حول نفس الموضوع، وهي الأساطير التي كان مقصودا بها، إرضاء الحجّاج القادمين في زيارة إلى الأراضي المقدّسة، أثناء تنقّلهم بين هذه الأماكن المقدّسة، وكان مقصودا بها كذلك إضفاء دلالات ومعاني، لشرح السبب في سلوك طرق معيّنة أثناء الحجّ، والتوقّف عند مواقع معيّنة، كأن تحمل أسماء المواقع دلالات تاريخية ودينية.

على سبيل المثال، فهناك ملامح في طبيعة الأرض، أي في طوبوغرافيتها، يمكن أن تعزى في هذه الحالات إلى قصّة توراتية، كأن يقال إن عامود الملح المنعزل، الموجود إلى الجنوب الغربي من البحر الميت، هو ما تبقى من زوجة لوط، التي لم تطع أمر الربّ بعدم النظر إلى الوراء، فحوّلها على اتلفور إلى عامود ملح، كأنها خطيئة لا تغتفر تستحق كل هذا العقاب. أنظروا في سفر التكوين الاصحاح ١٩ العدد من ٢٤ إلى ٢٦ (فأمطر الربّ على سدوم وعمورة، كبريتا ونارا من عنده من السماء. ٢٥- وقَلَبَ تلك المدن والساكنين فيها، والسهل المحيط بها وكل مزروعات الأرض. ٢٦- وتلفّتت زوجة لوط السائرة خلفه وراءها، فتحوّلت إلى عامود من الملح.

ثم لدينا أمثلة أخرى، إذ قد تكون العلامات الجغرافية أبسط من ذلك بكثير، ويكفي

أحيانا مجرد كوم من الأحجار وشجرة. كان الحجّاج الذاهبون إلى هيكل (جِلجال)، بالقرب من مدينة (أريحا)، يمرّون في طريقهم إلى أطلال مدينة (عاي)، بشجرة ضخمة وبكومة من الأحجار، فيقال لهم إن الشجرة هي التي تمّ شنق ملك (عاي) المهزوم عليها، وإن كومة الأحجار هي المكان الذي دفنت فيه جثّته. انظروا إلى سفر يشوع، الاصحاح ٨ العدد ٢٩ الذي يقول (٢٩- وشنق ملك عاي على شجرة إلى وقت المساء، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثّته عن الشجرة، وطرحوها عند مدخل بوابة المدينة، وهالوا عليها كومة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم).

أمّا الموضوع الأكثر جذبا لانتباهنا، فهي المعجزة الحقيقية التي منحها الربّ ليشوع، وهي من نوع المعجزات الخارقة للطبيعة، كما في حالة شقّ البحر عند الخروج من مصر، وهي معجزة إطالة اليوم، عندما كان يشوع يقاتل العموريين، ويحتاج إلى المزيد من الوقت للقضاء عليهم تماما، فأوقف له الإله الربّ قرص الشمس، وهكذا تجمّد الزمن أربعةً وعشرين ساعة.

فلنقرأ معا في سفر يشوع الاصحاح ١٠ الأعداد من ١٢ إلى ١٤ (١٢- في ذلك اليوم الذي هزم فيه الربّ العموريين أمام بني إسرائيل، ابتهل يشوع إلى الربّ على مسمع من الشعب: يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي أيلون. ١٣- فثبتت الشمس وتوقّف القمر، حتى انتقم الجيش من أعدائه. أليس هذا مدوّنا في الكتب؟ فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تسرع للغروب نحو يوم كامل. ١٤- ولم يحدث نظير ذلك اليوم لا من قبل ولا من بعد، فيه استجاب الربّ دعاء إنسان، لأن الربّ حارب حقا عن إسرائيل).

٥- سرد وقائع الماضي

عندما نقرأ في سفر القضاة تاريخ شعب إسرائيل، والطريق الصعب الطويل الذي سلكه هذا الشعب، ليصل تدريجيا إلى الاستقرار في أماكنه التاريخية، والى التضامن التام بين أسباط (بطون أو قبائل) يهوذا الاثني عشر، لمدة تصل إلى أكثر من أربعة قرون، أي حتى السبي البابلي، سنة ٥٨٦ ق م، فإن مؤلّف سفر القضاة، يقوم باستعادة أحداث

الماضي وتأمّلها، بنوع من الحنين إلى الماضي الذي يريد تجميله، فيقوم بتجاهل ما قام من صراعات عدائية بين بعض هذه البطون .

في مثل هذه الحالات، فإن القول بأن التضامن بين البطون كان تامًّا، وكان قائمًا بالفعل منذ زمن الحملة العسكرية الخاطفة، التي قام بها يشوع بن نون على العموريين، وهو الذي خلف موسى مباشرة في قيادة الشعب اليهودي، لهو عنصر من عناصر خلق الأسطورة، لأن الاستقرار والتضامن احتاجا إلى المزيد من الوقت، حتى يتضّحا فعلا على أرض الواقع. لذلك فإن القراءة النقدية لنصوص توراتية سردية مشابهة، ليست كافية وحدها للتمييز بين العناصر التاريخية والعناصر الأسطورية.

اختلطت إذن الحقائق التاريخية بعناصر من الأساطير المحلّية، في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، مما جعل كتبة التوراة اللاحقين في بقية أسفارها يسلكون نفس الطريق. ولنأخذ بعض الأمثلة من الأسفار الأولى. فمثلا هناك قصّة الصراع، الذي نشأ بين الأخوين التوأمين يعقوب وعيسو، في رحم أمّهما رِفقة، على من منهما يغادر الرحم قبل الآخر، وبالتالي يصبح الابن البكري، مما تسبب في مشكلة لاحقا، إذ إن عيسو غلب يعقوب في النزول أولا من رحم أمّهما، الا أن الصراع استمر بينهما.

تمكّن يعقوب لاحقا من أن يغلب عيسو، عندما خدع يعقوب والده إسحق، الذي كان قد فقد بصره مع تقدّمه في العمر، فارتدى ملابس عيسو، ووضع شعرا طويلا مستعارًا على رأسه مثلما يفعل عيسو، وتكلّم بنفس نبرة صوت عيسو، وادّعى أمام أبيه أنه عيسو، وهكذا حصل بالخديعة على البركة من أبيه، وهي البركة التي يستحقّها فقط البكري من بين الأخوين، حسب التقاليد اليهودية المتعارف عليها في ذلك الزمن. وبالتالي قد ينشأ الصراع بين الأخوين، رغم ما بينهما من علاقة رحِم. لذلك فإن الاعتقاد بأن الفرد يميل فقط إلى الأفراد الذين ينتمي اليهم عرقيا، ويعادي فقط الأفراد الذين بينه وبينهم عداوات سياسية، لهو اعتقاد خاطئ.

ثم إن هناك بعض الأساطير التي استخدمت لتفسير بعض وقائع التوراة، يقول سفر

التوراة في اصحاحه رقم ٢٥ في العددين ٢٢ و٢٣ (٢٢- وإذ تصارع الطفلان في بطنها، قالت: إن كان الأمر هكذا فما لي والحَبَل؟ ومضت لتستفهم من الربّ. ٢٣- فقال لها الربّ: في أحشائك أمّتان، يتفرّع منهما شعبان، شعب يستقوي على شعب، وكبير يُسْتَعبد لصغير). اتّخذت هذه القصّة دليلا على إمكانية وقوع عداوة، بين بطنين من بطون يهوذا، مثلما حدث للتوأمين في رحم أمهما. وبالتالي أمكن تفسير العداوة التي قامت بيم إسرائيل وجارتها إيدوم.

أمّا مثلا التفسير الذي تمّ تقديمه، لسبب كراهية إسرائيل لجيرانها العدائيّين، من شعبي موآب وعمون، فقد قيل إن الأصول العرقية لهذين الشعبين تدعو إلى الخزي والعار، وكأن المقصود من رواية هذه الحادثة في التوراة، التي لا يمكن الاستدلال على حقيقتها التاريخية، هو فقط التشهير بهذين الشعبين. كأن العداوة التي قامت في زمن لاحق، أدّت إلى اختلاق هذه القصّة، كما لو أنها كانت قد حدثت في زمن سابق.

هي قصّة سفاح قربى بين لوط وابنتيه. إذ تروي التوراة أنه بعد موت زوجة لوط، قامت ابنتاه بالنوم معه في فراش واحد، كل منهما في دورها، بحجّة أنهما لم يتزوّجا، وأنهما يريدان امتداد ذرّية والدهما، فأسقيتاه خمرا حتى فقد الادراك، وحبلتا منه. سمّي الابنان اللذان أنجبتهما الفتاتان، الأول (موآب)، وهي كلمة عبرية معناها (من أبي)، وسمّي الثاني (عامون)، ومعناها بالعبرية (ابن عمّي). النصّ موجود في سفر التكوين الاصحاح ١٩ العدد من ٣٠ إلى ٣٨. هكذا هو دائما الحال مع كل أسماء التوراة، سواءً بالنسبة إلى الأشخاص أو بالنسبة إلى الأماكن، إذ يمكن تفسيرها على أساس معناها في اللغة العبرية.

ثم هناك كذلك تلك القصّة الغريبة، عن صراع يعقوب مع الربّ أو مع ملاك الربّ. هذا هو ما تقوله التوراة في سفر التكوين الاصحاح ٣٢ العدد من ٢٢ إلى ٣٠ (٢٢- ثم قام يعقوب في تلك الليلة، وصحب معه زوجتيه وجاريتيه، وأولاده الأحد عشر، وعبر بهم مخاضة. ٢٣- ولمّا أجازهم مع كل ما له عبر الوادي. ٢٤- بقي وحده، فصارعه إنسان حتى مطلع الفجر.

٢٥- وعندما رأى أنه لم يتغلّب على يعقوب، ضربه على حقّ فخذه، فانخلع مفصل فخذ يعقوب في مصارعته معه. ٢٦- وقال له: أطلقني فقد طلع الفجر. فأجابه يعقوب: لا أطلقك حتى تباركني. ٢٧- فسأله: ما اسمك؟ فأجاب: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب، بل إسرائيل (ومعناه من صارع الرب أو جاهد مع الربّ) لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. ٣٠- ودعا يعقوب اسم المكان فنيئيل (ومعناه وجه الله)، إذ قال: لأني شاهدت الله وجها لوجه وبقيت حيّا).

ثم نأتي إلى قصّة العملاق الجبّار شمشون، وهي القصّة المرتبطة ببوابة الطريق المؤدّي إلى مدينة غزّة، البوّابة التي كانت تقع على رأس الوادي الممتد من شمال غرب مدينة الخليل (حبرون)، إلى شواطئ البحر المتوسّط، مرورا بعسقلون ووصولاً إلى غزّة، إذ قيل في سفر القضاة إن شمشون حمل بوّابة مدينة غزّة على كتفيه من غزّة، إلى حيث تركها بالقرب من مدينة الخليل، وهو طريق طوله ٦٠ كيلومترًا.

أنظروا إلى سفر القضاة الاصحاح ١٦ العدد من ١ إلى ٣ (١- وذات يوم ذهب شمشون إلى غزّة، حيث التقى بامرأة عاهرة، فدخل اليها. ٢- فقيل لأهل غزّة: قد جاء شمشون إلى هنا. فحاصروا المنزل وكمنوا له الليل كلّه عند بوّابة المدينة، واعتصموا بالهدوء في أثناء الليل قائلين: عند بزوغ الفجر نقتله. وظلّ شمشون راقدا حتى منتصف الليل، ثم هبّ وخلع مصراعي بوّابة المدينة بقائمتيها، ووضعها على كتفيه وصعد بها إلى قمّة الجبل مقابل حبرون/ الخليل).

٦- حكايات شمشون

إن سلسلة القصص المتعلّقة بشخصية شمشون في سفر القضاة، لها درجة كبير من الأهمية في سياق موضوعنا. هذه القصص التي كانت في الأصل تخصّ بطلا شعبيا في أرض كنعان، جذبت اليها الرواة الشعبيين المحليّين، في مناسبات عديدة، ليأخذوا منها وليضيفوا اليها، عند القائهم لرواياتهم المختلفة، إذ كانت هناك إشارات عديدة لشمشون، في الأساطير المحلّية المختلفة، حتى أصبحت له هو وحده أسطورته الخاصة به، التي

أضيفت لاحقًا إلى سفر القضاة.

إن وصف قصّة البشارة بمولد شمشون، تشبه كل ما عداها من قصص البشارات الإلهية بولادات مقدّسة، التي جاءت على ألسنة ملائكة الربّ، لسيّدات أو فتيات مباركات، حبلن حبلا مقدّسا، ثم ولدن أطفالا مقدّسين، أصبحوا عند وصولهم إلى مرحلة الرجولة، من بين أصحاب المعجزات من أنبياء الربّ. نلاحظ كذلك أن كل البشر، حتى البسطاء منهم من مزارعي الحقول، كانوا قادرين على التواصل مع الربّ، أي أن يكلّموه فيردّ عليهم. انظروا إلى هذه الآيات التوراتية من سفر القضاة، في الاصحاح الثالث عشر.

(١- عاد بنو إسرائيل يرتكبون الإثم في عيني الربّ، فأسلمهم لقبضة الفلسطينيين أربعين سنة. ٢- وكان هناك رجل من بلدة صُرْعة من عشيرة الدانيّين يدعى مَنوح، وامرأته عاقر لم تنجب. ٣- فتجلّى ملاك الربّ للمرأة وقال لها: إنك عاقر لم تنجبي، ولكنك ستحبلين وتلدين ابنا. ٥- فلا تحلقي شعر رأسه لأن الصبيّ يكون نذيرا لله من مولده، وهو يشرع في إنقاذ إسرائيل من تسلّط الفلسطينيين.

٨- فتضرّع منوح إلى الربّ قائلًا: أتوسّل اليك يا سيّدي، أن ترسل الينا رجل الله الذي بعثته، ليعلّمنا كيف نربّي الصبي. ٩- فاستجاب الله صلاة منوح. ١٠- ثم ظهر الرجل للمرأة في الحقل فذهبت لتخبر زوجها. ١١ - فجاء منوح وسأله: أأنت الرجل الذي خاطب زوجتي من قبل؟ فأجابه: أنا هو. ١٩- ثم أخذ منوح جديا وتقدمة حبوب وقرّبهما على صخرة المذبح قربانا للربّ. فقام الملاك بعمل عجيب على مشهد من منوح وزوجته. ٢٠- فقد صعد في ألسنة اللهيب المرتفعة من المذبح نحو السماء، فخرّا على الأرض ساجدَيْنِ).

ثم في الاصحاح ١٤ من سفر القضاة، يأتي ذكر أول معجزة قام بها شمشون، وهو في بداية شبابه، في الأعداد من ٥ إلى ٩ (٥- فانحدر شمشون ووالداه إلى تِمْنة حتى بلغوا كرومها، وإذا بشبل أسد يتحفّز مزمجرًا للانقضاض عليه. ٦- فحلّ عليه روح الربّ، فقبض على الأسد وشقّه إلى نصفين، بيديه العاريتين ومن غير أن يكون معه سلاح، كأنه

جدي صغير، ولم ينبئ والديه بما فعل. ٨- وعندما عاد شمشون بعد بضعة أيام ليلقي نظرة على جثّة الأسد، وجد في جوفها سربًا من النحل وبعض العسل. ٩- فتناول منه قدرا على كفّه ومضى وهو يأكل).

شمشون في هذه القصّة يشبه هرقل بطل الأساطير اليونانية، فيما يتعلّق بمسألة قتل الأسد بيديه العاريتين، بالإضافة إلى أنه يوجد كذلك وجهان آخران للشبه بينهما، أولهما في النهاية التي ينتهي اليها كل منهما في نهاية حياته، إذ كان قرار هرقل أن ينزل إلى أعماق الظلمات في العالم تحت الأرضي، قريب الشبه من سجن شمشون المظلم وعمله عبدا حقيرا لدى الفلسطينيين، وثانيهما بين أسطورة نقل شمشون لمصراعي بوّابة مدينة غزّة على كتفيه، وبين أسطورة نقل هرقل أعمدة مدينة هيراكليس هي الأخرى على كتفيه.

ثمّ في الاصحاح ١٥ تأتي المعجزة الثانية، إذ يروي لنا الاصحاح قصّة زواج شمشون من فتاة فلسطينية، الا أن أباها أثناء غياب شمشون يزوّجها لشخص آخر، فإذا بشمشون عند عودته واكتشافه ما فعله حموه، يقرّر الانتقام من كل الفلسطينيين. انظروا إلى الكيفية التي تمّ له بها الانتقام منهم (٤- اصطاد شمشون ثلاثمائة - ٣٠٠ - ثعلب، وربط ذيليْ كل ثعلبين معا (؟؟؟) ووضع بينهما مشعلا (؟؟؟) ٥- ثم أضرم المشاعل بالنار، وأطلق الثعالب بين زروع الفلسطينيين، فأحرقت حقول القمح وأكداس الحبوب وأشجار الزيتون).

فيما يتعلّق بهذه القصّة، ذكر الشاعر اللاتيني أوفيد **Ovide** في كتاباته، أنه في روما القديمة، كان الناس خلال شهر أبريل من كل عام، يمارسون طقسا بدائيا شبيها بذلك، يُعتقد أنه كان للاحتفال بمقدم الربيع، عندما كانوا يطلقون الثعالب في ميادين روما، بغرض ممارسة الصيد، وكانوا يعلّقون على ذيول الثعالب مشاعل، حتى يمكن رؤيتها في ظلام الليل.

ثم في فقرة تالية من نفس الاصحاح، يروي لنا مؤلّف سفر القضاة، كيف أن الفلسطينيين أرادوا الانتقام من اليهود، بعد أن كان شمشون قد أحرق لهم حقولهم، ولخوف اليهود

من الفلسطينيين، قرّروا تسليم شمشون اليهم مقيّدا بحبال. فإذا كان الشعب اليهودي في القرن الواحد والعشرين، لا يزال يؤمن بهذه الخرافات، فالسبب في كراهيته للشعب الفلسطيني يبدو هنا واضحا جليّا. لعلّ اليهود الآن يتحسّرون على الأيام، التي كان يمكن فيها لشخص واحد منهم، له خواص السوبرمان في حكايات ساذجة للأطفال، أن يقتل ألف رجل فلسطيني بفكّ حمار.

(١٤- عند وصولهم إلى الفلسطينيين حلّ روح الربّ على شمشون، وقطع الحبلين اللذين على ذراعه. ١٥- وعثر على فكّ حمار طري، تناوله من على الأرض، وضرب به الفلسطينيين حتى قتل ألف رجل منهم (؟؟؟) ١٦- ثم قال شمشون: بفكّ حمار كوّمت أكداسا فوق أكداس، بفكّ حمار قضيت على ألف رجل. ١٧- وعندما كفّ عن الكلام، ألقى فكّ الحمار من يده، ودعا ذلك الموضع رَمَتَ لَحْي، ومعناه تلّ عظمة الفكّ).

إن احتمال وجود تأثير اغريقي، على التراث الديني للشعب اليهودي، خلال فترة عصر القضاة، أي بين ١٢٢٥ ق م و١٠٥٠ ق م، كان من المعتاد النظر اليه بعين الشكّ، إلى أن أثبتت علوم الآثار الحديثة، أن هناك أماكن استقرّت فيها أقليّات يونانية، على ساحل البحر المتوسّط في حوضه الشرقي، في مواقع مختلفة، منها مثلا ما كان واقعا بالقرب من الميناء الأبيض، التابع لموقع مدينة رأس شمرة السورية العتيقة، ومنها ما كان واقعا على الساحل الفلسطيني، بين مدينتي حيفا وعكّا الفلسطينيّتين.

٧- معجزات إيليّا وإليشع وإشعياء

يوجد في التفسير اللاهوتي للتاريخ، في أسفار يشوع والقضاة وصموئيل والملوك، الكثير مما قيل عن أعمال إيليا وإليشع في زمانهما، حتى أنه لم يعد يوجد لدى الباحثين المعاصرين أيّ شك، في أن هاتين الشخصيتين، كانتا شخصيّتين تاريخيّتين حقيقيّتين، خاصة بالنظر إلى اعتراضهما على استبداد الملوك، الهازئين بالمبادئ الاجتماعية، واعتراضهما على السيطرة التي مارسها الملوك، على الممارسات الدينية، كل هذه المواقف تسمح لنا باعتبارهما، من بين الشخصيّات المعروفة من أنبياء الشعب اليهودي.

رغم ذلك فإن بعض ما قيل عنهما، لا ينتمي إلى عالم الأحداث التاريخية، بل بالأحرى إلى عالم الأساطير.

أولا: النار من السماء

ففي سفر الملوك الثاني، الاصحاح الأول الأعداد من ٩ إلى ١٢ نجد ما يلي (٩- أرسل الملك أخزيا أحد قوّاده على رأس خمسين جنديّا إلى إيليا، الذي كان جالسا آنئذ على قمّة جبل، فقال له: يا رجل الله، إن الملك يأمرك بمرافقتنا. ١٠- فأجاب إيليا: إن كنت أنا رجل الله، فلتنزل نار من السماء وتلتهمك أنت ورجالك الخمسين. فنزلت نار من السماء والتهمته مع رجاله الخمسين. ١١- فعاد أخزيا وأرسل اليه قائدا آخر، على رأس خمسين جنديّا، فقال لإيليا: يا رجل الله، الملك يأمرك أن تسرع وتنزل. ١٢- فأجابه إيليا: إن كنت أنا رجل الله، فلتنزل نار من السماء، وتلتهمك أنت ورجالك الخمسين. فنزلت نار من السماء والتهمته مع رجاله الخمسين).

ثم في الاصحاح الثاني من نفس السفر، نجد الأعداد التالية (٧- كان إيليا وإليشع يقفان إلى جوار نهر الأردن، وأرادا عبوره. ٨- فتناول إيليا رداءه وطواه، ثم ضرب به الماء، فانفلق النهر إلى شطرين، فاجتازا كلاهما فوق اليابسة. ١١- وفيما هما يسيران ويتجاذبان أطراف الحديث، فصلت بينهما مركبة من نار، تجرّها خيول من نار، نقلت إيليا في العاصفة إلى السماء السابعة. ١٢- ورأى إليشع ما جرى فأخذ يهتف: يا مركبات إسرائيل وفرسانها. وغاب إيليا عن عينيه، فأمسك ثيابه ومزّقها قطعتين. ١٣- ثم رفع رداء إيليا وتوجّه نحو ضفّة نهر الأردن. ١٤- وضرب به الماء، فانفلق النهر إلى شطرين متقابلين، فاجتاز إليشع نحو الضفّة الأخرى).

نلاحظ في التوراة، ارتباط ظهور النار بالظهورات الإلهية، أو باتصال النبي بالسماء، مثلما حدث في مناسبات عديدة لأنبياء مختلفين، ومثلما حدث مع إيليا وصعوده إلى السماء في عربة بعجلات من نار، وبجياد من نار، إذ سادت في هذه المنطقة من العالم عبادة النار كقوّة مدمّرة، واستقرّت لبعض الزمن في بلاد فارس.

ثانيا: إشباع الجموع

ثم من جديد في سفر الملوك الثاني، الاصحاح الرابع، الأعداد من ٤٢ إلى ٤٤ (٤٢- حضر الخادم إلى إليشع حاملا معه عشرين رغيفا. فقال إليشع: اعطِ الرجال ليأكلوا. فقال الخادم: هل أضع عشرين رغيفا أمام مئة رجل؟ فقال إليشع: هكذا يقول الربّ، إنهم يأكلون منها ويتبقى عنهم. فوضعها الخادم أمامهم فأكلوا وفضل عنهم حسب قول الربّ). هذه المعجزة تذكّرنا بما سيفعله المسيح لاحقا من إطعام الجموع بعدد قليل من الخبزات.

إن الفترة الزمنية التي نحن هنا بصددها، تدور أحداثها خلال القرن الثامن ق م، ومن الضروري معرفة بعض حقائق تاريخ تلك الفترة. كان إيليا أحد الأنبياء العظام في تاريخ إسرائيل، أما إليشع فكان تلميذه وتابعه، ثم أصبح خليفته بعد رحيل إيليا إلى السماء. أحد المفاتيح المهمّة لفهم طبيعة تلك الفترة، معرفة حقيقة ظهور مجموعات من الشباب المتديّن المتحمّس، الذين كانوا ينظّمون أنفسهم ليكونوا في استقبال النبي، عند وصوله إلى هيكل مدينتهم، واعداد شعب الهيكل لاستقباله.

بل إن بعضهم كان يتابع النبيّ في كل تنقلاته، وهم الذين يشير اليهم النبي إليشع في النص السابق بكلمة (الرجال)، في جملة (اعطِ الرجال ليأكلوا)، ونفهم من النصّ أنهم كانوا قد بلغ عددهم حوالي مئة رجل، يتبعون إليشع أينما ذهب. كانوا يسمّون أنفسهم (أبناء الأنبياء)، وفي البداية كانوا يمارسون أعمالا أخرى كفلاحة الأرض والرعي، إلى أن وصلت بهم الأحوال لاحقا، إلى أن يكونوا مكرّسين تماما إما لخدمة الهياكل المقدّسة، بشكل قريب الشبه من نظام الرهبنة المسيحية لاحقًا، أو لمتابعة النبي أينما ذهب، يأكلون مما يقدّمه لهم الناس.

هذا هو كذلك ما يفسّر السبب، الذي من أجله لم تكن هناك أسفار خاصة في التوراة لا بايليا ولا باليشع، فقد قام هؤلاء التلاميذ من أبناء الأنبياء، بتسجيل أقوال الأنبياء وأفعالهم، ووضعها ضمن السياق التاريخي في التوراة، في الأسفار التي تسمّيها التوراة،

أسفار القضاة والملوك.

وقد أولى هؤلاء التلاميذ اهتماما خاصا، بمعجزات هذين النبيين على وجه التحديد، بسبب أن تلك الفترة شهدت صحوة فلسطينية، ضد شعب إسرائيل، وبالتالي كان هناك تنافس بين (بعل) اله الكنعانيين (الفلسطينيين)، وبين ربّ إسرائيل، فحاولت نصوص التوراة المعاصرة لهذا الصراع، اظهار تفوّق ربّ إسرائيل. هذا هو السبب في كثرة معجزات هذين النبيين، خاصة تلك المتعلّقة بالقدرة على التحكّم في الطبيعة، مثل انزال نار من السماء تأكل الأعداء، أو شقّ مياه النهر لعبوره.

ثالثا: إحياء الموتى

ثم في نفس سفر الملوك الثاني، الاصحاح الرابع، الأعداد التالية (٣٢- ودخل إليشع البيت فإذا بالصبي ميّت في سريره. ٣٣- فدخل وأغلق الباب وتضرّع إلى الربّ. ٣٤- ثم اضطجع فوق جثّة الصبي، ووضع فمه على فم الصبي، ويديه على يدي الصبي، وتمدّد على الصبي، فبدأ الدفء يسري في جسد الصبي. ٣٦- وعندما مثلت الأم أمامه قال: احملي ابنك. فسجدت على وجهها إلى الأرض عند قدميه ثم حملت ابنها وانصرفت).

ان معجزة إعادة صبيّ ميّت إلى الحياة، سبق لايليا القيام بها. انظروا في سفر الملوك الأول، الاصحاح ١٧ الأعداد من ١٧ إلى ٢٤ (١٧- وحدث أن مات ابن الأرملة صاحبة البيت. ١٨- فقالت لايليا: أي ذنب جنيته يا رجل الله؟ ١٩- فقال لها: اعطني ابنك. وأخذه منها وصعد به إلى الحجرة التي كان مقيما فيها أعلى المنزل، وأضجعه على سريره، واستغاث بالربّ. ٢١- ثم تمدّد إيليا على جثّة الولد ثلاث مرّات، وابتهل إلى الربّ. فاستجاب الربّ دعاء إيليا، ورجعت نفس الولد اليه فعاش. ٢٤- فقالت المرأة لايليا: الآن علمت أنك رجل الله، وأن الله ينطق على لسانك بالحقّ).

هذا الموضوع يلفت انتباهنا، إلى حقيقة إيمان الشعب، بقدرة النبي على الاتيان بالمعجزات، بمجرّد فقط تلامسه الجسدي مع المريض، أو حتى مع جثّة الشخص المتوفّى، إذ كان الاعتقاد سائدا، أنه بهذه الطريقة يمكن للطاقة الإلهية، أن تنتقل من جسد

النبي إلى جسد الشخص المطلوب أن يشفى، أو أن يعود إلى الحياة. وقد ظهرت هذه الممارسات مبكّرا جدا، في حضارات مصر القديمة وبلاد الرافدين، واعتبرت أنها احدى وسائل التطبيب القديم.

كما أن هذا الاعتقاد كانت له بدايات أقدم، لدى الشعوب البدائية، التي كانت تمارس طقوسا الهدف منها التطبيب، كانوا يعتقدون أنه يتمّ خلالها، انتقال المرض من جسد الشخص المريض، إلى جسد حيوان يتلامس معه، أو حتى أحيانا إلى جسد إنسان ميّت أو حيوان ميّت يتلامس معه، مع ضرورة أن يصاحب هذا الطقس، بعض الترانيم الدينية، التي تتلى فيها بعض الكلمات السحرية. في ذلك العالم القديم كان الطبّ يختلط بالسحر وبالدين. تذكر بعض نصوص حضارة مدينة رأس شمرة السورية، واقعة انتقال مرض الملك، من جسده إلى جسم تمثال من الطين.

هذا هو قريب الشبه مما حدث ذات مرة مع يسوع المسيح، عندما كانت تحيط به الجموع تريد لمسه، ثم اقتربت منه امرأة عجوز مريضة منذ فترة بحالة نزيف مستمر، توقّف نزيفها المزمن على الفور بمجرّد لمسها لرداء المسيح، فالتفت اليها لأن شعر أن قوّة قد غادرته، وذهبت اليها. الا أن ما يرويه سفر الملوك الثاني، الاصحاح ١٣ العدد ٢١، يعتبر على قدر كبير من المبالغة، وهي واقعة المرأة الموآبية التي ماتت، فقذف بجثّتها على الفور، إلى داخل القبر المدفون فيه النبي إليشع، فعادت اليها الحياة، بمجرّد أن لامس جسدها الميّت، عظام نبيّ الله.

رابعا : الدقيق والزيت لا ينفدان

ثم هناك كذلك موضوع الأيتام والأرامل الذين لا ينساهم الربّ، فيرسل اليهم تموينهم اليوم من الدقيق والزيت، اللازمين للبقاء على قيد الحياة، في مجتمع فقير تعرّض عدد كبير من أفراده إلى الموت جوعا. هو موضوع قديم في التراث الشعبي الفولكلوري، في مناطق مختلفة من العالم، يعاود الظهور في الديانات المختلفة، التي ظهرت في مراحل لاحقة من التاريخ الإنساني، رغم أن الديانات عادة ما يكون اهتمامها منصبّا، على

النصيب الروحي من البركات الإلهية، لا على الأنصبة العينية المادية، التي اهتمت بها الأساطير وفولكلور الشعوب. يعاود هذا الموضوع الظهور في علاقة المسيح بالأيتام والأرامل كما ذكرتها الأناجيل.

هذا الموضوع يلفت انتباهنا إلى حقيقة أخرى، هي أن هذا كان يحدث غالبا، مع أرملة فقيرة، في حالة استضافتها لأحد الأنبياء، ومحاولتها رغم فقرها أن تجود عليه بكل ما تملك، مهما كان هذا الذي تملكه قليلا. هنا فقط تتدخّل العناية الإلهية لتوفّر الوجبات اليومية، إلى نهاية الحياة، ولا يسأل أحد قطّ، عن الكيفية التي تمتلئ بها الجرار بالدقيق، والقوارير بالزيت. هي فقط معجزة إلهية يومية.

انظروا في سفر الملوك الأول، الاصحاح ١٧ الأعداد من ٨ إلى ١٤ (٨- فخاطب الربّ إيليا قائلا له: قم وتوجّه إلى صِرْفة التابعة لصيّدا، وامكث هناك، فقد أمرت هناك أرملة تتكفّل بإعالتك. ١٠- عندما وصل إلى بوّابة المدينة، شاهد امرأة تجمع حطبا. ١١- فقال لها: هاتي لي كسرة خبز. ١٢- فقالت: ليس لديّ الا حفنة دقيق في الجرّة، وقليل من الزيت في قارورة. وها أنا أجمع بعض عيدان الحطب لأشعل نارا، وأعدّ لي ولابني طعاما نأكله ثم نموت. ١٤- هذا ما يقوله ربّ إسرائيل: إن جرّة الدقيق لن تفرغ، وقارورة الزيت لن تنفذ).

ثم إذا بإليشع هو الآخر، تحدث على يديه واقعة قريبة الشبه. انظروا في سفر الملوك الثاني، الاصحاح ٤ العدد من ١- إلى ٧ (١- استغاثت احدى نساء بني الأنبياء بإليشع قائلة: زوجي توفّى، وأنت تعلم أنه كان يتقّي الربّ، وقد أقبل مُدينه المرابي ليسترقّ ابني لقاء ديونه. ٢- فسألها إليشع: ماذا عندك في البيت؟ فقالت: لا أملك سوى قليل من الزيت. ٣- فقال: اذهبي واستعيري أواني فارغة من جيرانك. ٤- وصبّي قليلا من الزيت في جميع هذه الأواني. ٦- فامتلأت جميع الأواني. ٧- فقال لها إليشع: اذهبي وبيعي الزيت وأوفي دينك). هذه المعجزة تذكّرنا طبعا بعُرْس قانا الجليل، وهي المناسبة التي شهدت أول معجزات المسيح، عندما ملأ بالخمر جرارًا كانت فارغة.

خامسا : ملاك الربّ يقتل عشرات الآلاف

ثم نجد هنا نوعية أخرى من المعجزات الإلهية، التي تخصّ فقط شعب الله المختار، ضد كل من هم سواه من شعوب الأرض، فهو كما كان الحال مع كل آلهة القبائل البدائية المحليين، كان اله قبيلة اليهود المحلّي، اله خصوصي، خاصة إذا تعلّق الأمر بأي تهديد لمدينته المفضّلة، عن كل مدن الكرة الأرضية، مدينة أورشليم، الذي أرسل الربّ ملاكه الذي لا يذكر النص التوراتي اسمه، ليدافع عنها، ذلك فقط عندما لجأ اليه نبيّه إشعياء طالبا منه ذلك.

نجد في سفر الملوك الثاني الاصحاح التاسع عشر، أن مدينة أورشليم كانت محاصرة من الأعداء. نحن الآن في حوالي سنة ٧٢٠ ق م، على زمن النبي إشعياء، وقد زادت هجمات ملوك آشور، على كل ممالك المنطقة، حتى وصل الآشوريون إلى احتلال مصر، والى تأسيس ما سيعرف فيها لاحقا باسم الأسرة السابعة والعشرين. هذه المرة كان اسم ملك آشور هو سنحاريب، واسم ملك أورشليم هو حزقيا.

أنظروا إلى هذه الأعداد (٢٠- فبعث إشعياء إلى الملك حزقيا قائلًا: يقول ربّ إسرائيل الذي تضرّعت اليه لينقذك من سنحاريب ملك آشور. ٣٢- إنه لن يدخل هذه المدينة ولن يطلق عليها سهما، ٣٤- لأني أدافع عنها وأنقذها من أجل نفسي. ٣٥- وحدث في تلك الليلة أن ملاك الربّ نزل وحده من السماء، وقتل وحده مئة وخمسة وثمانين ألفا من جيش الآشوريين، فما إن طلع الصباح حتى كانت الجثث تملأ المكان. ٣٦- فانسحب سنحاريب ملك آشور وارتدّ إلى بلاده ومكث في نينوى).

الفصل الثالث

الأسطورة البابلية/ الكنعانية في التوراة

١- المياه الهادرة

طبعا إن المعنى وراء عبارة المياه الهادرة، هو حادث الطوفان في زمن النبيّ نوح، الذي أدّى إلى فناء البشرية، باستثناء عائلة نوح، ومن ركب معه الفلك من الكائنات الحيّة، لكن هناك بالاضافة إلى ذلك الكثير من التفاصيل الأخرى، إذ إن أقوى ما تركته الأساطير الكنعانية من أثر، يظهر بوضوح في أشعار سفر المزامير، التي كتب الجزء الأكبر منها النبي والملك داود، خاصة في الثراء غير المعتاد من الصور الخيالية الاستعارية، التي جاءت إلى ذهنية الشاعر، فاستعملها بحرّية كبيرة، تذكّرنا بما سبق وأن فعله الشاعر الإنجليزي (جون ميلتون)، بصور التراث الوثني، التي استعملها في قصيدته (غنائية في مولد المسيح Ode to Christ nativity).

كان داود شديد الحماس لاثبات، القدرات الفائقة لربّ إسرائيل، إذ كان هذا هو الهدف الأساسي من سفر المزامير. وكان على التراث الديني لشعب إسرائيل، أن يستعير الكثير من الصور الشعرية والمفردات اللغوية، من التراث الأسطوري لحضارة أرض كنعان، إذ إنه عند وصول شعب إسرائيل إلى أرض كنعان، وبداية استقرار هذا الشعب على هذه الأرض، كان تراث كنعان الحضاري أكثر تقدّما ورسوخا، وأقدم زمنيا بكثير

من التراث العبري.

هكذا انجرفت بسهولة أقدام شعراء إسرائيل، كلهم وليس داود وحده، إلى استعمال أساليب شعراء كنعان. كما أن التراث الشعري لحضارة رأس شمرة، على ساحل المتوسّط في غرب سوريا، يشير إلى امتلاك هذا التراث لتقليد راسخ متطوّر، في الأساليب والأشكال والصور، اتّخذه شعراء إسرائيل لأنفسهم، كمصدر لا ينضب للالهام والوحي.

أكثر من ذلك فإن دراسة مفردات وقواعد اللغة العبرية القديمة، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنها كانت إلى حدٍ بعيد، أحد أشكال العامية الكنعانية، وهو ما جعل إشعياء النبي يشير إلى العبرية على أنها لغة أهل كنعان. انظروا في سفر إشعياء الاصحاح ١٩ العدد ١٨، وفيه نبوّة عن احتلال إسرائيل لأرض مصر تقول (١٨- في ذلك اليوم يكون في ديار مصر خمس مدن تنطق بلغة كنعان، وتحلف بالولاء للربّ القدير، وتدعى احداها مدينة الشمس).

كانت الحقائق المركزية في الأساطير الكنعانية هي: ١- وجود اله واحد قادر على كل شيء، إلى جوار وجود آلهة آخرين أقل قدرة منه. ٢- عبادة هذا الإله هي الهدف الأساسي من الوجود البشري. ٣- فكرة حاكمية الربّ الإله الواحد القدير، بمعنى أنه هو الذي يحكم الأرض وليس الملك الأرضي، الذي لم يكن الا ممثلا عنه ومتكلمّا بلسانه. ٤- وأنه هو الذي ينطق بكل الحكمة والشرائع، اللازمة لتنظيم الحياة البشرية، على لسان كهنته الذين هم أنبياؤه. ٥- وأن الصراع مستمر بين الخير والشر، أي بين ربّ الخير الإله (بعل)، وربّ الشرّ الإله الضد، أو بين البحر (اليُم)، والتيّارات البحرية (النهر).

هذه الصورة الأخيرة تبدو بوضوح تام في أشعار المزامير، حيث يمكننا أن نقرأ مرارا وتكرارا هذه العبارة نفسها، وهي أن (تيّارات المياه القوية)، سواء أكانت في مياه الأنهار أو في مياه البحار، هي عنصر مضاد للإرادة الإلهية، مع ملاحظة أن نهر الفرات الواقع في حدود أطراف أرض كنعان، هو نهر هادر صاخب الأمواج، كما أن وقوع أرض كنعان على سواحل البحر المتوسّط، هو ما أدّى إلى ظاهرة الخوف من الموج الهادر.

لاحظوا كذلك صورة الله كإنسان بشري لديه حقوان، وهما جانبا منتصف الجسد، اللذان تربط حولهما الأحزمة، إذ إنه (يرتدي حول وسطه حزام القوّة)، وهو (جالس على عرشه). يمكننا كذلك إدراك فكرة حق الملوك الإلهي في الحكم، لأن الجالس على العرش فعلا، ليس هو الإنسان بل هو الله نفسه، لذلك هو قادر على تثبيت نظام حكمه، ضد كل قوى الطبيعة المضادة لارادته، مهما كانت قوةّ تلك العناصر الطبيعية.

أنظروا في المزمور رقم ٩٣ من سفر المزامير، وهو من أسفار التوراة، الذي يقول (١- الربّ قد مَلَكَ مرتديا الجلال. متمنطقا على حقويه بحزام القوّة، لذلك فالأرض ثابتة ثبوت الجبال الرواسي، ولن تتزعزع أبدا. ٢- عرشك يا الله ثابت منذ القدم، لأنك أنت الله منذ الأزل. ٣- يا ربّ قد رفعت الأنهار صوتها. ترفع الأنهار صوت موجها الهادر ضد ارادتك. ٤- الربّ الذي في العُلَى، العَلِيّ القدير، أعظم بكثير، من صوت المياه الغزيرة، ومن صوت أمواج البحر الهائلة ضد إرادته).

أما المزمور رقم ٧٢ فهو من شعر الملك سليمان، وهو يتحدّث فيه إلى الله، طالبا منه العون الالهي على الحكم، قائلا له (١- اللهم اعطِ أحكامك العادلة للملِك. ٢- فيقضي لشعبك بالعدل ولمساكينك بالانصاف. ٥- ليرهبوك ما دامت الشمس والقمر، من جيل إلى جيل. ٦- وليكن الملِك كالمطر المنهمر على المراعي المجزوزة، كالغيوث التي تسقي الأرض. ٨- ولتمتدّ مملكته من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض. ٩- أمامه يركع أهل البادية، وأعداؤه يلحسون التراب).

ثم مزمور ٨٩، وهو قصيدة تعليمية للمدعو إيثان الأزراحي، أحد معلّمي وشعراء الشعب اليهودي، على زمن الملك سليمان بن داود، وهو في هذا المزمور يتكلم بلسان الملك سليمان، كأنه يوجّه حديثه أو صلاته إلى الله. في هذا المزمور كذلك التأكيد على أن الملِك هو ظلّ الله على الأرض، يحكم الناس باسم الله. بالإضافة إلى نفس الصور القديمة المتكرّرة، مثل صورة البحر الهائج، الذي يحاول أن يتمرّد على الإرادة الإلهية، وصورة انتصار الشعب اليهودي على فرعون مصر، كما جاءت في سفر الخروج، وصورة

الأنبياء والملوك على أنهم أبناء الله.

(لقد قلتَ يا الله: إني أقمت عهدًا مع الملِك الذي اخترته، وقد كان هو داود عبدي، الذي أقسمت له، ولسليمان ابن داود عبدي. ٤- أن أثبّت نسلكما إلى الأبد، وأبقي عرشكما قائما من جيل إلى جيل. ٦- فمن في السماء يعادل الرب؟ ٧- إنه اله مهاب الجانب في محفل الملائكة المقدّسين. ٩- أنت متسلّط على هياج البحر، فتهدىء أمواجه عند ارتفاعها. ١٠- أنت سحقت قوّة مصر، فصارت كقتيل، وبدّدت أعداءك وأعداء شعبك بقدرتك العظيمة. ١١- أنت ملك السماوات والأرض، مؤسّس المسكونة وكل ما فيها. ١٤- البرّ والقضاء قاعدتا عرشك، والرحمة والحقّ يتقدّمان حضرتك. ١٩- بالرؤى كلّمت أنبياءك قديما. ٢٥- أطلقت أيديهم على البحار وأيْمانهم على الأنهار. ٢٦- والنبي منهم يدعوك قائلًا: أنت أبي والهي وصخرة خلاصي).

في معادلة الصراع بين البحر (يُمّ)، وبين تيّارات المحيط (نَهَروت)، نحن لدينا هنا بلا أدنى شكّ، أحد التطبيقات على الأسطورة الكنعانية، الخاصة بالصراع بين (بعل) كبير الآلهة، وبين أمير البحار (زِبِل يُمّ)، وهكذا ففي مزمور ١٨، وكذلك في نسخة أخرى منه موجودة في سفر صموئيل الثاني، الاصحاح ٢٢ العدد من ٢ إلى ٥١، حيث نجد الملك يقدّم الشكر لصاحب الخلاص العظيم، فإن متاعب الملك ومشاكله، توصف هنا باستعمال المصطلحات، التي سبق استعمالها في النصوص الكنعانية، التي تؤكّد على قوّة الملك المقدّسة، في صراعه الكوني ضد قوى الشرّ.

هذا هو نصّ الاصحاح ٢٢ من سفر صموئيل الثاني، الأعداد من ١٤ إلى ١٨ (١٤- أرعد الربّ من السماء، وأطلق العليُّ صوته. ١٥- أطلق سهامه فبدّد الأعداء، وأرسل بروقه فأزعجهم. ١٦- ظهرت مجاري المياه العميقة، وانكشفت أسس المسكونة، من زجر الربّ ومن ريح أنفه اللافحة. ١٧- مدّ الربّ يده من العُلَى وأمسكني، انتشلني من السيول الغامرة. ١٨- أنقذني من عدوّي القوي، وخلّصني من مبغضيَ، لأنهم كانوا أقوى مني).

وهكذا كذلك فإن قوى الشرّ الظالمة المستبدّة، التي ورد ذكرها في المزمور ١٢٤، وصفت بالمياه المضطربة الهائجة (١- لو لم يكن الربّ معنا ليقل إسرائيل، عندما قام الناس علينا. ٣- لابتلعونا ونحن أحياء، عندما احتدم غضبهم علينا. ٤- ولجرفتنا المياه، ولطما السيل علينا. ٥- ولطغت المياه العاتية على أنفسنا. ٦- مبارك الربّ الذي لم يجعلنا، فريسة لأسنان أعدائنا. ٨- عوننا باسم الربّ صانع السماوات والأرض).

ثم يبدو بوضوح أن ذلك الذي يعاني دائما، ويرسل بشكاواه دائما إلى الربّ، هو الملك نفسه على لسان أنبيائه، أو بلسانه هو شخصيا، لدينا هذا في مواضع عديدة من التوراة، في مزمور ١٨ وكذلك في مزمور ١٤٤، وهو بلسان داود الذي كان حينها نبيّا وملكا، الذي يقول (٣- يا ربّ، من هو الإنسان حتى تعبأ به؟ ٤- إنما الإنسان أشبه بنفخة، وأيامه كظلّ عابر. ٥- ياربّ طأطىء سماواتك وانزل، المس الجبال فتدخّن. ٦- أرسل بروقك وبدّدهم، أطلق سهامك النارية وأزعجهم. ٧- مدّ يديك من العلاء وانجدني، انقذني من لُجَج المياه ومن أيدي الغرباء. ٨- الذين نطقت أفواههم بالكذب).

ثم في مزمور ٦٩، وهو لقائد المنشدين على زمن الملك داود، ويدعى عَلَى السُوسَن، في الأعداد من ١ إلى ١٥ التالية (١- خلّصني يا الله، فإن المياه قد غمرت نفسي. ٢- غرقت في حمأة ولا مكان فيها استقرّ عليه، خُضْتَ أعماق المياه، وطما عليّ السيل. ١٤- أنقذني من الوحل فلا أغرق، نجّني من مبغضيّ، وانتشلني من المياه العميقة. ١٥- فلا يَطْمُ عليّ سيل المياه، ولا يبتلعني العمق، ولا تُطْبق الهوّة عليّ فمها). وليست هناك نهاية للاقتباسات من نفس هذه الفكرة، ففي مزمور ٤٢ العدد ٧ (٦- الهي ان نفسي مكتئبة، لذلك أذكرك من وادي الأردن. ٧- أمواج النكبات توالت عليّ، كما تتوالى مياه شلاّلاتك).

بل في أسفار أخرى عدا سفر المزامير، إذ يقول يونان النبي (يونس)، في الاصحاح الثاني من السفر الذي يحمل اسمه في التوراة، في الأعداد من ١ إلى ١٠ (١- صلّى يونان إلى الربّ إلهه من جوف الحوت. ٢- قائلًا: استغثت بالربّ من ضيقي فاستجاب لي،

ومن جوف الهاوية ابتهلت فسمع صوتي. ٣- لأنك طرحتني إلى اللجج العميقة في قلب البحار، فاكتنفني الغمر، وأحاطت بي تيّاراتك وأمواجك. ٥- فقلت: قد غمرتني المياه وأحدقت بي اللجج، والتفّ عشب البحر حول رأسي. ٦- انحدرت إلى أسس الجبال، وهبطت إلى أعماق الأرض، حيث أغلقت عليّ مزاليجها. ١٠- فأمر الربّ الحوت، فقذف بيونان إلى الشاطئ).

من الجائز جدا، أن هذه الأبيات الشعرية في المزامير، أو هذه الآيات في الأسفار المختلفة، كانت تتلى في مناسبات دينية، تمارس خلالها طقوس دينية، كطقس الاحتفال بالملك المنتصر، على أعدائه من قوى الشرّ، خلال طقوس الاحتفال بمقدم موسم الخريف، أمام الكهنة وأفراد آخرين من عامة الشعب، ليثبت بها لهم مقدرته على حكمهم. في التقاليد التوراتية المتعارف عليها، في تراث الشعب اليهودي، أصبحت المياه العميقة، هي العدو الذي يجب أن ينتصر عليه كل إنسان، في صراعه الأزلي مع الطبيعة.

نفس هذا الطقس كان يمارس في كل الحضارات القديمة، ففي مصر مثلا بدءا من حكم الملك زوسر في الأسرة الثالثة، كان على الملك إثبات قوّته البدنية أمام كهنته، مع أفراد آخرين من عامة الشعب، بالصراع بشكل رمزي مع حيوان مفترس، لم يكن في الحقيقة الا أحد الكهنة مرتديا جلد هذا الحيوان المفترس. هذا هو السبب في ظهور الكاهن الأعظم في مصر القديمة، في أغلب التصاوير الجدارية، بالألوان على الجصّ أو بالنقش البارز أو الغائر، مرتديا جلد حيوان النمر المفترس.

وهكذا فإن هذه العناصر الكونية الطبيعية، تعاود الظهور في النصوص التوراتية، والأقوى حضورا فيها على الاطلاق هو عنصر المياه القويّة، على أنها المسؤول الرئيسي عن الخراب والتدمير والفوضى. يمكننا أن نجد هذا النص في سفر نشيد الأنشاد للملك سليمان، الاصحاح الثامن العدد ٧ (لا يمكن للمياه الغزيرة أن تخمد المحبّة، ولا تستطيع السيول أن تغمرها).

٢- الحيوانات المتوحّشة

بالإضافة إلى المياه المضطربة، كقوّة تقليدية أساسية مضادة، تقاوم إرادة الملك والشعب، تظهر كذلك صور بعض الحيوانات المتوحّشة المفترسة، وهكذا فإن شكاوى المتألّم في مزامير داود، يعلن فيها المتألّم أنه محاطٌ بالأسود والثيران والثعابين من نافثي السموم. ففي المزمور ١٧ العدد ١٢ (الشرّير كأسد متلهّف للافتراس، وكالشبل الكامن في مخبئه). وفي المزمور ٢٢ العدد ٢١ (خلِّصني من فم الأسد، ومن بين قرون الثيران الوحشية استجب لي).

وفي مزمور ٥٧ العدد ٤ (حين أرقد بين نافثي السموم من بني البشر، أجد نفسي بين الأسود المفترسة، أنيابهم كالرماح والسهام، وألسنتهم كالسيوف المرهفة). وفي المزمور ٦٨ العدد ٣٠ (انتهر يا الله مصر، وهي الوحش الكامن بين القصب، انتهر الأمم القويّة التي تشبه قطعان الثيران، حتى يخضعوا ويدفعوا لك جِزْيَة من الفضّة، بدّد الشعوب المولعة بالحرب). وفي المزمور ٧٤ الأعداد (١٣- أنت فلقت البحر بقوّتك، وحطّمت رؤوس التنانين. ١٤- أنت مزّقت رؤوس فرعون وجيشه، وجعلته قوتا للحيوانات المتوحّشة. ١٩- لا تسلّم إلى الوحوش نفس شعبك الضعيف).

هنا يظهر بوضوح ملمح آخر من ملامح الكتابة التوراتية، في فترة الملكين النبيّين داود وابنه سليمان، ألا وهو أن الإنسان يساوي الربّ، وذلك لأن الربّ خلق الإنسان على صورته ومثاله، كما سبق أن قال في نصوص سفر التكوين من التوراة، إذ يكون شعب الله هو الشعب الوحيد من بين شعوب البشر، القادر كما يفعل الله على قهر الحيوانات المفترسة، التي لا يمكن أن ينجو منها أي شعب آخر من شعوب البشر.

هذا هو سفر النبي دانيال، الاصحاح السابع منه، الذي يروي فيه رؤياه، عن أكبر أربع أمم في العالم القديم، حوالي القرن السادس قبل الميلاد، التي ظهرت له في الحلم، في صورة أربعة حيوانات خرافية مفترسة. (١- في السنة الأولى لحكم بيلشاصّر ملك بابل، رأى دانيال حلما ورؤيا، مرّت برأسه وهو مضطجع في فراشه، فدوّن الحلم وحدّث

بخلاصة الرؤيا. ٢- قال دانيال: شاهدت في رؤياي ليلا، وإذا بأربع رياح السماء، قد هجمت على البحر الكبير. ٣- وما لبث أن صعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة، يختلف بعضها عن بعض.

٤- فكان الأول كالأسد بجناحين كجناحي النسر. وبقيت أنظر اليه، حتى اقتلع جناحاه، وانتصب على الأرض واقفا على رِجْلَين كإنسان، وأُعْطِيَ عقل إنسان.

٥- ورأيت حيوانا آخر شبيها بالدبّ، قائما على جنب واحد، وفي فمه بين أسنانه ثلاثة أضلع، وقيل له: انهض وكلْ لحما كثيرا.

٦- ثم رأيت بعد هذا حيوانا آخر مثل النمر، له على ظهره أربعة أجنحة كأجنحة الطائر، وكان لهذا الحيوان أربعة رؤوس.

٧- الحيوان الرابع هائل وقوي وشديد، ذي أسنان ضخمة من حديد، افترس وسحق وداس برجليه، وله عشرة قرون. ٨- وفيما كنت أتأمّل القرون، إذا بقرن آخر صغير نبت بينها. وكان في هذا القرن عيون كعيون الإنسان، وفم ينطق بعظائم.

٩- وفيما كنت أنظر، نُصِّبَت عروش، واعتلى العليُّ الأزليَ كرسِيّه، وكانت ثيابه بيضاء كالثلج، وشعر رأسه كالصوف النقيّ، وعرشه لهيبا متوهّجا، وعجلاته نارا متّقدة. ١٠- ومن أمامه يتدفّق ويجري نهر من نار، وتخدمه ألوف ألوف الملائكة، ويمثل في حضرته عشرات الألوف. فانعقد مجلس القضاء وفتحت الأسفار.

١٣- وشاهدت أيضا في رؤى الليل، وإذا بمثل ابن الانسان، مقبلا على سحاب، حتى بلغ الأزليّ فقرّبوه منه. ١٤- فأنعم عليه بسلطان ومجد وملكوت، لتتعبّد له كل شعوب الأرض، والأمم من كل لسان. سلطانه أبدي لا يفنى، وملكه لا ينقرض).

ما هي النتائج التي يمكن استخلاصها من هذا الاصحاح؟

١- أن الرؤى التي وردت في أسفار الأنبياء، لم تكن تتقيّد في خيالاتها بأي حدود للمنطق. ٢- أن صور الحيوانات هي ملمح أساسي، وتدخل عليها التحويرات كما تشاء

مخيّلة النبي أن تفعل. ٣- أن صورة بلاط ربّ السماء لا تختلف عن صورة بلاط أي ملك أرضي، المحاط بالألوف من الخدم، وبمجلس القضاء الأعلى. السؤال هو: هل يحتاج الله كلّي القدرة إلى خدم؟ وماذا سيقدّم له هؤلاء الخدم من خدمات؟ هل هم يجلبون له الماء والطعام والدواء؟

٤- الثياب البيضاء كالثلج، وشعر الرأس كالصوف النقيّ، هذا يدلّ على أن الله يشبه في شكله وقوامه شكل وقوام الإنسان، وهي صورة بشرية تماما للربّ. ٥- عودة عناصر النار المحيط بالربّ، في عرشه، وفي عجلات عربته الحربية، إلى الظهور، وهو ما يدلّ على أن صورة الربّ كانت أقرب إلى صورة فرعون مصر، الذي كان يتنقّل في عجلة حربية. ٦- قيل لاحقا إن هذا النصّ هو الذي تنبّأ فيه النبي دانيال، بمقدم يسوع المسيح آتيا فوق السحاب، لأن يسوع المسيح هو الذي كانوا يطلقون عليه في الأناجيل لقب ابن الإنسان.

هذه هي نفس الصور التي استوحى منها، أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، واسمه يوحنّا اللاهوتي، تمييزا له عن يوحنّا ابن زكريا، الذي يسمّيه القرآن يحيى، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، قبل ظهور المسيح على الأرض، استوحى منها السفر الذي يسمّيه الإنجيل سفر الرؤيا **Revelation**، ومعنى الكلمة هو إماطة اللثام عن الأسرار، ويضعه الفاتيكان ضمن أسفار الإنجيل، منذ قرون طويلة. هو السفر الذي يطلق عليه أيضا اسم سفر نهاية العالم **Apocalypse**، ويمكننا أن نقرأ في اصحاحه رقم ١٣، في الأعداد التالية

(١- رأيت نفسي واقفا على رمل البحر، وإذا وحش خارج من البحر، له سبعة رؤوس وعشرة قرون، على كل قرن منها تاج، وقد كُتِبَ على كل رأس اسم تجديف. ٢- وبدا هذا الوحش مثل النمر، وله قوائم كقوائم الدبّ، وفمّ كفمّ الأسد. ٣- وبدا واحد من رؤوسه، كأنه ذبح ذبحا مميتا، ولكن الجرح المميت شُفِيَ، فتعجّب سكّان الأرض، وتبعوا الوحش. ٤- وسجد الناس للتنّين لأنه هو من وهب الوحش قوّته، وعبدوا الوحش وهم يقولون: من مثل هذا الوحش؟ ومن يجرؤ على محاربته؟

٥- وأعطى التنّينُ الوحشَ فما، ينطق بكلام الكبرياء والتجديف، وأعطاه سلطة العمل مدّة اثنين وأربعين شهرا. ٦- فأخذ الوحش يشتم اسم الله. ويشتم بيته وسكّان السماء. ٧- وأعطي الوحش القدرة على أن يحارب القدّيسين ويهزمهم، والسلطة على كل قبيلة وشعب وأمّة. ٨- فيسجد للوحش جميع سكّان الأرض الذين لم تكتب أسماؤهم منذ تأسيس العالم، في سجل الحياة للحَمَل الذي ذبح.

يقصد بالحمل الذي ذبح، الخروف الصغير الذي قُدِّم كأضحية على مذبح التقدمات، أي يسوع المسيح الذي قُتِلَ على الصليب، وكان دمه حسب المعتقد المسيحي، هو الذي خلّص شعوب الأرض، من الخطيئة الأصلية، خطيئة آدم.

١١- ثم رأيت وحشا آخر خارجا من الأرض، له قرنان صغيران كقرني خروف، ولكن صوته كصوت تنّين، ١٢- وقد استمدّ سلطته من الوحش الأول، فجعل سكّان الأرض يسجدون للوحش الأول، الذي شفي من جرحه المميت. ١٣- وقام الوحش الثاني بآياتٍ خارقة، حتى إنّه أنزل من السماء نارا على الأرض، بمشهد من من الناس جميعا. ١٤- فخدع سكان الأرض بالآيات التي كان يقوم بها، في حضور الوحش الأول. وأمر سكّان الأرض أن يقيموا تمثالا للوحش الأول، الذي كان قد جرح جرحا مميتا ولكنه عاش). هل هناك تعليق يمكن أن يقال على هذه الهلوسة؟

٣- الربّ ضدّ ملك بابل

نجد في النصوص الكنعانية، التي عثر عليها في رأس شمرة، حكاية الفشل الذي أصاب الالهة (عشتار)، عندما حاولت أن تحلّ محل الإله (بعل) على عرشه، والسخرية والاهانات التي وجّهت لها، فنلاحظ أن هناك تشابها واضحا بين هذا النصّ، وبين نص آخر وارد في الأغنية الشعبية، الممتلئة بالسخرية من ملك بابل وبالإهانات الموجّهة له، التي أوردها النبي إشعياء في الاصحاح ١٤ من السفر الذي يحمل اسمه، التي يقول فيها في الأعداد

(١- لكن الربّ ينعم برحمته على ذرّية يعقوب، ويصطفي شعب إسرائيل شعب

إسرائيل ثانية ويعيدهم إلى أرضهم. ٤- فتسخرون من ملك بابل قائلين: كيف استكان الظالم ملك بابل، وكيف خمدت غضبته المتعجرفة؟ ٥- لقد حطّم الرب عصا المنافق وصولجان المتسلّطين. ٦- الذين انهالوا بها على الناس ضربا. ٧- فاستراحت الأرض كلها وسادها الهدوء. ٨- حتى شجر السرو وأرز لبنان عمّها الفرح. ١٠- كل ملوك الأرض يخاطبونك قائلين: لقد صرت ضعيفا مثلنا. ١١- وطُرِحَت كل عظمتك في الهاوية، وأصبحت الرمم فراشا لك والدود غطاءً لك.

٢٢- يقول الربّ القدير: إني أهبَ ضدّهم، وأمحو من بابل اسمها وبقيّة نسلها وذرّيّتها. ٢٣- وأجعلها ميراثًا للقنافذ، ومستنقعات للمياه، وأكنسها بمكنسة الدمار. ٢٤- لقد أقسم الربّ القدير قائلًا: حقّا ما عزمت عليه لا بدّ أن يتحقّق، وما نويت عليه حتما يتمّ. ٢٥- أن أحطّم آشور في أرضي، وأن أطأه على جبالي. ٣١- نوحي خوفًا يا فلسطين قاطبة، لأن جيشًا مدرّبًا قد زحف نحوك من الشمال. ٣٢- لقد أسّس الربّ أورشليم ليلوذَ بها منكوبو شعبه).

٤- الربّ يغفر لشعبه المختار

هنا يمكننا أن نميّز بجلاء، ملامح أسطورة (بعل)، وقصّة سقوط الملوك بدلاء (بعل) على كرسي عرشه، على قمّة جبل صافون (تعني الشمال بالعبرية). من الصور الكنعانية الباقية في توراة إسرائيل، صورة الربّ جالسا على كرسي كبير القضاة، في مجلس القضاء، كما في سفر التثنية الاصحاح ٣٢، الذي وضع له لاحقا عنوان (أنشودة موسى).

(٨- عندما قسّم العليّ الميراث على الأمم، وحين فرّق بين بني آدم، أقام حدودا للشعوب عدا بني إسرائيل. ٩- لأن نصيب الربّ هو شعبه، وأبناء يعقوب لهم نصيب قُرعة ميراث الربّ. ١٠- أحاط بهم ورعاهم وصانهم مثل حدقة عينه. ١٢- هكذا الربّ وحده قاد شعبه. وليس معه اله آخر غريب. ١٣- فأكلوا ثمار الصحراء، وغذّاهم بعسل وزيت. ١٤- وزبدة البقر ولبن الغنم، وشحم خراف وتيوس، وأفضل الكباش ولبّ الحنطة، وسقاهم دمّ العنب القاني. ١٥- فسمن بنو إسرائيل وغلظوا واكتسوا شحما.

فرفضوا الإله صانعهم، ١٦- وأغاظوه بأصنامهم الرجسة. ١٩- رأى الربّ ذلك فرذلهم، ٢٠ وقال: سأحجب عنهم وجهي، فأرى ما يكون مصيرهم).

في هذا الجزء من الأنشودة، نرى كل تاريخ شعب إسرائيل، الذي يتلخّص في مسألة قسمة ميراث الربّ، وتوزيع الأرض التي وهبهم إيّاها، بين أبناء أسباط يهوذا الاثني عشر، ثم توزيع غنائم الغزوات التي اضطروا إلى خوضها، على المقاتلين اليهود. ثم نجد أن هذا الشعب رغم ذلك السند الإلهي الواضح، كان ناكرا للجميل، ولم يكن دائما محافظا على عبادة الربّ، بل انحرف إلى عبادة الأوثان. الا أن الربّ مع ذلك، يعلّمهم درسا، بأن يسقطوا في أيدي أعدائهم ملوك آشور، ثم يعود الربّ فيحنّ عليهم، ويدمّر أعداءهم ويخلّصهم من الأسر، ويغفر لهم ويعيدهم إلى رحمته.

إن توقيت كتابة هذا الاصحاح غير محدّد، بل كذلك يمكننا القول بإن تحديد التوقيت الزمني، لكتابة هذا السفر كله، هو الآخر غير معروف، فرغم أنه قيل إن هذا السفر (التثنية Deuteronomy)، هو من بين الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، التي قيل إن كاتبها هو موسى نفسه، الا أنه يمكننا أن نتوقّع أن هذا السفر، كانت قد أضيفت اليه فقرات في أزمنة كثيرة لاحقة، خاصة في الفترات التالية على عودة شعب إسرائيل، من فترة العبودية في بابل، وهو الحدث المعروف تاريخيا باسم السبي البابلي، ويقع بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد.

صحيح أنه قد حدث في زمن حياة موسى، أن أنكر أفراد الشعب العبري الايمان بالربّ، وارتدّوا عن عبادته، وعادوا لعبادة الأوثان التي عرفوها في زمن إقامتهم في مصر، الا أن الإشارات الكثيرة إلى ملوك بابل، الذي لم ينجحوا في سبي الشعب الإسرائيلي، الا في القرن السادس قبل الميلاد، يجعلنا نميل إلى الاعتقاد، في أن بعض أجزاء هذا السفر، كتبت في أزمنة لاحقة على السبي.

نحن نجد أنه كلما ذكرت حكاية، ارتداد شعب إسرائيل عن الايمان بالرب، أن تأتي نصوص العقاب الإلهي، ثم تأتي بعدها على الفور نصوص رفع العقاب، ثم نصوص

غفران كل خطايا الشعب اليهودي، الذي كان هو وحده فقط، الذي يحصل على هذه المعاملة المتميّزة، لأنه شعب الله المختار. بل إن الله يقف دائما إلى جوار بني شعبه المختار، ويساندهم مساندة غير مشروطة ضد أعدائهم، في كل المعارك الحربية التي دخلوها.

أنظروا مثلا إلى هذه النصوص من سفر (القضاة)، الاصحاح ٣ (٧- ارتكب بنو إسرائيل الشرّ في عيني الربّ. ونسوا إلههم وعبدوا البعل والعشتار. ٨- فاحتدم غضب الربّ عليهم، وسلّط عليهم ملك آرام ما بين النهرين. فاستعبد بني إسرائيل ثماني سنوات. ٩- واستغاث بنو إسرائيل بالربّ، فأقام لهم مخلّصا أنقذهم هو نثانائيل. ١٠- فحلّ عليه روح الربّ وصار قاضيا لإسرائيل. وحين خرج لمحاربة ملك آرام ما بين النهرين، تغلّب نثانائيل عليه وأظفره الربّ به. ١١- وعمّ السلام أرض إسرائيل أربعين عاما حتى مات نثانائيل).

٥- الرب قاضٍ وقائد عسكر

ثم يتبنى تراث شعب إسرائيل، على زمن الملوك القضاة، فكرة أن الله هو كبير القضاة، الذي يترأس مجلس القضاء، المكوّن من عدد من القضاة، الذين يعتبرون أنفسهم أنداد الربّ ونظراءه، وهو المجلس الذي يصدر أحكامه أولا بأول، على البشر الأحياء، وكذلك على البشر الأموات، وهذه الصورة هي الأخرى، منقولة عن التراث الكنعاني، حيث كان بعل كبير القضاة، يترأّس هو الآخر مجلس القضاء، وهو المجلس المسؤول عن إصدار الأحكام.

في المزمور ٨٢ (١- الله يترأّس ساحة قضائه. وعلى القضاة يصدر حكما. ٢- الله يسألهم: حتى متى تقضون بالظلم؟ حتى متى تنحازون إلى الأشرار؟ ٣- احكموا للذليل ولليتيم. وانصفوا المسكين والبائس. ٤- انقذوا الفقير من قبضة الأشرار. ٥- هؤلاء القضاة من غير معرفة وفهم. يتمشّون في الظلمة، فتتزعزع أسس الأرض، من كثرة الجور. ٦- أنا قلت: كلكم آلهة. ٧- لكنّكم ستموتون كالبشر. وتنتهي حياتكم مثل كل

الرؤساء. ٨- قم يا الله دِن الأرض. لأنك أنت تمتلك الأمم بأسرها).

إن الفكرة التي تصوّر الربّ، كما جاءت في هذا المزمور، على أنه كبير القضاة في مجلس القضاء، أي أنه بين نظراء أنداد له، وهي الصورة التي انتشرت في إسرائيل على زمن الملوك القضاة، لم يكن من الممكن أن يتمسّك بها شعب إسرائيل لفترة زمنية طويلة، ولذلك تمّ الالتفاف عليها ثمّ التخلّي عنها في أقرب فرصة، عندما انتهى عصر القضاة، وحلّ محلّه عصر الملوك من القادة العسكريين. وهكذا فغالبا إن هذا المزمور رقم ٨٢، يعود إلى زمن الملوك من العسكريين، وأضيف لاحقا إلى مزامير داود، إذ تبدو فيه السخرية واضحة من القضاة، فبالإضافة إلى تأنيبهم على فساد أحكامهم، وظلمهم للفقراء والمساكين، لصالح الأغنياء الموسرين، فإن كلمات هذا المزمور في الحقيقة هي توبيخ عنيف.

أمّا صورة الربّ كما جاءت في نبوّة ميخا، في سفر الملوك الأول اصحاح ٢٢، فتختلف عن صوره السابقة، إذ يبدو الربّ هنا كقائد عسكر، جالسا على كرسي عرشه محاطا بجنوده، وهو بالإضافة إلى ذلك أصبح على قدر كبير من المكر والدهاء، بل ومن الرغبة في السخرية من آخاب ملك إسرائيل، وفي التخلّي عنه في معركته العسكرية المقبلة ضد راموت وجِلعاد.

فعندما تقدّم آخاب بتساؤله إلى الربّ، وصلّى إلى الربّ مخلصا طالبا منه أن يختار له بين خيارين، إمّا أن يرسل حملة عسكرية على راموت وجِلعاد، إذا كان الربّ يضمن له الانتصار عليهما، أو لا يرسل حملة عليهما، إذا كان الربّ لا يضمن له الانتصار. نجد أن الربّ هنا يتعاون مع ما يسمّيه النصّ التوراتي (روح الضلال)، ويترك الملك آخاب ملك اسرائيل يخرج للقتال، رغم أن الربّ يعرف مقدّما أن الملك آخاب سيُقْتَل في هذه الحرب. وهو موقف غريب من الربّ، لكنه كذلك موقف غريب من ملك إسرائيل، الذي أقسم ألاّ يتحرّك بالجيش، الا إذا وصلته من الربّ إشارة صريحة واضحة بالنصر على الأعداء.

من الملفت للانتباه كذلك في هذا النص الغريب، وجود عدد كبير من الأنبياء، في بني إسرائيل في ذلك الوقت، وأن الملك لم يكن يثق فيهم، وأن من بينهم كان النبي ميخا هو أكثرهم مصداقية وأهمية، لذلك أرسل اليه الملك رسولا يبلغه بالموقف، ويطلب منه أن يعطي رأيه ومشورته إلى الملك. من الملفت للانتباه كذلك، أن كل هؤلاء الأنبياء، كانوا يدّعون القدرة على التحاور اليومي مع الربّ، فيسألونه ويجيبهم، ولم يعلن أحد عن قلّة ثقته بهم، لا من البلاط الملكي ولا من الشعب.

هذا هو النصّ التوراتي في سفر الملوك الأول، الاصحاح ٢٢ (١٢- تنبّأ جميع أنبياء بني اسرائيل، بمثل هذا الكلام الذي قالوا فيه لملك إسرائيل، إذهب إلى راموت وجِلعاد فتظفر بهما، لأن الربّ يسلّمهما إلى الملك. ١٣- أما الرسول الذي انطلق لاستدعاء ميخا، فقد قال له: لقد تنبّأ جميع الأنبياء بفم واحد، مبشّرين الملك بالخير، فليكن كلامك موافقا لكلامهم، يحمل بشائر الخير. ١٤- فقال ميخا للرسول: حيٌّ هو الربّ، أنا لن أنطق الا بما يقوله الربّ.

١٥- فلمّا حضر أمام الملك سأله: يا ميخا هل نذهب إلى الحرب مع راموت وجلعاد أم نمتنع؟ فأجاب ميخا بتهكّم: إذهب فتظفر بها لأن الربّ يسلّمها إلى الملك. ١٦- فقال له الملك: كمّ مرّة استحلفتك باسم الربّ ألا تخبرني الا بالحقّ؟ ١٩- فأجاب ميخا: قد شاهدت الربّ جالسا على كرسيّه، وكل أجناد السماء ماثلةٌ عن يمينه وعن يساره. ٢٠- فسأل الربّ: من يغري آخاب ليخرج للحرب ويموت في راموت وجلعاد؟

٢١- فتقدّم روح الضلال وقال: أنا أغويه. فسأله الربّ: بماذا؟ ٢٢- فأجاب: أُصبِح روح ضلال في أفواه جميع أنبيائه. فقال الربّ: إنّك قادرٌ على إغوائه، وتفلح في ذلك، فامضِ ونفّذ هذا الأمر. ٢٣- وها الربّ قد جعل الآن روح ضلال في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء، وقد قضى عليك بالشرّ. ٢٩- فتوجّه ملك اسرائيل إلى راموت وجلعاد. ٣٠- ثم قال: إني سأخوض هذه الحرب متنكّرا. وهكذا تنكّر ملك إسرائيل وخاض الحرب.

٣٤- ولكن حدث أن جنديّا أطلق سهما من قوسه غير متعمّد، فأصاب ملك إسرائيل

بين أوصال درعه. فقال آخاب لقائد مركبته: استدر وأخرجني من أرض المعركة فقد جرحت. ٣٥- ولم يلبث أن مات عند المساء، فجرى دمّ الجرح إلى أرض المركبة. ٣٧- وهكذا مات الملك، فنقلوه إلى السامرة حيث دفن فيها. ٣٨- وعندما غسلت مركبته في بركة السامرة، جاءت الكلاب ولحست دمه. فتحقّق بذلك كل ما أنذر به الربّ).

٦- ظهور الشيطان

يقول مزمور ٨٩ في الأعداد من ٥ إلى ٧ (٥- السماوات تشيد بعجائبك أيها الربّ، والملائكة والقدّيسون يشيدون بأمانتك. ٦- فمن في السماء يعادل الربّ؟ إذ ليس في الكائنات السماوية من يماثله. ٧- إنه إله مهوب جدًّا في محفل الملائكة والقدّيسين، ومخوف كثيرا عند جميع المحيطين به). هذه الصورة هي في الواقع، نفس الصورة التي كانت، لكبار آلهة كنعان وبابل في الأساطير الكنعانية والبابلية، حيث يحيط الآلهة القدّيسون بإلههم الأكبر، ليكونوا في خدمته، ومن بين سدنته.

ثم يظهر فجأة شخص يسمّيه سفر النبي أيوب (الشيطان)، وهذه الكلمة تظهر للمرّة الأولى هنا في سفر أيّوب، الذي كتب في القرن الثامن ق. م.، ثم أضيف إلى أسفار التوراة. ساتان **satan** بالانجليزية وبالفرنسية، هي كلمة من أصل مصري قديم، إذ كان اله الشرّ يسمّى سات أو شاط، وهو من بين أقدم آلهة مصر، إذ كان أخا لكل من أوزوريس ونفتيس وإيزيس. أنظروا في هذه الآيات من الاصحاح الأول لسفر أيّوب.

بالمناسبة فإن أولئك الذين يطلق عليهم النصّ التوراتي اسم (بنو الله)، هم من بقايا شعب العماليق، الذين كانوا قد نتجوا سابقا، من زيجات تمّت بين آلهة من الرجال، وبين نساء بشريّات. ثم إن الربّ لم يكن على علم تام، بشخصيّات كل المحيطين به، بل على ما يبدو هنا فإنه كان من الممكن، لبعض الشخصيّات المجهولة، أن تندسّ في بلاط الربّ، دون علم حرّاسه، كما هو محتمل الحدوث في بلاط أي ملك أرضي، بدليل هذا النصّ.

(٦- وحدث ذات يوم أن مثل بنو الله أمام الربّ، فاندسّ الشيطان في وسطهم. ٧- فسأل الربّ الشيطان: من أين جئت؟ فأجاب الشيطان: من الطواف في الأرض والتجوّل

فيها. ٨- فقال الربّ للشيطان: هل راقبت عبدي أيّوب، فإنّه لا نظير له في الأرض، فهو رجل كامل صالح، يتقّي الله ويحيد عن الشرّ. ٩- فأجاب الشيطان: أمجّانا يتّقي أيّوب الله؟ لقد باركتَ كل ما يقوم به من أعمال، فملأت مواشيه الأرض. ١١- ولكن حالما تمدّ يدك وتمسّ جميع ما يملك، فإنّه في وجهك يجدّف عليك. ١٢- فقال الربّ للشيطان: ها أنا أسلّمك كل ما يملك. ثمّ انصرف الشيطان من حضرة الربّ).

هنا في هذا النصّ يُنظر إلى الشيطان، على أنه ممثّل الادّعاء العام، في حكومة جلالة الملك الربّ، الذي يكلّفه الربّ بملف المدعو أيوب لاختبار أخلاقياته، والتحقّق من صلاحيّته، وأحقّيته في الحصول على كل تلك البركات الإلهية، التي كان قد حصل عليها فعلا من الربّ، بادّعاء الصلاح، كما يعتقد الشيطان. إذن يحصل الشيطان هنا على إذن الهي باختبار أخلاقيات أيّوب، وهو ما يدلّ على أن الشيطان عند أول ظهوره، كان يتعاون مع الربّ في إجراء التحقيقات اللازمة، بخصوص بعض عبيد الربّ، مثلما هو ممكن لأي ملك أرضي، أن يكلّف قائد شرطته، أو وزير داخليّته، بالبحث في السجل الجنائي لأحد المواطنين.

لم يكن الشيطان هنا في هذا النصّ، قد حصل بعد على صورته التقليدية، التي سيظهر بها لاحقا، كأهم أعداء الله والإنسان. هو هنا أقرب إلى صورة أحد ملائكة الربّ، الذي يمكن للربّ أن يكلّفهم بمهام خاصة، تقتضي أن يكون هذا الملاك حاصلا على ثقة الله الكاملة. كان الشيطان هنا لا يزال تحت السيطرة الكاملة للإرادة الإلهية، لم يخرج بعد عن طوعه.

إن صورة الربّ في نبوّة حبقوق، وهو أحد الأنبياء المتأخرين، في تاريخ شعب إسرائيل، تدعو إلى الشكّ والريبة. انظروا إلى هذه الكلمات، من الاصحاح الثالث، الأعداد من ٣ إلى ٦ (٣- جاء القدّوس من جبل فاران ببريّة سيناء. غمر جلاله السماوات وامتلأت الأرض من تسبيحه. ٤- إن بهاءه كالنور، ومن يده يومض شعاع. وهو يحجب قوّته. ٥- يتقدّمه وباء، والموت يقتفي خطاه. ٦- وقف فزلزل الأرض، تفرّس فأرعب

الأمم. اندّكت الجبال الأبدية، وانهارت التلال القديمة، أما مسالكه فباقية من الأزل).

نجد هنا: ١- أن الله يمشي ويصحب معه في ركبه آلهة الأوبئة والموت. ٢- أن هذه الآلهة قد تعمل وفقا لارادة الله، إذا أراد الله أن يعاقب البشر، لكنها أيضا قد تخرج عن طاعة الله، وهو ما يفهم ضمنا من عبارة اقتفاء الخطى، أي التحرّك بسرية والتتبّع متخفّيا. ٣- الله يزلزل الأرض ويرعب الأمم، فهو في الحقيقة اله شرّير. من المثير للاهتمام معرفة، أن هذا النصّ في صورته التي كان عليها، عند تضمينه في أسفار التوراة للمرة الأولى، كان نبي الله (حبقوق) لا يستعمل فيه كلمتي وباء وموت، بل كان يستعمل الاسمين اللذين كانا، لاله الأوبئة واله الموت، في الأساطير الكنعانية.

كان الدارسون لنصوص الشعب اليهودي، قد وجدوا فيها بعض الإحالات الثقافية، مثلا في أشعار شعراء اليهود، في القرون الأخيرة قبل الميلاد، التي تستعمل هذين الاسمين، في الإشارة إلى الموت والى الأوبئة، ريشيف **Resheph**، ودبحر أو دبهر **Depher**، والأول هو اله الشر والكوارث والأوبئة والأمراض، في الأساطير الكنعانية، والثاني هو الإله الذي كان يتكفّل بذبح الآلاف من البشر، في الحروب المختلفة، وقد تكون كلمة ذبح العربية قد جاءت من هذا الأصل اللغوي. وفقا للأساطير الأوغاريتية، كان هذان الالهان يقفان إلى جوار كبير الآلهة، يحيطان بعرشه ويسيران في معيّته، بنفس الطريقة التي ظهرا بها، وهما يحيطان بعرش ربّ إسرائيل، ويمشيان في معيّته.

٧- غضب الربّ

كان غضب الربّ من شعبه اسرائيل، قد أدّى إلى أن اتجّهت إرادة الربّ نحو الانتقام من شعبه المختار، وهكذا كانت التهديدات التي هدّد بها الربّ شعبه، وفقا لما جاء في نصّ الاصحاح ٣٢ من سفر التثنية (١٩- فرأى الربّ ذلك ورذلهم، إذ أثار أبناؤه وبناته غيظه. ٢- وقال: سأحجب عنهم وجهي، فأرى ماذا يكون مصيرهم؟ إنهم جيل متقلّب وأولاد خونة. ٢١- هيّجوا غيرتي بعبادة أوثانهم، وأسخطوني بأصنامهم الباطلة. لذلك سأثير غيرتهم بشعب متوحّش، وأغيظهم بأمّة حمقاء.

٢٢- فها قد أضرم غضبي نارا تحرق، وتأكل الأرض وغلاّتها، ٢٣- وأكوّم عليهم شرورا وأنفذ فيهم سهامي. ٢٤- وحين يكونون خائرين من الجوع، منهوكين من الحمّى والداء السام، أجعل أنياب الوحوش مع سمّ زواحف الأرض تنشب فيهم. ٢٥- يثكلهم سيف العدو في الطريق، ويستولي عليهم الرعب داخل الخدور. فيهلك الفتى مع الفتاة، والرضيع مع الشيخ. ٢٦- قلتُ: أشتّتهم في زوايا الأرض، وأمحو من بين الناس ذكرهم. ٢٧- لولا خوفي من تبجّح العدو، إذ يظنّون قائلين: إن يدنا قد عظمت، وليس ما يجرى هو من فعل الربّ).

من هذه القطعة يمكننا أن نستخلص التالي: ١- أن الربّ يشبه تماما الإنسان في تقلّب مشاعره، فيغضب من شعبه، ثم يرغب في الانتقام منه، وهو ما كانت عليه مشاعر كل آلهة الحضارات القديمة. ٢- يتلذّذ ربّ إسرائيل بعذابات شعبه، كما لو أنه كان يعاني من مرض السادية، حيث يسعد الشخص بالمعاناة الجسدية لشخص آخر، يكون هو المتسبّب له فيها. ٣- الربّ يخاف من سوء ظن الشعوب المعادية لشعبه إسرائيل، كأن تلك الشعوب الأخرى هي دائما خارج حساباته، ولا سلطان له عليه، وذلك حسب المعتقد الأسطوري، بسبب أنها تتبع آلهة أخرى، بينها وبين ربّ إسرائيل عداوات قديمة.

لكن بالإضافة إلى ذلك هناك نقطة هامة ينبغي الالتفات اليها، وهي موضوع أن الربّ يُنْفِذ سهامه في أعدائه، وهي صورة الربّ ممسكا بالقوس وبالسهام. فهناك صورة الإله أبولو في الأساطير اليونانية القديمة، اتي تعود زمنيا إلى نفس تلك الفترة، حوالي القرن ١٠ ق م، الذي كان هو الآخر ضاربا بالسهام، التي عندما تصيب البشر تنقل اليهم الأمراض والأوبئة والطاعون، وهو ما يسمّيه النصّ أعلاه (الداء السام).

من الغريب كذلك ملاحظة أن نصوص الأساطير الكنعانية تقول هي الأخرى، إنه من بين ألقاب ربّ الشرور (ريشيف)، لقب (أفضل المطلقين سهامهم) و(سيّد من يستعمل الأقواس والسهام). وهو ما يمكن العثور عليه كذلك في نصوص رأس شمرة، المكتشفة حديثا على شقافات **ostraca**، وهي قطع من الفخّار الذي كان يعاد استعمالها في كتابة

النصوص، لعدم توفّر الورق اللازم لذلك. كما أن هناك نصوص فينيقيّة من نفس الفترة الزمنية تقول نفس الأشياء، من قبيل تميّز الأرباب عن غيرهم من البشر، في استعمال الأقواس والسهام، لإصابة الناس بالأمراض مثل الطاعون، وبغيره من الكوارث، مثل الحمّى التي لا شفاء منها .

يمكننا كذلك أن نجد مثل هذه الإشارات، إلى الشكّ في بشريّة ربّ إسرائيل، في سفر أيّوب الاصحاح الرابع، حيث أتى هذا النصّ على لسان أيّوب، وهو أحد أنبياء شعب اسرائيل (١٢- ذات مرّة في غمرة الهواجس وفي رؤى الليل. ١٤- انتابني رعب ورعدة أرجفا عظامي. ١٥- خطرت روح أمام وجهي. فاقشعر شعر جسدي. ١٦- غير أنني لم أتبيّن ملامحها. ثم سمعت صوتا منخفضا يقول: ١٧- أيمكن أن يكون الإنسان، أبرّ من الله؟ أن يكون الرجل أطهر من خالقه؟ ١٨- ها إن الربّ لا يأتمن عبيده، والى ملائكته ينسب حماقة. ١٩- فكم بالحري المخلوقون من طين).

أنظروا إلى كلمات هذا المزمور رقم ٧٦، وهو من نظم آساف، الذي تلقّبه التوراة بقائد المنشدين، وقائد العازفين على الآلات الوترية، ويهوذا هنا هي جزء من مملكة اسرائيل (١- الله معروف في يهوذا، واسمه معظّم في إسرائيل. ٢- خيمته في أورشليم، ومسكنه في جبل صهيون. ٣- هناك حطّم السهام البارقة، والترس والسيف، وكل أسلحة الحرب). مرة أخرى الصورة هنا بشرية تماما، إذ يحتاج ربّ إسرائيل إلى خيمة ومسكن، في مكانين معروفين للشعب، وعنوانيهما يمكن بسهولة الوصول اليهما، في حالة احتياج أحد أفراد الشعب إلى خدمات الإله، ثم هو يحطّم أسلحته، لأنه لا يريد أن يعود إلى استعمالها ضد شعبه.

٨- فخاخ الصيّاد

في التوراة هناك الكثير من النصوص التي تتحدّث عن الموت، ففي مزمور ٤٢ العدد ٦ (الهي إن نفسي مكتئبة، لذلك أذكرك من وادي نهر الأردن، ومن جبال حِرمون ومن جبل مِصْعَر). هنا يشير الإنسان المعذّب إلى أماكن جغرافية محدّدة، قد لا يكون لها معنى، إذا

ترجمت هذه الكلمات الدالة على أماكن إلى اللغات الأجنبية، دون معرفة المعاني التي تعبّر عنها هذه الكلمات باللغة العبرية.

إن وادي نهر الأردن في الأساطير الكنعانية، هو المكان الذي يبدأ فيه المتوفّى النزول إلى باطن الأرض، إلى العالم التحت أرضي، الذي سيقوده إلى السماء، في حالة أن يكون نصيبه هو الجنّة، أو إلى أعماق الأرض، إذا كان نصيبه هو الجحيم. هو نفسه الوادي، الذي عبّرت عنه بعض المزامير الأخرى بعبارة (وادي ظلّ الموت). أما جبل مِصْعَر، فكلمة مِصْعَر هي كلمة في العبرية القديمة، قد تعني الميلاد الجديد، أي الميلاد بعد الموت، أي عودة الروح إلى الحياة في الجسد الأرضي.

أمّا كلمة هِرمون العبرية، فتعني الشباك والأفخاخ التي يصنعها الصائد، لتقع فيها الحيوانات والطيور، وهي احدى صور اله الموت في الأساطير الكنعانية، الذي يظهر كصائد يستعمل شباكه وأفخاخه، في اصطياد أرواح البشر. أنظروا إلى ما يقوله مزمور ١٨ في العددين ٤ و ٥ (٤- قد أحدقت بي حِبال الموت، وأفزعتني سيول الهلاك. ٥- حاقت بي حِبال الهاوية، وأطبقت عليّ فخاخ الموت). لاحظوا عبارتي (حِبال الموت)، و(حِبال الهاوية)، والكلمة الصريحة (فخاخ الموت).

مزمور ٩١ (١- المحتمي بقُدْس أقداس العليّ، في ظل القدير يبيت. ٢- أقول للربّ أنت ملجئي وحصني، أنت الهي الذي به وثقت. ٣- لأنه ينقذك حقّا من فخّ الصيّاد، ومن الوباء المهلك. ٤- بريشه الناعم يظللك، وتحت أجنحته تحتمي. فتكون لك وعوده الأمينة ترسا ومتراسا. ٥- فلا تخاف من هول الليل، ولا من سهم يطير في النهار. ٦- ولا من وباء يسري في الظلام). كل الكلمات هنا تحمل نفس الدلالات، مثل (فخّ الصيّاد)، ثم العودة إلى العبارات من نوع (سهم يطير في النهار).

حتى في سفر الملك سليمان المعروف بسفر الأمثال، نجد مثل هذه العبارات في الاصحاح ١٣ العدد ١٤ (شريعة الحكيم تنعش كينبوع حياة، ومن يقبلها يتفادى أشراك الموت). وفي اصحاح ١٤ العدد ٢٧ (تقوى الربّ ينبوع حياة لتفادي أشراك الموت).

٩- ملك الموت

كان اله الموت في الأسطورة الكنعانية، المرتبطة بعبادة الإله (بعل) في (رأس شمرة)، وفي النصوص التوراتية، المرتبطة بعبادة (ربّ إسرائيل)، يظهر دائما بنفس الألقاب والصفات. لقبه الأول هو لقب الحاكم المطلق لمدينة الجحيم المهدّمة، وسِمَته الأولى هي الكراهية التي تعافها النفس. ثم تأتي الآيات التي تدلّ على أن شهيّته مفتوحة دائما، لالتهام المزيد من جثث الموتى، لأنه الهاوية كما في إشعياء الإصحاح ٥ العدد ١٤ (لهذا وسّعت الهاوية أحشاءها، وفَغَرت شدقيها إلى ما لا نهاية، لينحدر فيها شرفاء أورشليم وجماهيرها وعجيجها وكل طرب فيها).

نفس هذا المعنى ورد كذلك في سفر حبقوق الاصحاح ٢ في العددين ٤ و٥ (٤- إن ذا النفس المنتفخة غير المستقيمة مصيره الهلاك، أما البار فبالايمان يحيى. ٥- وكما أن الخمر غادرة، كذلك تأخذ المغترّ نشوة الانتصار فلا يستكين، فإن جشعه في سعة الهاوية، وهو كالموت لا يشبع. لهذا يجمع الموت لنفسه كل الأمم، ويسبي جميع الشعوب). وفي سفر الأمثال الاصحاح ٣٠، في العددين ١٥ و١٦ (١٥- ثلاثة أشياء لا تشبع قطّ، والرابعة لا تقول كفى. ١٦- الهاوية، والرَحِم العقيم، وأرض لا ترتوي من الماء، والنار التي لا تقول أبدا كفى).

وكما سبق القول فإن الموت هو كذلك صائد الأرواح، صائد الطيور التي ينصب لها في كل مكان أفخاخه وشراكه. ثم إن الموت هو صاحب الطاعون والكوارث، إنهما صاحباه، اللذان يقفان في معيّته، ويمشيان معه أينما ذهب. هناك كذلك مجموعة أخرى من الألقاب يحملها الموت، مثل ألقاب اللص والسارق والسالب والخطّاف، المستعد دائما لاقتحام البيوت، عبر النوافذ والأبواب. أنظروا في سفر إرميا الاصحاح ٩، في العددين ٢٠ و٢١ (٢٠- استمعن أيها النساء إلى قضاء الربّ، وعلّمن بناتكنّ الندب. ٢١- فإن ملِك الموت قد تسلّق إلى كوانا، وتسلّل إلى قصورنا، فاستأصل الأطفال من الشوارع، والشبّان من الساحات).

ثم أخيرا فإن اللقب الذي حمله مِلك الموت، هو لقب ملّك الرعب والأهوال، أنظروا مثلا إلى سفر أيّوب، الاصحاح ١٨ العدد ١٤ (يؤخذ الشرير من خيمته، وساق أمام ملك الأهوال). ثم إن ملك الموت هو السيد الذي سود على البشر، ففي سفر إشعياء، الاصحاح ٢٦، في العددين ١٣ و١٤ (١٣- أيها الربّ إلهنا، قد ساد علينا أسيادٌ سواك، ولكننا لا نعترف الا باسمك وحده. ١٤- هم أشباح فعاقبهم واهلكهم أبِدْ ذِكْرَهُم).

الفصل الرابع
مملكة الرب على الأرض

١- التحوّل إلى مجتمع زراعي

إن أقدم التقاويم السنوية، الخاصة بالاحتفالات الدينية لشعب اسرائيل، هي تلك الواردة في سفر الخروج، الاصحاح ٢٣ الأعداد من ١٤ إلى ١٩ (١٤- ثلاث مرّات تحتفل لي في السنة: ١٥- تحتفل بعيد الفِطْر فتأكل كما أمرتُك فطيرا، مدّة سبعة أيام، في الوقت المعيّن في شهر أبيب - مارس/ آذار - لأنه فيه خرجتَ من مصر، ولا يمْثُل أحد أمامي بيدين فارغتين. ١٦- وتحتفل أيضا بعيد الحصاد، حيث تقدّم باكورة غلاّتك، التي زرعتها في الحقل، ثم عيد الجَمْع في نهاية موسم الحصاد، عندما تجمع غلاتك من الحقل. ١٧- ثلاث مرّات يمثُل جميع الرجال أمام السيّد الربّ. ١٨- لا تُقَرّب لي دمّ ذبيحة مع الخبز المختمر. ١٩- واحضر أجود باكورة أرضك إلى بيت إلهك).

ثم يأتي نصٌّ آخر من سفر الخروج، يعيد نفس الكلام تقريبا، ولكن مع توضيح المزيد من التفاصيل، كما يضع للمؤمنين بعض الشرائع العامة. الاصحاح ٣٤ الأعداد من ١٨ إلى ٢٢ (١٨- احتفلوا بعيد الفطير، فتأكلون فطيرا سبعة أيام كما أمرتكم، في شهر أبيب - آذار/ مارس - وهو الشهر الأول من السنة العبرية، لأنكم في هذا الشهر خرجتم من مصر. ١٩- كل بكر ذكر هو لي، وكذلك كل بِكر من ماشيتك، من الثيران والخرفان

والماعز. ٢٠- أما بِكر الحمار فتفديه بحَمَل، وإلّا تُدَقُّ عنقُه. كل ابن بكر لك تفديه بحمل. لا تمثلوا أمامي بأيدٍ فارغة. ٢١- في ستّة أيام تعمل، وفي اليوم السابع تستريح، حتى لو كان ذلك في مواسم الفلاحة والحصاد. ٢٢- احتفلوا أيضا بعيد الأسابيع، في أول حصاد القمح. وبعيد الجَمع في آخر السنة).

إن التأريخ المعتمد لهذين النصّين، هو في الفترة ما بين الخروج من أرض مصر حوالي ١٢٢٥ ق م، وبداية تأسيس مملكة اسرائيل وعاصمتها أورشليم حوالي سنة ١٠٥٠ ق م. هذان النصّان يدلّان على أن التقويم كان يعتمد في الأساس، على أحداث ووقائع السنة الزراعية، كما كان الحال في أرض مصر التي أتوا منها، وكما كان الحال كذلك في أرض كنعان التي استقرّوا فيها. كما أن التقدمات إلى مذابح الربّ، التي ستنتشر في هياكل الربّ في الأرض الجديدة، تتكوّن في الأساس من منتجات الأرض الزراعية، بالإضافة إلى حيوانات المراعي، مع ملاحظة أن النصّ لا يقبل اختلاط خبز القربان مع دمّ الذبيحة.

إن من أهم مواسم الحصاد في السنة العبرية، موسم حصاد الشعير، الذي يأتي في منتصف أبريل، ثم كذلك موسم حصاد القمح الذي يأتي سبعة أسابيع ويوم، بعد موسم حصاد الشعير، أي أنه يأتي في أواخر مايو تقريبا، وقد احتفظت المسيحية بالاحتفال بهذين العيدين، بعد أن أصبح العيد الأول هو ذكرى قيامة يسوع المسيح من الأموات، في النصف الثاني من شهر أبريل، وذكرى صعوده إلى السماء، بعد خمسين يوما من قيامته من الأموات، لذلك يسمّى عيد الخمسين، كما يسمّى كذلك عيد العنصرة. وهذه هي دلالة أكيدة على مدى قوّة الارتباط بين التقليدين المسيحي واليهودي.

أما الإشارة هنا إلى الاحتفال بالخبز غير المتخمّر، المعروف في مصر باسم (البتاو)، فهي تستعيد ذكرى الرحيل المفاجئ لشعب إسرائيل من أرض مصر، وخروجهم إلى الصحراء بهذا النوع من الخبز، الذي أمكنه أن يظلّ معهم فترة من الزمن، أطول مما كان مقدّرا له، لو أن الخبز كان متخمّرا. وقد ارتبطت حادثة الخروج من مصر، بالبداية الجديدة في تاريخ شعب إسرائيل، وهكذا أصبحت البداية الجديدة للعام العبري.

كان النبي موسى قد أقام أول مذبح للربّ، خلال سنوات التيه في صحراء سيناء، في خيمة متنقّلة سمّيت خيمة الاجتماع، أما الكلمة العبرية فهي (مِشكان) ومعناها بالعبرية مكان السكن، وأحيانا كانت تضاف اليها كلمة (مِقداش) ومعناها بالعبرية المقدّس. وقد انتقلت هذه الكلمة إلى اليونانية القديمة، لتصبح الكلمة اليونانية الدالة على هيكل سماوي هي (سكن) (**sakan**).

وبالتالي قد تكون هي نفس الكلمة التي أتت منها في اللغات الأوروبية، الكلمات التي تدلّ على سكن الربّ، وهي (سنك) (**sanak**) وفقا للقاعدة المعروفة في تقديم وتأخير الحروف، مع إضافة الملحق (**tuary**)، لكن اللغات الأوربية تقول لنا، إن الأصل اللاتيني لكلمة قدس أقداس، هي كلمة مقدّس اللاتينية التي تنطق (سانكتوس) (**sanctus**). لكن الهياكل الثابتة لم تظهر في إسرائيل الا بعد الاستقرار في أرض كنعان، الموعودة لشعب إسرائيل.

إذن فقد أقام نبي الله موسى، أول هيكل لعبادة ربّ شعب إسرائيل، أثناء سنوات التيه في برّيّة سيناء، داخل هذه الخيمة المتنقّلة، نظرا لظروف تنقّل الشعب اليهودي المستمر، بين آبار المياه ومناطق الأعشاب، اللازمة لرعي الغنم. لكن هذا الشعب بعد سنوات التيه، التي يقدّر البعض أنها كانت قد بلغت أربعين عاما، انتقل إلى أرض كنعان ليستقرّ فيها، ويبدأ في تغيير نشاطه الاقتصادي الرئيسي، من رعي الغنم إلى فلاحة الأرض.

في سفر إشعياء الاصحاح ٢٧ (١- يعاقب الربّ بسيفه القاسي العظيم لوياثان، الحيّة الهاربة المتلوّية، ويقتل التنّين الذي في البحر. ٢- في ذلك اليوم غنّوا للكرمة المشتهاة. ٣- فأنا أرويها في كل لحظة. ٤- من يهاجمونني بالشوك والحسك، فإني أهجم عليهم جميعا وأحرقهم. ٦- فتزهر إسرائيل، وتنبت فروعا تملأ الأرض كلها بالثمار). ولوياثان هو اسم الحيّة في أساطير رأي شمرة، والشوك والحسك هي من بذر الأشرار، الذين يقاومون بكل وسيلة، أن تثمر محاصيل شعب إسرائيل.

ثم يأتي هذا النصّ في المزمور ٦٥ (٩- تعهّدت الأرض يا ربّ فأخصبتها، فتفيض

الأرض بالمحاصيل. ١٠- تروي خطوط المحراث، وتسوّي روابيها، وتبارك غلّتها. ١١- كلّلت السنة بجودك، وآثار صنائعك تفيض خصبًا. ١٢- تموج مراعي البريّة بالخير، وتكتسي التلال بالبهجة. ١٣- تتغطّى المروج بالقطعان، وتتوشّح الوديان بالحنطة).

٢- سفر النبيّ أيّوب

إن الموضوع الرئيسي الذي يعاود الظهور، في كل الأسفار المعروفة داخل التوراة باسم أسفار الحكمة، المزامير والأمثال والجامعة، هو موضوع الملك الربّ، أي الملك الأرضي الذي يمثّل الربّ، والربّ الذي يحكم هو بنفسه على الأرض. أي أن الملك الجالس على عرش البلاد هو الرئيس التنفيذي لسياسات حكومة الربّ. هذا هو السياق التقليدي الذي يظهر فيه هذا الموضوع.

لذلك فإن أيّوب، عندما يضع إرادة الربّ في موضع التساؤل، ويصيغ سؤاله بالشكل التالي (لماذا يستمر الأبرياء الشرفاء في المعاناة في هذه الحياة؟)، فإن الصورة تهتزّ بين إلى من يوجّه أيّوب هذا السؤال؟ إلى الملك الأرضي أم إلى الملك السماوي؟ وهو ما يعيد إلى الذهن الصورة التقليدية، للعلاقة بين الملك وأفراد شعبه، في الأساطير الكنعانية، إذ يبدو لنا أيّوب في بعض أجزاء سفره، متطاولا على الإرادة الإلهية، كما لو أنه ينسى أنه يتحدّث عن الربّ، أو إلى الربّ، ويظن بدلا من ذلك أنه يتحدّث إلى الملك الأرضي.

أيّوب لا يعرف لماذا يعذّبه الربّ، أنظروا هنا إلى الأسلوب الذي يتحدّث به إلى الربّ، في سفر أيّوب الاصحاح ٧ (١١- لن ألجم فمي، وسأتكلّم من عمق عذاب روحي، وأشكو في مرارة نفسي. ١٢- هل أنا بحرٌ أو تنّين، حتى أقمت عليّ حارسا؟ ١٣- إن قلتُ إن فراشي يعزّيني ومرقدي يزيل كربتي. ١٤- فأنت تروّعني بالأحلام وترهبني بالرؤى. ١٥- لذلك فضّلت الاختناق والموت، على جسدي هذا. ١٦- كرهت حياتي فلن أحيى إلى الأبد، فكُفّ عنّي. ١٧- من هو الإنسان حتى تمتحنه في كل لحظة؟ ١٩- حوّل وجهك عنّي، وكفّ ريثما أبلع ريقي. ٢٠- لماذا جعلتني هدفا لك يا رقيب الناس؟).

في هذا السفر هناك ثلاثة يحاورون أيّوب، مدافعين عن إرادة الربّ، الأول يدعى أليفاز، الذي يحاول أن يذكّر أيّوب، ويذكّر قارئ سفر أيّوب، بأن الحياة ما هي الا سلسلة من المعاناة، ومع ذلك فأن الله هو الذي يسقط المطر على الزرع فينمو، أنظروا إلى سفر أيّوب الاصحاح ٥ (٧- إن الإنسان مولود لمعاناة المتاعب، كما ولدت الجوارح لتحلّق بأجنحتها. ٨- لو كنتُ في مكانك لاتجهت إلى الله وعرضت أمري عليه. ١٠- هو الذي يهطل الغيث على وجه الأرض، فيرسل المياه إلى الحقول). ثم يحاول أليفاز مواساة أيّوب قائلا له (١٧- طوبى للرجل الذي يقوّمه الله، فلا ترفض تأديب القدير).

أما ثاني المحاورين لأيّوب فهو المدعو بِلداد، وفي هذه المحاورة الثانية، يستمر أيّوب في مخاطبة الربّ بنفس الطريقة السابقة، انظروا إلى الاصحاح ٩ (١٣- لا يردّ الله غضبه. ١٤- فكيف إذن يمكنني أن أتخيّر كلماتي في مخاطبته؟ ١٥- فأنا على الرغم من براءتي لا أقدر أن أجيبه. ١٦- حتى لو دعوته واستجاب لي، فأنا لا أصدّق أنه استمع اليّ. ١٧- فهو يكثر جروحي من غير سبب. ١٨- لا يدعني ألتقط أنفاسي بل يشبعني مرائر. ١٩- إن كانت القضية قضية قوة فهو يقول متحدّيا: هأنذا. فمن يحاسبه؟ ٢١- أنا كامل لذا أنا لا أبالي. ٢٢- لذلك قلت: إنه يفني الكامل والشرير على حدٍ سواء. ٢٣- إنه يسخر من بؤس الأبرياء. ٢٤- لقد عهد بالأرض إلى يد الشرير، فإن لم يكن هو الفاعل، فمن يكون؟).

أما أعجب ما في سفر أيوب، فهو ما حدث أثناء حواره مع ثالث محاوريه المدعو إليهو، إذ تدخّل الربّ نفسه في الحوار بينهما، انظروا في الاصحاح ٣٨ الذي يقول فيه الربّ، موجّها الحديث إلى أيّوب (٣- اشدد حقويك كرجل لأسألك فتجيبني. ٤- أين كنتَ أنتَ عندما أسّستُ أنا الأرض؟ أخبرني إن كنتَ ذا حكمة. ٥- من حدّد مقاييسها؟ إن كنتَ حقّا تعرف. ٦- على أي شيء استقرّت قواعدها؟ ومن وضع حجر زاويتها؟ ٨- من حجز البحر ببوّابات؟). هكذا يستمر الربّ في الحديث إلى أيّوب، موجّها اليه السؤال تلو السؤال، عن أفضاله على بني البشر، وهو الحوار الذي يبدو كما لو كان بين ندّين، يعاير فيه أحدهما الآخر.

لكن قبل نهاية السفر، ورغم عودة أيّوب إلى التأكيد على نسيان الله له وإهماله إيّاه مرارا وتكرارا، لكنه في نفس الوقت يبدأ حديثه إلى الله، بالأسلوب التقليدي المتّبع في غيره من أسفار التوراة، بذكر الحجج والبراهين، الدالة على أن كل شيء يتمّ بإرادة الله، في صورة ترنيمة أو أنشودة في مديح الخالق، حيث يأتي لغويّا، اسم الله دائما في صورة اسم الفاعل، واسم الإنسان في صورة اسم المفعول به، في مجموعة من العبارات الإخبارية، التي تصل إلى ذروتها بذكر انتصارات الربّ المتتالية على قوى الشرّ، وهو ما يذكّرنا بترنيمة مشابهة في الأدب البابلي، تذكر انتصار الإله مردوخ على عدوّه التقليدي تيامات.

٣- رؤى نهاية العالم

كثيرا ما تعرّضت مملكة إسرائيل لتهديدات خارجية، من طرف القوى الأكبر منها من بين جيرانها، الا أنها طالما ظلّت قادرة على المقاومة، وعلى البقاء على قيد الحياة، احتفظ الشعب الإسرائيلي بوسائله الخاصة في التعبير عن ذاته، في العبادات والطقوس الدينية، التي كان أفراد هذا الشعب يمارسونها، في معبد الملك سليمان في قلب عاصمتهم مدينة أورشليم.

كان ملكهم الأرضي مستمر في لعب دوره المزدوج أمام كل من الربّ والشعب، فهو بالنسبة إلى شعب إسرائيل بمثابة المدير التنفيذي لأوامر الربّ، أو هو الضامن المؤقّت لتطبيق إرادة الربّ في بقاء هذا الملك حفيد النبي داود، الذي وعده الربّ بالمحافظة على عرشه لأحفاده، ومن ناحية أخرى كان هذا الملك هو الممثّل الرسمي لشعب إسرائيل أمام ربّ إسرائيل.

هكذا استمرّ شعب إسرائيل، في الايمان بربّ إسرائيل، رغم الظروف الصعبة في بعض الأحيان. هكذا استمرّ شعب إسرائيل كذلك في في تطبيق مبادئ العبادات المقدّسة، التي تشير بعلاماتها السريّة في الاحتفالات الدينية، إلى أن الربّ رغم كل شيء، هو الذي يملك هذا العالم، ويديره بإرادته وأوامره، وأن شعوب الأرض كلها لا تملك أي شيء

الا بإذنه.

كانت مملكة إسرائيل الصغيرة الحجم، تشعر بكل ما يدور حولها من صراعات ومعارك عنيفة، بين القوى الأكبر منها حجما، من بين الدول من جيرانها، المحيطة بها من كل اتجاه، فارس وآشور وكنعان ومصر، وهي الدول التي كانت في العام ٦٠٠ ق م، لا تزال على وثنيّتها، ولم تكن قد آمنت بعد بربّ واحد خالق الكلّ. لكن شعب إسرائيل كان يؤمن إيمانا قاطعا، بأن الله قد وضع لهذه الدول العدوانية، حدودا لا يقدرون أن يتعدّوها، حتى لا يتعرّض شعب إسرائيل، شعب الله المختار، لأخطار حقيقية.

لذلك كان شعب إسرائيل يشعر بالأمان، رغم الأخطار المحدقة به، طالما ظلّ يؤمن بالله، ويمارس طاعته بشكل يومي في المعابد، لأن هذا يعني أن هذا الشعب يظلّ في حماية ربّه. لكن عندما سقطت الملكية في إسرائيل، وتعرّض مئات الآلاف من هذا الشعب للسبي في بابل، خلال القرن السادس ق م، شعر الشعب الإسرائيلي بالاضطراب الشديد، لعدم وجود الحماية الإلهية التي افترض وجودها، سواءً في الملك الأرضي، أو في الملك السماوي.

للخروج من هذه الأزمة دارت كتابات أنبياء إسرائيل، خلال تلك القرون الستة حتى مجيء المسيح، حول اقتراب نهاية العالم، فإذا تخلّى الله عن شعبه، فالمعنى الوحيد لهذا الحدث، بالنسبة إلى أنبياء شعب إسرائيل، هو اقتراب نهاية العالم. هكذا دارت هذه الكتابات التي ضمّت لاحقا إلى أسفار التوراة، حول موضوع العلامات الكونية الموجودة على الأرض، وفي المحيط الكوني حول الأرض، والمعاني الباطنية فيها، التي تشير إلى استمرار إرادة الله في السيطرة على العالم.

كانت كتابات هؤلاء الأنبياء، تلحّ على معنى وجود الله خلف ظواهر الأشياء، وجود الله خلف الظلال، فهذا هو الملح الرئيسي في كل الكتابات، التي كانت تشير إلى العلامات الدالة على قرب نهاية العالم، وهو أبرز ما هو موجود في أسفار التوراة، خلال القرون الثلاثة السابقة على مجيء المسيح. من أهم ما كتب عن هذه الرؤى الأخروية،

سفر دانيال من الاصحاح ٧ إلى الاصحاح ١٢، وفي الأسفار الأبوكريف apocrypha، أي الأسفار غير المعترف بها من قبل الكنيسة، نجد سفري النبيّين إينوخ وباروخ، وفي شهادات الآباء الاثني عشر، وهو نوع الكتابات المستمر في الإنجيل، في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، وفي رسائل القدّيس بولس.

إن مجال البحث في هذه الكتابات التي تتحدّث عن نهاية العالم، هو مجال معقّد جدا، بسبب أنه لا يمكننا أن نعثر فيه على صيغة واحدة متفّق عليها، بخصوص ما سيحدث في نهاية العالم. ذلك بسبب أن المؤلّفين لهذه الكتابات، بفرض إخلاصهم في عملهم، وتشبّع كل واحد منهم بالصورة التي استبطنها عن رؤياه، كانوا لا يزالون بشرا، غير قادرين على أن يكشفوا بدقّة أو بشكل تام، عن الأسرار التي وضعها الربّ بين أيديهم. وبالتالي ليست هناك تفاصيل متفق عليها بينهم.

كان المعتقد الشعبي اليهودي، يدعو إلى توقّع أن الربّ سيعفو عن كل أفراد الشعب اليهودي، عند قيامهم من بين الأموات، بمجرّد أن يستمع اليهم وهم ينطقون أمامه بأنهم يهود، يؤمنون بالتوراة وباليوم الآخر، وبالأنبياء موسى وداود وسليمان. الا أن الأنبياء الأكثر حكمة بين أنبياء الشعب اليهودي، مثل النبيّين عاموس وإشعياء، كانوا يرون وجود خطأ جوهري، في النظام الذي يعتقد أن الملك الأرضي هو شخص مقدّس، لا ينبغي أن تردّ له أوامر، وأن هذا الاعتقاد سيؤدّي بالشعب اليهودي، وبغيره من شعوب العالم، التي كانت لا تزال حتى ذلك الوقت على وثنيّتها، إلى العديد من الكوارث المهلكة.

لكل هذه الأسباب فنحن نجد في الكتابات عن نهاية العالم الأشكال المختلفة التالية. ١- الأمل القومي اليهودي في الغفران لكل الشعب اليهودي، وفي إقامة مملكة الربّ الجديدة على الأرض. ٢- انتقام الربّ القاسي من كل أعداء الشعب اليهودي. ٣- الدعوى الأكثر نبلا إلى قيام مملكة الربّ التي تشمل كل البشر، على مستوى كل شعوب العالم، سواء أكانوا من بين أعداء الشعب اليهودي، أو لم يكونوا من بينهم، وأن ذلك سيحدث بعد الهزيمة النهائية لقوى الشر، تحت رئاسة الشيطان الأعظم كبير الشياطين.

هناك كاتب يهودي واحد فقط لا غير هو عِزرا، الذي أشار إلى احتمال أن تُحْبَط وتثبّط آمال الشعب اليهودي، في الخلاص يوم الدينونة دون عقاب، والى احتمال أن يعاني هذا الشعب المختار هو الآخر، من العقاب الإلهي على آثامه وذنوبه، مثلما سيحدث مع بقية شعوب العالم. في القرن الأول الميلادي، كتب يوحنّا أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، سفرا أضيف إلى نهاية كتاب الإنجيل، وسمّي سفر الرؤيا **Revelation**، والكلمة الإنجليزية تعني كشف البصر عن ما أتيحت رؤيته، وفيه يتبنّى يوحنا نفس النظرة العنصرية للشعب اليهودي، الذي سيخلص وحده من الهلاك، دون سائر البشر، لمجرّد أنه شعب الله المختار.

أنظروا إلى نصّ من هذا السفر، في الاصحاح ٢٠ (٧- يطلق الشيطان من سجنه. ٨- فيخرج ليضلّل الأمم، في زوايا الأرض الأربع، ويجمعهم للقتال. ٩- فيحاصرون من كل جانب معسكر القدّيسين في المدينة المحبوبة أورشليم. لكن نارا من السماء تنزل عليهم وتلتهمهم. ١١- ثم رأيت عرشا عظيما هربت السماء والأرض من أمام الجالس عليه. ١٢- ورأيت الأموات كبارا وصغارا واقفين قدّام العرش. ثم فُتِحَ كتاب هو سجل الحياة، الذي يدين الأموات بحسب ما هو مدوّن فيه، كل واحد حسب أعماله. ١٣- فسلّم البحر من فيه من الأموات. وسلّمت هاوية الموتى من فيها من الأموات. ١٥- وكل من لم يجد اسمه مكتوبا في سجل الحياة طرح في بحيرة النار).

ثم في الاصحاح ٢١ (١- ثم رأيت سماءً جديدة وأرضا جديدة لا بحر فيها، لأن السماء والأرض القديمتين قد زالتا. ٢- ثم رأيت أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله، مجهّزة كأنها عروس مزيّنة لعريسها. ٣- وسمعت صوتا هاتفا من العرش: الآن صار هذا هو مسكن الله مع الناس، هو يسكن بينهم، وهم يصيرون شعبا له. وسيمسح كل دمعة من عيونهم. إذ يزول الموت والحزن والصراخ والألم). لاحظوا عبارة (لا بحر فيها)، وفي ذلك إشارة إلى ما كانت كتابات التوراة تعتبره العدو الرئيسي للربّ، والقوة الأساسية المضادة لارادته، أمواج البحر الهادرة الثائرة.

٤- الحكم الألفي للمسيح

من العجيب جدًّا وجود هذا التشابه الضخم، بين سفر حزقيال المكتوب في حوالي سنة ٦٠٠ ق م، وبين سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي تلميذ المسيح، وهو أحد التلاميذ الاثني عشر، المكتوب حول نهاية القرن الأول للميلاد، أي بعد نصّ سفر حزقيال ب٧٠٠ عام، فيما يتعلّق بالصورة التي ستكون عليها نهاية العالم. في النص التالي كان العدو الرئيسي لشعب الله، هم ملوك بابل، الذين سمح لهم الربّ بالانتصار على شعب إسرائيل، عقابا من الربّ لشعب إسرائيل، ثم عاد الربّ فاستردّ شعبه من السبي.

فلننظر إذن فيما قاله حزقيال، في الاصحاح ٣٩ من سفره (١٧- هذا هو ما يعلنه السيّد الرب: أما أنت يا ابن آدم، فقل لكل أصناف الطيور، ولجميع وحوش الربيّة اجتمعي وتعالي، واحتشدي من كل جهة حول ذبيحتي التي أعدّها لكِ، ذبيحة عظيمة أقيمها على جبال إسرائيل، فتأكلين لحما وتشربين دما. ١٨- تأكلين لحم الجبابرة، وترتوين من دماء رؤساء الأرض، وكأنها كباش وحملان وتيوس وعجول. ٢٠- فتشبعين على مائدتي من الخيل وفرسانها، من الجبابرة وكل المحاربين. ٢١- وأجعل مجدي يتجلّى بين الأمم.

٢٢- فيدرك شعبي إسرائيل، أنني أنا الربّ إلههم. ٢٣- وتعلم الأمم أيضا أن سبي إسرائيل، كان عقابا لإسرائيل على إثمهم، لأنهم خانوني فحجبت عنهم وجهي. وأسلمتهم ليد أعدائهم. ٢٥- أما الآن فها أنا أردّ سبي ذرّية يعقوب، وأرحم كل شعب إسرائيل، وأغار على اسمي القدّوس. ٢٦- فينسون عارهم بعد أن أسكنهم أرضهم مطمئنّين).

أما في نص رؤيا يوحنا اللاهوتي، في الاصحاح ١٩ (١٧- رأيت ملاكا واقفا في الشمس، ينادي الطيور الطائرة في وسط السماء بصوت عالٍ قائلًا: هلمّي اجتمعي معا إلى وليمة الله الكبرى. ١٨- تعالي والتهمي لحوم الملوك والقادة والأبطال، والخيول وفرسانها، ولحوم البشر جميعا من أحرار وعبيد، وصغار وكبار). إن العدو الرئيسي في

هذا النصّ ليوحنا، لم يعد ملوك بابل، بل هو الإمبراطورية الرومانية الوثنية، التي كانت تحتلّ فلسطين وتعذّب المسيحيين الأوائل.

أما في القرون التالية، أي في القرون بداية من الثاني الميلادي، سيصبح العدو الرئيسي هو الشيطان، الذي يترجم اسمه إلى اليونانية ديابولوس **diabolos**، وتعني في اليونانية الشخص الذي يوجّه الاتهامات، أي المدّعي العام **general prosecutor**. وهو نفس المعنى المذكور في مواقع عدّة من هذا الكتاب. لكن الصورة التي يظهر بها هذا الشيطان في سفر الرؤيا، تشبه تماما تلك الصورة التي سبق له الظهور بها، في الأساطير البابلية والكنعانية، وهي صورة حيوان خرافي هو التنّين، أو صورة الثعبان الضخم، الذي سيكون مصيره هو أن يلقى به في حفرة بلا قاع.

يتحدّث هذا الاصحاح من سفر الرؤيا، عن ظهور فارس سيقود البشر المؤمنين، ضد الطغاة من قادة العالم، أنظروا إلى بقية الاصحاح ١٩ في سفر الرؤيا، من الأعداد السابقة واللاحقة على العددين المذكورين أعلاه في ١٧ و١٨ (١١- رأيت السماء مفتوحة، وإذا حصان أبيض يسمّى راكبه الصادق الأمين، الذي يقضي ويحارب بالعدل. ١٢- عيناه كلهيب النار، وعلى رأسه أكاليل كثيرة. ١٣- وكان يرتدي ثوبا مغمّسا بالدم، أما اسمه فهو كلمة الله. ١٤- وكان الأجناد الذين في السماء يتبعونه، راكبين خيولا بيضاء، ولابسين كتّانا نقيّا ناصع البياض. ١٥- وكان يَخْرُجُ من فمه سيفٌ حاد يضرب الأمم، ويدوسهم في معصرة شدّة غضب الله. ١٦- وقد كتب على فخذه ملك الملوك وربّ الأرباب).

ثم تأتي مجموعة ألقاب تطلق على الشيطان، تستعيد صورته القديمة، كما تشير إلى اسمه الجديد وهو الوَحْش (١٩- رأيت الوحش وملوك الأرض وجيوشهم، وقد احتشدوا ليحاربوا الفارس الصادق الأمين وجيشه. ٢٠- فقبض على الوحش وعلى النبي الدجّال، وطُرِحَ كلاهما حيّا في بحيرة النار والكبريت المتقدة. ٢١- وقتل السيف الخارج من فمّ الفارس جميع الباقين، وشبعت الطيور كلها من لحومهم).

ويستأنف الكاتب نصّه في الاصحاح ٢٠ (١- ثم رأيت ملاكا نازلا من السماء، وبيده مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة. ٢- قيّد بها التنّين، أي الحيّة القديمة، وهو إبليس أو الشيطان، وسجنه مدّة ألف سنة، ٣- وطرحه في الهاوية وأغلقها عليه. حتى يكفّ عن تضليل الأمم، إلى أن تنقضي الألف سنة).

كان كتبة أسفار نهاية العالم، قد أدركوا حجم عذاب ومعاناة البشرية، عندما أطلق الربّ للشيطان القدرة على تعذيب البشر، وأدركوا كذلك حجم الإحباط الذي شعر به شعب إسرائيل، لتخلّي الربّ عنهم عندما سمح بسبيهم إلى بابل، لذلك تمسّك الجميع بالأمل، في أن يرسل لهم الربّ رسولا، يكون خلاص الجميع على يديه. وقدّروا أن ذلك الحكم لشريعة الربّ، على جميع شعوب العالم سيدوم ألف سنة، وهي المدّة التي تكرّرت الاشارة اليها في جملتين متتاليتين، تأكيدا للرقم المذكور فيها. لكن في الحقيقة فإن بعض المواقع الأخرى، تشير إلى أن المدة هي أربعون عاما، أو سبعون عاما، أو أحيانا هي ٣٦٥ عاما.

٥- الجنّة وجهنّم على الأرض

إن أقامة مملكة الربّ على الأرض، يعبّر عنها في التوراة، بالكلمة العبرية (مِشبات **mishpat**)، التي تعني كذلك الحكم والنظام والقانون والقضاء، وقد أقام الربّ مملكته هذه على الأرض، بعد انتصاره النهائي على قوى الشر، وبعد التبرئة النهائية لكل المخلصين له المؤمنين به، الذين كانوا قد ماتوا كشهداء له، شهدوا له بإيمانهم، خلال مراحل طويلة من وجود مملكة إسرائيل على الأرض، والشهادة هنا قد تكون بمعنى أن تعترف بإيمانك علنا، وقد تكون كذلك بمعنى، أن تضحّي بحياتك ويُسْفَك دمك، في سبيل قيام مملكة الربّ. هذه هي الجنّة على الأرض خلال ألف سنة، لا يسكنها الا الأبرار الأطهار، ولا يوجد فيها أي شرور أو شياطين.

أنظروا إلى ما يقوله سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي بهذا الخصوص في الاصحاح ٢٠، وقد تكون الإشارة إلى التماثيل المقصود بها الأصنام التي عبدها البشر (٤- ثمّ رأيت عروشا

مُنِحَ الجالسون عليها حقّ القضاء. ورأيت نفوس الذين قتلوا في سبيل الشهادة ليسوع، وفي سبيل كلمة الله. الذين رفضوا أن يسجدوا للوحش ولتماثيله. الذين رفضوا علامته على أيديهم وجباههم. وقد عادوا إلى الحياة، وملكوا مع المسيح ألف سنة. ٥- هذه هي القيامة الأولى، أما بقية الأموات، فلا يعودون إلى الحياة، الا بعد انقضاء مدّة الألف سنة. ٦- ما أسعد وأقدس من كان لهم نصيب في القيامة الأولى، فلن يكون للموت الثاني سلطة عليهم).

بعد الألف سنة، يطلق سراح الشيطان من جديد، فيعيد جمع قواه بين ياجوج وماجوج، في أقصى أطراف الأرض المعمورة، ويستعد لما يعتقد أنه الصراع النهائي، لكن الربّ لا يمهله، بل يسقط عليه من جديد نارا من السماء، ليحفظ مملكته الأرضية من شرور الشيطان. يلقى بالشيطان من جديد إلى مصيره المظلم، في بحيرة النار التي بلا قاع، حيث يتعذّب هو والوحش والنبي الكذّاب إلى الأبد. من المفيد معرفة أن كلمة جُهنّم، هو اسم مقلب النفايات، الذي كان يقع إلى الجنوب الغربي من أورشليم **Gehinnom**.

هناك نسخة أخرى مما سيحدث في نهاية العالم، إذ إن الألف سنة من نعيم الربّ على الأرض، موعودٌ بها فقط لأصحاب الفضائل، أما أصحاب الرذائل فهو يعودون إلى الحياة فقط، حتى يتمكن الربّ من إلقائهم من جديد في حفرة النار، هكذا دواليك إلى ما لا نهاية. عذاب مقيم. يعدّد يوحنا في رؤياه أصحاب الرذائل في اصحاح ٢١ (٨- الجبناء وغير المؤمنين والفاسدون والقاتلون والزناة والمتصلون بالشياطين وعبدة الأصنام وجميع الدجّالين، كل هؤلاء مصيرهم إلى البحيرة المتقدة بالنار والكبريت، الذي هو الموت مرة أخرى).

أما شعب الربّ من الفضلاء، فقد استقرّوا في سلام مدينتهم أورشليم الجديدة، رؤيا ٢١ (١٠- رأيت المدينة المقدّسة أورشليم، نازلة من السماء من عند الله. ١١- ولها مجد الله، وهي تتلألأ بالأحجار الكريمة، ١٢- ولها سور عالٍ ضخم، واثنا عشر بابا يحرسها إثنا عشر ملاكا، وقد كتبت عليها أسماء أسباط إسرائيل الاثني عشر. ١٤- ويقوم

سور المدينة على اثنتي عشر دعامة، كتبت عليها أسمار رسل الحَمَل الاثني عشر). رقم ١٢ في المرة الأولى، يدلّ على أسباط يهوذا، وهي إشارة إلى أولاد يعقوب الاثني عشر، ورقم ١٢ في المرة الثانية، يدلّ على تلاميذ المسيح الاثني عشر. هكذا تمّ هنا الربط بين العهدين القديم (التوراة) والجديد (الإنجيل).

أما داخل مدينة أورشليم الجديدة فهو الجنّة الأرضية، وها هو ذا نصّ من التوراة قد يكون هو الذي أوحى إلى يوحنّا بنصّ رؤياه، في سفر إشعياء الاصحاح ٥٤، في وصف أورشليم الجديدة (١١- أرسي أساساتك بالياقوت الأزرق، وأصنع شرفاتك وأبوابك من حجارة بهرمان، وكل أسوارك من حجارة كريمة. ١٤- بالبرّ يتمّ ترسيخك، وتكونين بعيدة عن كل ضيق، فلن تخافي ولن ترتعبي، لأن الرعب لن يقترب منك).

وصف المدينة الجنّة سبق له أن جاء بنفس هذا الأسلوب، في ما يتعلّق بمسألة التزيين بالأحجار الكريمة، في كل تراث السومريين والعموريين والأشوريين، وفي الأساطير الكنعانية يجلس كبير الآلهة العليّ القدير، الذي كان اسمه عِلي **Eli**، على عرشه في جنّة عدن، بالقرب من شجرة الحياة، على رأس مصدر المياه، الذي تنبع منه كل المياه، التي تغذّي الأنهار الأربعة الكبرى.

مزمور ٤٦ العدد ٤ (تفرح مدينة الله حيث يسكن العليّ بنهر دائم الجريان). حزقيال ٤٧ العدد ١ (المياه تتدفّق من مدخل هيكل الربّ، من تحت عتبته نحو الشرق). يوئيل ٣ العدد ١٨ (تقطر الجبال خمرة عذبة، وتفيض التلال باللبن، وجميع ينابيع يهوذا تتدفّق ماءً، ويخرج ينبوع من هيكل الربّ يروي الوادي).

ثم نلاحظ اتفّاق أول أسفار التوراة، وأقدمها على الاطلاق، وهو سفر التكوين، مع آخر أسفار الإنجيل، وأحدثها على الاطلاق، وهو سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، في وصف أنهار الجنّة الأرضية أورشليم الجديدة وأشجارها. تكوين ٢ العدد ١٠ (وكان نهر يجري في عدن ليسقي الجنّة، وما يلبث أن ينقسم هناك إلى أربعة أنهر: سيحون وجيحون ودجلة والفرات).

رؤيا ٢٢ العددين ١ و٢ (١- ثم أراني الملاك نهر ماء الحياة صافيا كالبلّور، ينبع من عرش الله والحَمَل. ٢- ويخترق ساحة المدينة، وعلى ضفّتيه أشجار الحياة، تثمر اثنتي عشرة مرة، كل شهر مرّة. وأوراقها دواء يشفي الأمم). والمقصود بالحَمَل في نصوص الإنجيل هو المسيح، الذي حمل عن البشر أجمعين خطاياهم.

٦- أفعال الشرّير

سبق أن ذكرنا أن الشيطان كان قد ظهر لأول مرّة في أسفار التوراة، في السفر الذي يحمل اسم النبيّ أيّوب، في القرن الثامن ق م، وقد أرسله الربّ في مهمّة تدمير أيّوب. ثم اختفى الشيطان بعد ذلك من الأسفار التوراتية بين القرنين الثامن والثالث ق م، إذ لم يكن ظهوره مناسبا في تلك الفترة الملكية، بين سنتي ١٠٠٠ ق م و٥٨٦ ق م، أي بين تأسيس مملكة داود، وبين بداية السبي البابلي، ولا حتى في زمن السبي البابلي، الذي استمر حوالي ثلاثمائة عام، لأن الفترة الملكية لم تكن تسمح بظهور كيان يعارض الربّ، إلى هذا الحدّ الذي ظهر به الشيطان لاحقا، كما أن فترة السبي البابلي، كان يكفيها ما كان فيها من هموم، لا يحقّ لأنبياء فترة السبي أن يضيفوا اليها همّ وجود الشيطان.

ثم عاد الشيطان إلى الظهور بهذا الاسم في سفر (أخبار الأيام الأول)، الذي يروي علينا حكاية حدثت في زمن الملك داود، فرغم أن هذا السفر يحكي عن الملكية، في زمن بداياتها في القرن ١٠ ق م، إلا أن اسم الشيطان يذكر هنا في هذا السفر عند كتابته، أو عند صياغته النهائية في القرن الثالث ق م، بعد العودة من السبي البابلي، مما يعتبره بعض مؤرّخي الديانات القديمة، دلالة عى قدر من التصالح بين الديانة اليهودية، التي تعبد إلهًا واحدًا فقط **monotheism**، وبين الدينات الوثنية في منطقة الشرق الأدنى القديم، التي كانت تعبد آلهة متعدّدة **polytheism**، ومن المثير للاهتمام هنا أن نذكر هذه القصّة بأكملها، لما فيها من فائدة تخصّ موضوعنا.

من سفر أخبار الأيام الأول الاصحاح ٢١ (١- وتآمر الشيطان ضدّ إسرائيل، فأغرى الملك داود بإحصاء الشعب. ٢- فأمر داود وزيره يوآب ورؤساء إسرائيل قائلًا: اذهبوا

وعدّوا الشعب، وارفعوا تقريركم اليّ فأعلم كم عدده. ٣- فأجاب يوآب معترضا: ليزد الربّ شعبه مئة ضعف، لماذا يطلب سيدي هذا؟ ولماذا يجلب إثما على إسرائيل؟ ٤- لكن كلمة الملك غلبت على اعتراض يوآب. ٧- وإذ كان إجراء هذا الإحصاء ممقوتا في عيني الله، عاقب الله الإسرائيليين. ١٠- هذا هو ما يقوله الربّ:

ها أنا أعرض عليك يا داود ثلاثة أمور، اختر واحدا منها فأجريه عليك. ١٢- إما ثلاث سنين مجاعة، أو ثلاثة أشهر يطاردك فيها أعداؤك، وسيف أعدائك يدركك، وإما ثلاثة أيام يتسلّط فيها عليك سيف الربّ، فيتفشّى الوباء في الأرض، إذ يجول ملاك الربّ يدمّر في جميع أرجاء إسرائيل. ١٤- فأرسل الربّ وباءً تفشّى في أرض إسرائيل، مات فيه سبعون ألف رجل. ١٥- وأمر الربّ ملاكه بإهلاك أورشليم. ثم أشفق الربّ عليها بسبب ما حلّ بمدينته المحبوبة من شرور، فقال للملاك المهلك: كُفّ يدك عنها. وكان الملاك واقفا لحظتها عند مخزن حبوب أرنان اليبوسي).

ماذا نستخلص من هذه القصّة؟ ١- أن دور الشيطان اقتصر على إغواء داود بإجراء الاحصاء. ٢- أن هذا الاجراء مكروه عند الربّ، وفقا للاعتقاد الشعبي، السائد في دول المنطقة حتى الآن، وهو أن عدّ الأشياء يقلل بركتها. ٣- لم يقل الربّ أي شيء لداود بلا تركه في غيّه ثم قرّر معاقبته. ٤- الا أن الربّ في الحقيقة لم يعاقب داود بل عاقب شعبه المختار بسبب خطأ لم يرتكبه الشعب بل ارتكبه الملك، لو اعتبرنا أن إحصاء السكّان هو خطأ. ٥- أن من نفّذ العقاب هو الملاك المهلك! ٦- لماذا قرّر الملاك أن يتوقّف عند مخزن حبوب أرنان اليبوسي فلا يدمّره؟ هذه الحكاية جديرة بقصص الأساطير، مثل كتاب (أساطير كانتربري)، أو بالحكايات الشعبية مثل كتاب (ألف ليلة وليلة)، وليس بكتاب سماوي.

يحقّ لنا أن نتساءل كثيرا، إذا كان اله الخير، يرتكب كل هذه الشرور، في حق شعبه المختار، البريء من الإثم الذي لم يرتكبه هو، بل ارتكبه ملكه، فماذا كان ممكنا لاله الشر أن يفعل؟ هناك نصّ آخر يؤكّد لنا بما لا يدع أي مجال للشك، أن صورة الربّ في التوراة،

لا تختلف عن صور الأرباب الآخرين في الديانات الوثنية، وفي معتقدات القبائل البدائية. أنظروا في هذا النص من سفر التثنية الاصحاح ٣٢، المعروف باسم (أنشودة موسى)، فالسفر يقول إن موسى هو كاتب هذا النصّ

(٨- عندما قسّم العليّ القدير الميراث على الأمم، أقام حدودا للشعوب لا تتعدّاها، لصالح شعبه اسرائيل. ٩- لأن نصيب الربّ هو شعبه، وأبناء يعقوب قرعة ميراثه. ١٠- وإذ وجدهم في أرض قفر وفي خلاء موحش. فأحاط بهم ورعاهم وصانهم كحدقة عينه. ١٢- هكذا الربّ وحده قاد شعبه، وليس معه اله غريب. ١٣- أصعدهم على هضاب الأرض فأكلوا ثمار الصحراء، وغذّاهم بعسل وزيت وزبدة البقر ولبن الغنم وشحم خراف وتيوس، وأفضل لبّ الحنطة، وسقاهم دمّ العنب القاني. ١٥- فسمن بنو إسرائيل وغلظوا واكتسوا شحمًا. فرفضوا الإله صانعهم، وتنكّروا لصخرة خلاصهم).

ماذا يمكننا أن نستخلص من هذا النصّ؟ ١- أن ربّ إسرائيل مثل الأب الذي قبل موته يوزّع ميراثه على أبنائه. ٢- أن الأرباب فيما بينهم يتفّقون، على توزيع أنصبتهم من شعوب الأرض فيما بينهم، وكان نصيب ربّ إسرائيل أن يحصل على شعب إسرائيل. ٣- عثر الربّ على هذا الشعب بالصدفة، في أرض صحراوية جافة. ٤- يقول النص إن الربّ رعاهم وصانهم، رغم كل الشرور التي ارتكبها الربّ في حقهم (شعبي وأنا حرّ فيه). ٥- للربّ حدقة عين. ٦- من أعجب التعبيرات أن الربّ وحده قاد شعبه، كأن الربّ وحده، لم يكن قادرا في الأصل على قيادة شعبه، بل كان يحتاج في ذلك، إلى اله آخر ليتعاون معه في إنجاز هذه المهمّة. ٧- يقوم الربّ بعد ذلك بتسمين شعب إسرائيل، كما يفعل صاحب مزرعة بعجوله ومواشيه.

سبقت الإشارة إلى أن صورة الشيطان في شكل تنّين، أو في شكل ثعبان، كانت قد جاءت من نصوص رأس شمرة الكنعانية، ثم ظهر بهذا الشكل الثعباني، في الاصحاحات الأولى من سفر التكوين أول أسفار التوراة، وهو الثعبان الذي أغوى حوّاء، وأدّى إلى طردها مع آدم من الجنّة. بشكل عام ففي خلال القرون الأولى من تاريخ مملكة إسرائيل،

كانت آلهة الشعوب الوثنية، وملوك الأمم الأخرى الأرضية، المعادية لشعب إسرائيل، هم ممثلو قوى الشر والفوضى في العالم، أو هم الشياطين.

أنظروا إلى ما يقوله النبي إشعياء في الاصحاح ٢٤ من السفر الذي يحمل اسمه (٢١- في يوم انتقام الربّ، يعاقب الملائكة الساقطين من السماء، والملوك المتغطرسين على الأرض. ٢٢- فيجمعون معا كما يجمع الأسرى في الجبّ، ويزجّ بهم في سجن مغلق، ويتمّ عقابهم). قد تكون تلك هي الفقرة المتسبّبة، في اعتبار أن الشيطان، هو ملاك سابق سقط من السماء، عندما استعدى غليه الربّ فطرده من معيّته، أو ربّما هي الفقرة التي تأتي، لأول مرة في أسفار التوراة، في سفر إشعياء، في وصف سقوط ملك بابل، وحيث إن ملك بابل المعادي لشعب اسرائيل، هو الشيطان في نظر شعب إسرائيل، فقد استعملت هذه الفقرة بعد ذلك، دليلا على حادث سقوط الشيطان، وطرده من أمام رحمة الربّ.

أما عبارة الملوك المتغطرسين، فتأتي في إشعياء الاصحاح ١٤ (٤- تسخرون من ملك بابل، قائلين: كيف استكان الظالم، وكيف خمدت غضبته المتعجرفة؟ ٥- فقد حطّم الربّ عصا المنافق، وصولجان المتسلّطين. ٩- ثارت الهاوية من أسفل لاستقبالك عند قدومك). بالإضافة إلى شيء آخر، في الاصحاح ١٤ من سفر إشعياء (١٢- كيف هويتِ من السماء يا زهرة يا ابنة الصباح؟ ١٣- فقد قلتَ في قلبك: إني أرتقي إلى السماء، وأرفع عرشي فوق كواكب الله، ١٤- أرتقي فوق السحاب، وأصبح مثل العليّ).

هذا النصّ المتعلّق بسقوط الشيطان ملك بابل، مكتوب ين القرنين ٥ و٤ ق م، وهنا تنبغي الإشارة إلى أن تأثير، أسطورة سقوط عشتار الكنعانية في رأس شمرة، كان لا يزال مستمرا، على من كتب هذا السفر وأضافه إلى أسفار التوراة، إذ إن عبارة (زهرة بنت الصباح) هي أحد ألقاب عشتار، وهي كذلك التي أدّت إلى تسمية هذا الكوكب المتألّق في سماء الفجر، باسم كوكب الزهرة.

٧- تحريم عبادة الأصنام

مرّت نصوص التوراة بمراحل مختلفة، فيما يتعلّق بنظرتها إلى آلهة الشعوب الأخرى

المحيطة بها، في بابل وآشور وكنعان، ففي مزمور ٨٢ وهو لمن يدعى آساف، في العدد ١ نقرأ (الله يترأس ساحة قضائه، وعلى القضاة يُصْدِر حكمه). هذه الآية تلخّص وجهة النظر التي التزمتها نصوص التوراة، في الوقت المبكّر من تاريخ دولة إسرائيل، إذ اعتبرت آلهة الشعوب الأخرى بمثابة قضاة، يجلسون في مجمع قضاة، أو تجمّع آلهة حول كبيرهم، أو في اجتماع دائم حول رئيسهم، وهذا الرئيس هو ربّ شعب إسرائيل، الذي يصدر أحكامه على غيره من القضاة، لأنه يعتبرهم أقلّ كفاءة منه، وأقل قدرة منه على إقامة العدل في الأرض، وأنهم يظلمون الناس.

لكن هناك في مزمور لاحق هو رقم ١٣٥، الإدانة التامة لآلهة الشعوب الأخرى، حيث تظهر بوضوح كلمة أصنام، التي تصمهم جميعا، فيما عدا ربّ إسرائيل، بهذه الوصمة. كما نلاحظ أن شعب إسرائيل لا يعبد الربّ الا بقدر ما يعطيه هذا الرب من أراضي وممتلكات الشعوب الأخرى، أرض إسرائيل العظمى في الشام والعراق، كأن العبادة هي بشرط أن يقدّم الربّ للشعب هذه العطايا، فإن لم يقدّمها فإنهم لن يعبدوه، وهو معنى يتكرّر مئات المرّات في نصوص التوراة المختلفة، عبر قرون طويلة.

(٥- لقد عرفتُ أن الربّ عظيم، وأن سيّدنا أسمى من جميع من هم غيره من الآلهة. ١٠- ضرب أمما عظيمة وقتل ملوكا مقتدرين. ١١- ملك الأموريين، وجميع ممالك كنعان. ١٢- ووهب أرضهم ميراثا لإسرائيل شعبه. ١٣- اسمك خالد يا ربّ من جيل إلى جيل. ١٤- لأن الربّ يحاكم شعبه بعدل، ويعطف على عبيده. ١٥- أما أصنام الأمم الأخرى، فهي من فضّة وذهب، صنعة أيدي الناس. ١٦- لها أفواه لكنها لا تتكلم، وعيون لكنها لا ترى. ١٧- وآذان ولكنها لا تسمع، وليس في أفواهها نسمة حياة. ١٨- مثلها يصير صانعوها، وكل من يتوكّل عليها).

ثم يأتي نصٌ طويل، في سفر لاحق زمنيا على سفر المزامير، الذي كتبت أغلب نصوصه في القرن العاشر ق م، وهو سفر إشعياء الذي كتبت نصوصه حول عام ٧٢٠ ق م، ففي الاصحاح ٤٤ يقول (٦- هذا هو ما يقوله الربّ القدير ملك إسرائيل: أنا هو الأول

والآخر، ولا اله غيري. ٧- من مثلي؟ ٨- هل هناك اله غيري؟ هل هناك صخرة أخرى لا علم لي بوجودها؟ ٩- كل صانعي التماثيل لا جدوى منهم. وهم شهود عليها أنها لا تبصر ولا تعلم، لكي يخزوا. ١٠- من يصوّر صنما أو يسبك تمثالا لا ترتجى منه فائدة. ١١- هذا وأمثاله يلحق بهم العار. لأن الصنّاع ليسوا سوى بشر.

١٢- يصنع الحدّاد فأسا بعد أن يقلّبها في النار، ويشكّلها بذراعه. ١٣- ثم يأتي نجّار فيتناول قطعة خشب ويصنع بالفأس تمثالا. يصنع منها صورة إنسان ساحر الجمال، لينصّبه صنما في منزله. ١٤- يقطع شجرة أرز أو سنديانا أو بلّوطا. ١٥- ثم تصبح وقودا لنيران الناس، يأخذ بعضا منها ليدفئ نفسه، أو ينحت منها الها يعبده، يصنع منه تمثالا ثم يخرّ أمامه ساجدا. ١٧- مبتهلا اليه قائلًا: انقذني أنت الهي. ١٨- إنهم لا يفقهون ولا يدركون، إذ غُشِيَ على عيونهم فلا يبصرون، وأغلق على قلوبهم فلا يفهمون. ٢٠- لكأنه يجري وراء سراب، ويعجز عن الاعتراف أن الصنم الذي يمسكه بيده هو محض ضلال).

٨- الملاك ميخائيل

كما سبق أن رأينا في أحد نصوص التوراة في سفر أيّوب، أن الشيطان كان قد تسلّل إلى مجلس الرب، واقترح عليه تجربة مدى إخلاص وصبر عبده أيّوب، بضربات عديدة متتالية، من فقد الثروة والصحّة والأبناء، فوافق الربّ شيطانه، الذي كان لا يزال يعمل تحت إمرة الربّ وسيطرته، إذ يمكننا هنا أن نعتبر الشيطان، بمثابة المدّعي العام الذي يرسله الربّ لمحاسبة البشر. الا أن الشيطان يجد أمامه فيما بعد، قوّة أخرى مساوية له في الحجم، تعمل لصالح البشر، وكانت واحدة من المرات الأولى، التي ذكر فيها اسم الملاك ميخائيل، كقوّة تعمل للخير ولصالح البشر، في مواجهة قوّة الشيطان الذي سيتحول تدريجيا إلى صورة للشرّ المطلق، هي في سفر دانيال، الاصحاح العاشر.

(١- في السنة الثالثة من حكم كورش ملك فارس. ٢- في ذلك الوقت أنا دانيال قضيت ثلاثة أسابيع في النوح، ٣- لم آكل فيها طعاما شهيّا، ولم يدخل فمي لحم أو خمر. ٤- وبينما كنتُ إلى جوار نهر دجلة الكبير، ٥- تطلّعتُ حولي فإذا برجل مرتدِ

كتّانا، ويضع حول وسطه حزاما من ذهب نقي، ٦- وجسمه كالزبرجد، ووجهه يتألّق كالبرق، وعيناه تتوهّجان كمصباحي نار، وذراعاه وساقاه لامعة كالنحاس المصقول، وأصداء كلماته كجلبة جمهور. ٧- كنت وحدي أنا دانيال الذي شاهدت الرؤيا، أما الرجال الذين كانوا معي فلم يروا شيئا. إنما هيمنت عليهم رِعدة عظيمة، فهربوا مختبئين.

٨- بقيت أنا وحدي أشهد الرؤيا العظيمة، وقد تلاشت مني القوّة. ٩- وما إن سمعت أصداء كلماته حتى سقطت على الأرض، يغشاني سبات عميق. ١٠- وإذا بيد لمستني وأقامتني، ١١- وقال لي: يا دانيال، أيها الرجل المحبوب افهم الكلام الذي أخاطبك به، وقِف على رجليك لأنني قد أرسلت اليك. وعندما قال لي هذا الكلام نهضت مرتعدا. ١٢- فقال لي: لا تخف يا دانيال فقد سُمِعَت تضرّعاتك. وها أنا قد جئتُ تلبيةً لها. ١٣- كان هذا هو ميخائيل، أحد كبار الرؤساء، الذي أقبل لمعونتي. ١٥- فلما خاطبني بهذا الكلام أطرقت بوجهي إلى الأرض. ١٦- وإذا بشبه بني البشر لمس شفتيّ، ١٩- قال لي: لا تخف بل تقوّ وتشجّع، وحالما كلّمني دبّت فيّ القوّة).

إن فكرة وجود قوتّين متضادتين هما الشر والخير، قد ظهرت في كل أساطير الحضارات القديمة، فلو اكتفينا بأساطير الشرق الأوسط، لوجدنا أوزوريس الصالح وسِت الطالح، الأخوين الشقيقين، في مصر القديمة، ولوجدنا هناك كذلك الأخوين غير الشقيقين، حورس الصالح وأنوبيس الطالح، الواقفين على ميزان الأعمال في يوم الحساب الأخير، فيضع أحدهما أعمال الخير على كفّة ميزان، ويضع الآخر أعمال الشرّ، على الكفة الأخرى.

لكن الأقرب زمنيا إلى سفر دانيال المكتوب في القرن السادس ق م، هي أساطير فارس القديمة، حيث أهورامازدا وأنجرامينيو، يلعبان هذين الدورين. ثم ظهرت في منطقة البحر الميّت، فكرة أن الشيطان هو ملاك سابق تمرّد على الربّ، في حوالي القرن الثاني ق م.

أما أهم ما قام به الملاك ميخائيل، فلم يأتِ في أسفار التوراة، بل جاء في آخر أسفار الانجيل، سفر الرؤيا الذي يتحدث اصحاحه قبل الأخير، عن المعركة النهائية بين الخير

والشر، وإذ يترفّع ربّ إسرائيل عن قتال الشيطان بنفسه، فهو يكلّف الملاك ميخائيل رئيس ملائكته بذلك. الاصحاح ٢٠

(٧- نشبت حرب في السماء، إذ هاجم ميخائيل وملائكته التنّين وملائكته. ٨- وحارب التنّين وملائكته، لكنهم انهزموا، ولم يبق لهم مكان في السماء. ٩- إذ طرحوا إلى الأرض. هذا التنّين العظيم هو الحيّة القديمة، ويسمّى أيضا إبليس أو الشيطان، وهو الذي سيضلّل العالم كله. ١٢- افرحي أيتها السماوات، وافرحوا يا أهلها، والويل لكم يا أهل الأرض والبحر، لأن إبليس هبط عليكم، وهو في شدّة الغضب). هذا النصّ يقول لنا إن التنّين هو نفسه الشيطان وهو نفسه إبليس.

الفصل الخامس

المسيح ملك إسرائيل

١- المَلِك في مجتمع مقدّس

في دراسات علم الأديان المقارنة، غالبا ما يكون من السهل على الباحث، التأكيد على النقاط المشتركة بين الديانات، والقدرة على استبعاد الاختلافات المحلية بين تلك الديانات، وهو ما أدّى في النهاية إلى الخطأ الذي وقعت فيه أغلب هذه الدراسات، فيما يتعلّق بوضعية ووظيفة ملك البلد، في كل بلاد الشرق الأدنى القديم، خاصة في حالة مملكة إسرائيل، التي كانت تجربتها مختلفة إلى حد ما، عن تجارب الأمم المحيطة بها، بسبب وجود اختلافات ثقافية وروحية بينها، وبالتالي فإن محاولة دمج تجربة مملكة إسرائيل، في إطار عام واحد، يضمّها مع غيرها من الأمم المحيطة بها، تتحدّى كل الجهود المبذولة.

ففي حالة مملكة إسرائيل، بدأ تاريخها كمجتمع ديني، يقوم على الترابط بين أبناء وأحفاد شخص واحد، هو يعقوب ابن اسحق ابن ابراهيم، الذي غيّر الربّ اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، وبارك له في ذرّيته فوهبه اثني عشر ابنا، هم الأبناء المؤسّسون لأسباط أو بطون مملكة إسرائيل الاثني عشر. بعد خروج شعب إسرائيل من مصر،

عاشت ذرّية يعقوب، في حالة من الحرمان الاجتماعي والاقتصادي، وكانوا يدركون أنهم يعتمدون في حياتهم بقدر متزايد، على حماية ورحمة ومساعدة قوّة إلهية مقدّسة، وبالتالي يشعرون بأنهم يدينون لها بالكثير.

وحيث إن هذه القوّة المقدّسة، وهبت عطاياها للبطون الاثني عشر بالتساوي، فقد ساعد هذا على بقاء هذه البطون الاثني عشر، مترابطة فيما بينها. ولهذا فإن توقيع هذه القوّة الإلهية، على العهد الذي قطعته على نفسها، أمام النبيّ موسى فوق جبل التجلّي، جعل الشعب اليهودي الناشئ، يلتزم هو الآخر بواجباته الدينية تجاه الهه، وواجبات أفراده الاجتماعية تجاه بعضهم البعض، طالما ظل هذا الإله ملتزما من جهته، بتوفير حقوق هذا الشعب في احتياجاته الأساسية من مسكن ومأكل ومشرب.

وفي مثل تلك المجتمعات القبلية البدائية الأولى، كانت السلطة توهب إلى الأشخاص، الذين يمكنهم تقديم العلامات المادية المرئية والملموسة، الدالة على قدراتهم الخاصة في استبطان واستبصار إرادة الربّ، مثلما كانت هي حالة مرحلة الملوك الأنبياء داود وسليمان، أو إلى الأشخاص الذين يقدرون على الاستجابة لدعوة الربّ، والالتزام التام بتحقيق أغراض الربّ، مثلما كانت هي حالة مرحلة الملوك القضاة.

كانت هذه التجارب في التواصل مع الربّ، ينظر اليها على أنها تلبّس لروح الربّ، أو على أنها امتلاك لروح الربّ، بواسطة الشخص المتحدّث باسم الربّ. وتتأكّد أصالة وصحّة هذا الاعتقاد في قوّة المتحدّث باسم الربّ، إذا تمكّن هذا الشخص المتقمّص لروح الربّ، من تحقيق انتصارات عسكرية، على أعداء شعب إسرائيل، من ملوك الدول المجاورة لمملكة إسرائيل. كانت هذه هي حالة (شاول)، الذي اعترف به كأوّل ملك لمملكة إسرائيل، وكانت هذه هي أيضا حالة (داود)، الملك الثاني على مملكة إسرائيل.

اعترف شعب إسرائيل بداود ملكا رسميا، أولا على منطقة يهوذا، الواقعة في الجزء الجنوبي من المملكة، ثم ثانيا بعد ذلك، على كل أنحاء مملكة إسرائيل، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. يروي لنا هذه القصّة الاصحاح الثاني من سفر صموئيل

الثاني (١- استشار داود الربّ سائلا: هل أتوجّه إلى احدى مدن يهوذا؟ فأجابه الربّ: اذهب. فسأل: إلى أيّة مدينة؟ فأجابه: إلى حبرون (الجليل). ٢- فانطلق داود إلى هناك بصحبة زوجتيه، ومعه رجاله وأهل بيوتهم، فأقاموا في مدن حبرون. ٤- ثم جاء رجال يهوذا فنصّبوا داود ملكا عليهم).

ثم في الاصحاح ٥ (١- وتوافد جميع رؤساء أسباط إسرائيل، إلى داود في حبرون قائلين: إننا لحمك وعظمك، ٢- وعندما كان شاول ملكا علينا، كنت أنت قائدنا في المعارك، وقد قال الربّ لك: أنت ترعى شعبي إسرائيل وتتولّى حكمه. ٣- وفي حضور شيوخ إسرائيل في حبرون، قطع الملك داود معهم عهدا أمام الربّ، فنصّبوه ملكا على إسرائيل. ٤- كان داود في الثلاثين من عمره حين توّج ملكا، ٥- واستمرّ ملكه أربعين سنة، منها سبعُ سنوات مَلَكَ على يهوذا في حبرون، وثلاثٌ وثلاثون سنة ملك فيها في أورشليم، على جميع أسباط إسرائيل، بما فيها سِبْط يهوذا).

كان التقليد الخاص بالتهليل أو بالتصويت الشفهي العلني، بواسطة شيوخ وحكماء القبائل والبطون، أو بواسطة أعضاء النخبة الدينية المقدّسة، التي ستعرف لاحقا باسم المَجَمَع المقدّس، عند اتخاذ القرار بتنصيب ملك على عرش إسرائيل، بدلا من استعمال طريقة التصويت المكتوب على قصاصات ورقية وإحصاء عددها، كما ستفعل روما لاحقا، استمر هو التقليد الشفهي المتبّع في حالة تنصيب ملوك إسرائيل، خاصة في ممالك شمال إسرائيل، لفترة طويلة، بشرط أن يحدث بعد ذلك وعلى الفور، أن ينزل من السماء نصّ توراتي، يؤيّد اختيار هذا الشخص ملكا على إسرائيل، ويؤكّد للشعب موافقة السماء على هذا الاختيار.

هذا هو بالضبط ما كان يحدث في كل الحضارات القديمة، في مصر وبابل وآشور وكنعان، من اتفّاق بين الملوك وبين كهنة الديانات المختلفة، على محاولة خداع الشعوب، بادّعاء أن النصوص السماوية، التي تنزل إلى الأرض عن طريق الرؤى والنبوّات، مثلما كان الحال مع يربعام **Jeroboam**، هي التي تختار ملوكا على هذه الشعوب، وهي التي تتخذ

القرارات المصيرية، مثل قرار الدخول في حرب، بدلا من الملوك الأرضيين، وبالتالي فكلما ذكر كهنة الديانات المختلفة، أن النصّ سماويّ مقدّس، لا يقبل أي تحريف أو تشكيك، امتنع الشعب عن الاعتراض عليه، والا تعرّض الشخص المعترض على القرار السماوي لتهمة الكفر.

من هنا بدأ استغلال ملوك إسرائيل، للنصوص التي يدّعون أنها توراتية، لفرض إرادة الملوك على الشعب. وقد استمرّت طريقة التهليل والتصويت الشفهي، أسلوبا في اختيار ملوك إسرائيل، طوال الفترة الملكية الممتدّة بين سنة ١٠٠٠ ق م، التي يعتقد أن شاول أول ملوك إسرائيل، قد تمّ تنصيبه فيها ملكا، حتى سنة ٥٨٦ ق م، وهي سنة السبي البابلي، باستثناء فترة قصيرة، بين ٨٨٥ ق م، و٨٤١ ق م، بسبب محاول ملوك تلك الفترة توريث كراسي العرش إلى أبنائهم، وكذلك لفترة أطول، بين حوالي سنة ٧٠٠ ق م، وبين نهاية الفترة الملكية بالسبي البابلي، عندما كان ارتقاء العرش قد أصبح تقريبا، مقتصرا على السياسيين من نهّازي الفرص، بمساندة من ملوك أجانب، خاصة من بين ملوك آشور.

أما في ممالك جنوب إسرائيل، التي حملت غالبا اسم مملكة يهوذا، واستمرّ حكّامها يُختارون، من بين الأجيال المتتالية لبيت داود وسليمان، وكانت عاصمتها هي أورشليم، فقد ظهرت قوّة جديدة، هي الروح الديمقراطية التي تميّز بها كبار هذا المجتمع، الذين لعبوا دورا أقرب إلى الدور، الذي تلعبه الآن مجالس الشيوخ أو الشورى، وكانوا يقومون بالتصويت على القرارات الملكية، إمّا بالموافقة أو بالرفض. وغالبا ما كانت تنشأ تلك الأزمات، بسبب رغبة الشعب في تجاهل، ما يقوله الملوك أحيانا بدعوى التفويض الإلهي، ثم يحاول الملوك بعد ذلك أن يتنصّلوا من المسؤولية عن قراراتهم.

٢- الملك بصفته ابنا للربّ ومديرا تنفيذيا له

كانت فكرة النظام الملكي، في مملكة يهوذا، أي في مملكة بيت النبي داود وأبنائه وأحفاده، قائمة على قدرة هؤلاء الأشخاص، على تنفيذ توجيهات الربّ، الذي هو في نظرهم الملك السماوي للبلاد، في حين يكونون هم الملوك الأرضيين للبلاد، هو ما أدّى

كذلك إلى حصول كل ملوك مملكة يهوذا على لقب (ابن الإله). أنظروا إلى ما يقوله الاصحاح ٩ من سفر النبي إشعياء، على لسان الربّ (٦- لأنه يولد لنا ولد، ويعطى لنا ابن، يحمل الرئاسة على كتفيه، ويدعى اسمه رئيس السلام. ٧- لا تكون هناك نهاية لنموّ رئاسته، وللسلام الذي يسود عرش داود ومملكته، ليثبّتها بالحق والبرّ، من الآن والى الأبد).

وفي المزمور الثاني لداود، على لسان داود الذي يقول (٧- وها أنا أعلن ما قضى به الربّ. قال لي الربّ: أنت ابني وأنا اليوم ولدتك. ٨- أطلب مني فأعطيك الأمم ميراثا. وأقاصي الأرض ملكا لك. ٩- فتكسرهم بقضيب من حديد، وتحطّمهم كآنية الفخّار. ١٠- والآن تعقّلوا أيها الملوك، واحذروا يا حكّام الأرض. ١٢- قبّلوا الابن لئلا يغضب، فتهلكوا في الطريق). هذا هو إذن التصريح، الذي يسمح للملك الأرضي من سلالة داود، أن يكون وكيلا عن الملك السماوي، في إدارة شؤون الأرض، وإدارة صراع الربّ ووكيله الأرضي، ضد قوى الشر والفوضى في العالم. فالملك هو ابن الربّ الإله.

أنظروا إلى هذا المزمور ١١٠، الذي يؤكّد فيه داود هذا المعنى (١- قال الربّ: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك. ٣- في يوم محاربة أعدائك يتطوّع شعبك، ويجيء شبابك إلى التلال المقدّسة كالندى في قلب الفجر. ٤- أقسم الربّ ولن يتراجع: الربّ واقف عن يمينك، وفي يوم غضبه يحطّم ملوكا. ٦- يقضي بين الأمم، فيملأ الأرض الرحبة بجثث رؤسائها. ٧- وحينئذ يشرب الملك من النهر المجاور للطريق، شامخا برأسه منتصرا). ثم في المزمور ٨٠ (١٤- يا اله الجنود تطلّع من السماوات، وانظر إلى الكرمة التي غرستها يمينك. ١٥- والى ابن آدم الذي اخترته لنفسك. ١٧- لتكن يدك على الإنسان الجالس عن يمينك، على ابن آدم الذي اخترته لنفسك).

هكذا نجد أن الملك من سلالة داود، كان لديه الحقّ في الجلوس، عن يمين كرسي عرش الربّ الإله، إذ إن الملك هو كذلك الشخص الوحيد الذي مسحه الربّ بالزيت المقدّس، هو الوحيد بين كل بني البشر الممسوح بيد الربّ، وهكذا يكون هو الوحيد بين

كل بني البشر، الذي تحقّ له مشاركة الرب في وضع أهدافه وفي تحقيقها. هناك نصوص تشير إلى أن الملك، هو الوسيط الوحيد بين ربّ السماء، وبين شعبه الأرضي، أنظروا مثلا في المزمور ٨٩، وهي وفقا لتعريف التوراة، الذي يأتي مباشرة خلف رقم المزمور، قصيدة تعليمية للمدعو إيثان الأزراحي

(٢٠- وجدت داود عبدي، فمسحته بزيتي المقدّس. ٢١- أثبّته بيدي، وأشدّده بقوّتي. ٢٢- فلا يبتزّه عدو، ولا يضايقه الإنسان الأثيم، ٢٣- إنّما أسحق أعداءه أمامه، وأصرع مبغضيه. ٢٥- أطلق يده على البحار ويمينه على الأنهار. ٢٦- هو يدعوني قائلًا: أنت أبي والهي وصخرة خلاصي. ٢٩- أديم إلى الأبد نسله وعرشه دوام السماوات). لاحظوا هنا عبارة (مسحته ببزيتي المقدّس)، وهي إشارة إلى ممارسة قديمة جدا، والى طقس من طقوس عبادات الحضارات القديمة، يشير إلى أن المسح بالزيت على يد الكاهن الأكبر، يخلّص من الخطايا ومن الأمراض.

هنا تنبغي الإشارة إلى أن يسوع المسيح هو الآخر، كان من نسل داود، وهو ما ورد في أول صفحة من أول اصحاح، في أول الأناجيل الأربعة، وهو انجيل متى الاصحاح الأول، كأن هذه الحقيقة الدينية، المشكوك فيها كحقيقة تاريخية، لا تستطيع أن تنتظر حتى تأتي في اصحاحات لاحقة، في صفحات لاحقة. انجيل متّى الاصحاح الأول (١- هذا سجل نسب يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم. ٢- إبراهيم أنجب اسحق. واسحق أنجب يعقوب. ويعقوب أنجب يهوذا واخوته. ٥- وعوبيد أنجب يسّى، ويسّى أنجب داود. ٦- وداود أنجب سليمان، وسليمان أنجب رحبعام).

وهكذا تتوالى الأجيال من نسل إبراهيم وداود، وصولا إلى مولد المسيح. النبي داود حوالي سنة ٩٦٠ ق م، هو الجيل الرابع عشر بعد النبي إبراهيم. والسبي البابلي سنة ٥٨٦ ق م، كان مع الجيل الثامن والعشرين. أمّا الجيل الثاني والأربعون، فهو الجيل الذي ولد فيه يوسف النجّار، الأب بالتبنّي ليسوع المسيح. هكذا ينهي الاصحاح الأول من انجيل متى كلامه (١٧- فجملة الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلا، ومن داود إلى

السبي البابلي أربعة عشر جيلا، ومن السبي البابلي إلى المسيح، أربعة عشر جيلا). فيكون المجموع هو ٤٢ جيلا (١٤ جيلا × ٣ مرّات).

قد يكون الأصل اللغوي لكلمة المسيح، هو طقس المسح بالزيت المقدّس، فالمسيح بصفته ملكا من سلالة داود، كان هو أيضا الوحيد من بين كل بني البشر، من الجيل الذي عاصر وجوده على الأرض، الممسوح بيد الربّ بالزيت المقدّس، هذا هو المعتقد المسيحي، فكلمة المسيح بالانجليزية تكتب بنفس سواكن الكلمات العربية والعبرية (م + س + ح) وتكتب هكذا (Me + ssa + iah). الا أن علماء المصريات كانوا قد اقترحوا تفسيرا آخر لهذه الكلمة، وهو المبني على كون حرفي الميم والسين المشدّدة، يأتيان في أسماء ملوك الفراعنة مثل رمسيس (رعمسِس) (رع مسّ) وتحتومسّ (تحوت مسّ)، بمعنى ابن رعّ وابن تحوت، فقالوا ان مسّ تعني ابن (ابن الربّ في هذه الحالة).

كان ملك إسرائيل من المفترض فيه إذن، أن يلعب هذا الدور المزدوج، فهو أمام شعب الله المختار، يلعب دور الممثّل الشرعي لربّ لإسرائيل، وهو كذلك أمام ربّ إسرائيل، يلعب دور الممثّل الشرعي لشعب الله المختار. هذا هو الدور الذي كان قد بلغ ذروته، في شخص يسوع المسيح، وفي قصّة تضحيته بذاته الأرضية البشرية على الصليب، فداءً لبني البشر أجمعين، وتكفيرا جماعيا لهم من تبعات، خطيئة أبيهم آدم، في معصية الربّ. هذا هو المعتقد الرئيسي في كل الايمان المسيحي.

بالطبع هناك نبوءات كثيرة في أسفار التوراة، يقول المسيحيون إنها عن مولد المسيح دون زرع بشر، وعن حياته القصيرة المليئة بالمعجزات، التي تنتهي بمنظر الصلب، وبتضحيته بذاته الأرضية فوق الصليب، وهذه النبوءات هي السبب الأساسي، في وضع الإنجيل مع التوراة في مجلّد واحد، يسمّيه المسيحيون الكتاب المقدّس، الا أننا هنا سنضع أولا نصّا من الاصحاح ٥٢ من سفر إشعياء يقول (١٣- ها هو ذا عبدي يفلح، ويتعاظم ويتعالى ويتسامى جدا. ١٤- وكما دهش منه كثيرون، إذ تشوّه منظره أكثر من أي رجل. ١٥- فإنّه هكذا يذهل أمما عديدة، إذ شهدوا ما لم يخبروا به، وأدركوا ما لم

يسمعوه).

ثم يستأنف النصّ الحديث عن الملك الأرضي، الذي سوف يكونه المسيح، في الاصحاح التالي رقم ٥٣ من سفر إشعياء الذي يقول (٤- حمل أحزاننا وتحمّل أوجاعنا، ونحن حسبنا أن الربّ قد عاقبه وأذلّه، ٥- إلا أنه كان مجروحا من أجل آثامنا، ومسحوقا من أجل معاصينا، وبجراحه برئنا. ٦- كلنا كغنم شردنا، مِلْنا كل واحد إلى سبيله، فأثقل الربّ كاهله بإثمنا جميعا. ٧- ظُلِمَ وأُذِلّ ولكنه لم يفتح فاهه، بل كشاةٍ سيق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازّيها. ١٠- سُرّ الله حين قدّم نفسه ذبيحة. ١١- عبدي البار يبرّر بفعلته كثيرين، ويحمل عنهم آثامهم. ١٢- حمل خطيئة كثيرين، وشفع في المذنبين).

وهكذا فإن الفكرة الأكثر نبلا وسموّا، في الملكية وفقا لنظام مملكة يهوذا في إسرائيل، هي أن يكون الملك مستعدّا للتضحية بذاته، في سبيل بقاء شعبه، ونجاته من الأخطار المحدقة به، هذه الفكرة لم تكن متنافرة، مع الالتزامات الملكية في العهد المقطوع مع الربّ، بل على العكس من ذلك، إذ حدث أن تبنّاها ورعاها الملك داود، ثمّ فعلت نفس الشيء ذرّيته من بعده. كان عدم تأكّد الملوك من ثبات ووضوح التأييد الشعبي لهم، ومن تعاطف الجماهير معهم، هو من بين أسباب تمسّكهم بفكرة، استعداد الملوك للتضحية بالذات، واصرارهم على الاشارة اليها في نصوص التوراة.

نجد كذلك في سفر مراثي إرميا **the Lamentations**، المخصّص في الأساس لرثاء سقوط مدينة أورشليم، بعض الرثاء لعذاب ملك المدينة، إذ يقول في الاصحاح ٤ (١٩- كان مطاردونا أسرع من نسور السماء، وتعقّبونا على الجبال، وتربّصوا بنا في الصحراء. ٢٠- وقد وقع في أسرهم الملك الذي اختاره الربّ، الذي قلنا: في ظلّه نعيش بين الأمم). لذلك فإن أسفار التوراة، التي تتحدّث عن تاريخ الملكية في إسرائيل، وهي أسفار يشوع والقضاة وصموئيل والملوك، تبيّن بوضوح أن تقلّبات المزاج الشعبي، فيما يتعلّق بطبيعة العلاقة بين ملك إسرائيل وشعبها، تتوقّف في الأساس على طبيعة العلاقة بين ملك إسرائيل وربّها.

٣- المسيح من نسل داود

أقام الملك داود حكمه، وحكم ذريّته من بعده، على أساس العلاقة المتينة، بينه وبين ربّ إسرائيل، وفقا لما جاء في ميثاق العهد القديم، على جبل التجلّي في بريّة سيناء، بين النبي موسى جدّ داود، ونسل داود من بعده، وبين ربّ إسرائيل. هذا بالإضافة إلى النصوص التوراتية، التي كانت دائمة التأكيد على أن داود وذرّيته، هم الممثلون الشرعيّون لربّ إسرائيل، والمديرون التنفيذيّون لبرنامجه وإرادته، وهو ما كانت تعود إلى ذكره مرارا وتكرارا، ليس فقط النصوص التوراتية، بل كذلك الممارسات الطقسية للعبادات المختلفة، في الهياكل المقدّسة في أنحاء المملكة، خاصة في هيكل الملك سليمان في معبد أورشليم.

ونتيجة لهذا فإنه رغم سقوط مملكة إسرائيل سنة ٥٨٦ ق م، وسبي الشعب الإسرائيلي إلى بابل، حيث بقي أغلبه في حالة الأسر، لمدّة حوالي ثلاثة قرون، وترك أورشليم مهجورة لمدة سبعين سنة، فإن من تمكّن من الشعب الإسرائيلي، من العودة إلى أورشليم، أعاد الطقوس القديمة إلى هيكل سليمان، وهو ما يعني أن هذا الشعب، لم يكن رغم كل الصعوبات، قد تخلّى بعد عن التمسّك بالأمل، في تحقيق الوعود التي وعده بها الربّ، وفي إعادة إحياء مملكة إسرائيل، واستردادها للمكانة السياسية وللنفوذ، وللتوسّع الجغرافي الذي كان لها في السابق.

لكن الحقيقة هي أن هذا كله، لن يعود أبدا بعد ذلك إلى شعب إسرائيل، إذ إنه بعودة الشعب كله من السبي البابلي، اكتشفوا أن الأرض التي كانت لهم، أصبحت واقعة منذ ٣٢٣ ق م، تحت سيطرة قوة أكبر بكثير من إمكانيّاتهم العسكرية، هي الإمبراطورية الاغريقية في مصر والشام والعراق، تحت حكم ورثة الاسكندر الأكبر، الذين تسمّى ملوكهم، بأسماء مؤسّسي الأسرات الثلاث من قادة الاسكندر، بطلميوس وسلوخوس وأنطيوخوس، وهي الإمبراطورية التي دامت سطوتها، لمدّة تقترب من ثلاثة قرون، حتى فقط بضع عشرات من

السنوات قبل ميلاد يسوع المسيح، حين انتقلت السلطة من أثينا إلى روما.

في مواجهة هذا المصير المظلم، اعتقد الشعب العبري أن هذا هو الدليل على أن الربّ قد تخلّى عنهم. رغم ذلك فإن صلواتهم وطقوسهم التعبّدية، استمرّت في ذكر أن الربّ، قد وعدهم بهذه الأرض، التي هم عليها، لهم ولذرّيتهم من بعدهم، وأن قوى الخير التي يمثلّها شعبهم المختار، لا بدّ في النهاية من أن تنتصر على قوى الشرّ، التي يمثّلها أعداؤهم السياسيون. هكذا حلّ هذا الأمل بالتدريج، بالبحث في نبوءات أسفار التوراة القديمة، والعثور على شخص الإنسان الموعود به، المخلّص الممسوح بالزيت بيد الربّ، مبعوث العناية الإلهية يسوع المسيح.

أنظروا إلى هذا النصّ الذي جاء على لسان نبي الله إشعياء، من القرن الثامن قبل الميلاد، في السفر الذي يحمل اسمه في الاصحاح ١١ منه (١١- يعود الربّ ليمدّ يده ثانية، ليستردّ البقيّة الباقية من شعبه، من آشور ومصر وكوش وعيلام، ومن جزائر البحر، ١٢- ويجمع منفيي إسرائيل ومشتتي يهوذا، من أربعة أطراف الأرض، ١٤- وينقضّ شعب الله على أكتاف الفلسطينيين غربا، وعلى أبناء المشرق معا. ويستولي على بلاد آدوم وموآب، ويخضع له بنو عمّون. ١٦- ويمدّ الربّ طريقا من آشور، ليعود منه من بقي هناك من بني إسرائيل، كما أعاد الربّ جميع إسرائيل من مصر). هل كانت هذه نبوءة لما سيحدث بعد قرون من كتابة هذا النصّ؟ أم أنها فقرات أضيفت لاحقا إلى النصّ؟

إن الملك الذي يتحدّث إشعياء عنه هنا، هو القادر على إعادة شعب إسرائيل من مكان غربته في آشور، الملك الذي سيكون بصيرا بكلمة الربّ، وقادرا على تنفيذ إرادة الربّ. كان هناك تصوّران مختلفان ليسوع المسيح، التصوّر الأول يمثل الصورة السماوية المقدّسة للمسيح كملك السماوي، والتصوّر الثاني يمثّل الصورة الدنيوية للمسيح كملك أرضي. دام الاعتقاد في احتمال وجود مسيحَيْن، وفي احتمال مجيء مسيحَيْن، مدة بضع قرون، حتى جاء المسيح فعلا، وكتبت أناجيل البشارة به، في القرن الأول الميلادي، عندها لم يعد هناك الا تصوّر واحد ليسوع المسيح المقدّس، كملك سماوي، منحدر

من نسل داود.

هكذا أصبحت كل الكتابات المسيحية المبكّرة، تحاول بأي ثمن إثبات أمرين، الأول هو أن يوسف النجّار، من مدينة الناصرة، ينحدر من نسل داود، والثاني هو محاولة إثبات، الطابع الإلهي المقدّس لشخص المسيح، بواسطة الالحاح على إتيانه المعجزات، مثل حالات الشفاء من الأمراض المزمنة والعاهات، كشفاء الأعمى والمشلول، بالإضافة إلى معجزة إقامة الأموات. وقد كانت الحقائق غير واضحة لدى الشعب اليهودي، حتى مرحلة كتابة الأناجيل، لدرجة أنه قد حدث كثيرا في الأناجيل، أن سأل اليهود شخص المسيح، إن كان هو المسيح المنتظر، أم أن عليهم انتظار مسيح آخر.

ليس هذا فقط بل إن هناك شخصين على الأقل، اعتقد الشعب اليهودي لفترات متفاوتة الطول، أن واحدا منهما قد يكون هو المسيح المنتظر، القادر على أن يجمع بين الصورتين السماوية والأرضية، كملك سماوي تجري على يديه المعجزات، وفي نفس الوقت كملك أرضي قادر على أن يحكم الشعب، وأن ينتصر على أعداء الشعب في المعارك الحربية، وقد جاء أحدهما في سفر المكابيين، وجاء الآخر في سفر أعمال الرسل، وهو أحد أسفار الإنجيل.

سفر المكابيين يتكوّن من خمسة أجزاء، وهو من الأسفار غير القانونية، المعروفة باسم الأبوكريفا، التي لم تعترف بها كنيسة روما، ولم تضمّ إلى أسفار العهد القديم، في الطبعات الأولى من الكتاب المقدس، حوالي سنة ١٤٥٠، الا أن مجمع ترنت الروماني سنة ١٥١٦، ضمّ إلى الكتاب المقدّس الجزئين الأولين، إلى الأسفار القانونية في طبعاته اللاحقة. يحتوي هذا السفر على تاريخ استقلال اليهود، تحت قيادة الأسرة المكابية، وتاريخ تطوّر الأحداث السياسية والاجتماعية والدينية، في المجتمع الإسرائيلي، في القرنين الأخيرين قبل الميلاد.

تبدأ أحداث الجزء الأول، ببداية حكم أنطيوخوس إبيفانوس (الظَهور)، سنة ١٧٥ ق م، وقد كتب بالعبرية خلال القرن الأول ق م، ثم ترجم إلى اليونانية بعد ذلك. الجزء

الثاني يبدأ في الأيام الأخيرة من حكم سلوخوس الرابع فيلوباتور (المحبّ لأبيه)، وينتهي بأخبار انتصار يهوذا مكابيوس، على سلوخوس نيكانور سنة ١٦٠ ق م. الجزء الثالث يذكر زيارة بطلميوس الرابع إلى هيكل أورشليم سنة ٢١٧ ق م، وهو ملك مصر الذي اضطهد يهود الإسكندرية. السفر الرابع فلسفي عن ضرورة تسلّط العقل على العواطف. السفر الخامس يحتوي تاريخ اليهود من ١٨٤ ق م إلى ٨٦ ق م.

في هذا الجزء الخامس يأتي ذكر يوحنا هركانوس، الشخص الذي آمن الشعب اليهودي لفترة، أنه قد يكون المسيح المنتظر. ويوحنا هو ابن سمعان المكابي، وقد عيّنه أبوه سنة ١٤٢ ق م قائدا للجيش، ثم بعد قتل أبيه سنة ١٢٥ ق م، أصبح يوحنا في نفس الوقت، كبير كهنة هيكل أورشليم، وملكا على مملكة إسرائيل. وقد استطاع أن يكسب العديد من المعارك الحربية ضد أعدائه، وبالتالي أن يوسّع مساحة أراضي دولته ومنطقة نفوذه، باسترداد يافا واحتلال السامرة وأدوم، وترميم أسوار أورشليم.

كما أنه كان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية في سوريا سنة ١٢٥ ق م، لاعلان استقلاله عن دولة سلوخوس. وقد حكم حتى سنة ١٠٥ ق م. وبموته في ذلك العام زالت قوّة المكابيين. هذا هو الملك الذي استردّ ولو لفترة مؤقّتة، أمل الشعب اليهودي، في أن الله لم يترك بعد شعبه المختار، فريسة في يد أعدائه. هذه هي بعض الأحداث التاريخية التي ذكرها المؤرّخ يوسيبوس في كتاباته.

أما الشخص الثاني الذي اعتقد الشعب اليهودي لفترة، أنه قد يكون المسيح المنتظر، فقد ذكره سفر أعمال الرسل باسم سيمون، وسأضع هنا النصّ الذي جاء في الاصحاح الثامن من هذا السفر (٥- ذهب فيليبس إلى مدينة في منطقة السامرة، وأخذ يبشّر أهلها بالمسيح. ٩- وكان قبل ذلك في تلك المدينة، ساحر اسمه سيمون، يمارس السحر فيذهل أهل السامرة ويدّعي أنه رجل عظيم. ١٠- فأصغى اليه الجميع من الصغير إلى الكبير، قائلين: هذا الرجل هو قدرة الله العظمى. ١١- أصغوا اليه لأنهم كانوا قد انخدعوا مدة طويلة بحيله السحرية).

يقول معجم الكتاب المقدّس في مادة سيمون: كان لسيمون أتباع اعتبروه مسيحهم وفاديهم، وهم شيعة صغيرة من شيع الغنوصيين gnostics، والكلمة مشتقّة من الكلمة اليونانية التي تعني العارفين. يقول عنهم العلاّمة المسيحي المصري أوريجانوس: إنهم ليسوا مسيحيين على الاطلاق، لأنهم اعتبروا سيمون مظهر قوّة الله. ولعل الصواب قد جانب الآباء المسيحيين الأوائل، الذين ربطوا بين سيمون الساحر، وبين فلسفة الغنوصية.

إن الكارزين الأوائل بالمسيحية، واجهوا مقاومة شديدة من السحرة، مثلما جرى كذلك مثلا مع (عليم) الساحر، المعروف كذلك في النصوص الغربية باسم (باريشوع)، وهو الذي قاوم بولس الرسول، كما جاء في الاصحاح ١٣ من سفر أعمال الرسل، وهي الأحداث التي تقع، أثناء زيارة الرسولين بولس وبرنابا إلى جزيرة قبرص، للتبشير بالمسيح.

(٦- واجتازا الجزيرة كلها حتى وصلا إلى مدينة بافوس، وهناك قابلا ساحرًا يهوديًّا ونبيًّا دجّالاً اسمه باريشوع، معروف كذلك باسم (عليم). ٧- وكان مقرّبا من سرجيوس بولس حاكم قبرص. ٨- عارضهما الساحر ساعيا أن يحوّل حاكم الجزيرة عن الايمان بالمسيح. ٩- أما بولس فقد نظر إلى الساحر وقال: أيها الممتلىء غشّا وخبثا، يا ابن إبليس، يا عدوّ كل برّ، ١١- الآن ستمتدّ عليك يد الربّ، فتصير أعمى لا تبصر. وفي الحال سقطت على عينيه غمامة مظلمة، فأخذ يدور طالبا من يقوده بيده).

٤- مملكة المسيح الأرضية

في سفر إشعياء الاصحاح الحادي عشر، هنا يمكننا أن نجد، ما يمكن تسميته وصفا، لما كان هذا النبي إشعياء، يقول عنه إنه المسيح الحقيقي، دون أن يطلق عليه اسم المسيح، ويصفه بأنه الوسيط الذي تتمّ من خلاله، الرؤى الإلهية التي تشير إلى إرادة الربّ، التي ستؤدّي إلى العدل التام، والى الإحساس بالأمان والسلام، لكل مخلوقات الله.

(١- يفرخ برعم من جذع يسّى، وينبت غصن من جذوره. ٢- يستقر عليه روح الربّ، روح الحكمة والفطنة، روح المشورة والقوّة، روح معرفة الربّ ومخافته. ٣- تكون مسرّته

في تقوى الربّ، ولا يقضي بحسب ما تشهد عيناه، ولا يحكم بمقتضى ما تسمع أذناه. ٤- إنما يقضي بعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويميت المنافق بنفخة شفتيه.

٥- لأنه سيرتدي البرّ، ويتمنطق بالأمانة. ٦- فيسكن الذئب مع الحمل، ويربض النمر إلى جوار الجدي. ٧- ترعى البقرة والدبّ معا، ويأكل الأسد التبن كالثور. ٨- ويلعب الرضيع في أمان عند جحر الثعبان، ويمدّ الفطيم يده إلى وكر الأفعى، فلا يصيبه سوء. ٩- لا يؤذون ولا يسيئون في كل جبل قدسي، لأن الأرض تمتلىء من معرفة الربّ، كما تغمر المياه البحر).

ثن يستأنف إشعياء وصف رسول السماء، في جزء لاحق من سفره، في الاصحاح ٤٢ (١- هوّذا عبدي الذي أعضّده، مختاري الذي ابتهجت به نفسي. الذي وضعت روحي عليه ليسوس الأمم بالعدل. ٢- لا يصيح ولا يصرخ ولا يرفع صوته في الطريق. ٣- بأمانة يجري عدلا. ٤- لا يكلّ ولا تثبّط له همّة، حتى يرسخ العدل في الأرض. ٥- هذا ما يقوله الله، خالق السماوات والأرض: ٦- أنا هو الربّ قد دعوتك بالبرّ. أمسكت بيدك وحافظت عليك، وجعلتك عهدا للشعب ونورا للأمم. ٧- لتفتح عيون العمْي، وتطلق سراح المأسورين في السجن، وتحرّر الجالسين في ظلمة الحبس).

ثم يحدّد النبي إشعياء، المزيد من صفات وأهداف، رسول الربّ إلى الأرض، في جزء آخر لاحق من سفره، ويأتي هذا الكلام هنا، على لسان الرسول السماوي، بما يوحي أن مهمّة هذا الرسول، تتعدّى مسألة انتصار الشعب اليهودي على أعدائه، إلى مسألة أهمّ وأكبر، هي إعادة تأهيل الجنس البشري كله.

في الاصحاح ٤٩ (١- اصغوا يا شعوب البلاد البعيدة: قد دعاني الربّ وأنا ما زلت جنينا، وذكر اسمي وأنا ما برِحْتُ في رحم أمي. ٢- جعل فمي كسيف قاطع، ووراني في ظلّ يديه. صنع مني سهما مسنونا وأخفاني في جعبته. ٣- وقال لي: أنت عبدي إسرائيل الذي به أتمجّد. ٤- لكني أجبتُ: حقّي محفوظ عند الربّ، ومكافأتي عند الهي. ٥-

والآن قال لي الربّ، الذي كوّنني في رحم أمي: ٦- سأجعلك نورا للأمم، لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض، ٧- يراك الملوك فينهضون، ويسجد لك الرؤساء من أجل الربّ).

ثم هناك إشارات أخرى، إلى أن المسيح المنتظر سيفتح بوّابات الجنّة، أمام كلّ المؤمنين، والى أنه سيزيل من الطريق إلى البوّابات، السيف الذي كان يهدّد آدم أبا البشر، ويمنعه من الوصول إلى شجرة الحياة، بل إن هناك إشارات إلى أن المسيح المنتظر، سيكون قادرا على إعطاء كل القدّيسين القدرة على أن يأكلوا من ثمار هذه الشجرة. في الاصحاح الثالث من سفر التكوين، يمكننا أن نجد الإشارة إلى هذا السيف

(٢٢- قال الربّ: ها الإنسان قد صار كواحد منا، يميّز بين الخير والشرّ. وقد يمدّ يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل، فيحيا إلى الأبد. ٢٣- فأخرجه من جنّة عدن ليفلح الأرض، التي أُخِذَ من ترابها. ٢٤- وهكذا طرد الله الإنسان من جنّة عدن، وأقام ملائكة الكروبيم وسيفا ناريا متقلّبا شرقيّ الجنّة، لحراسة الطريق المفضية إلى شجرة الحياة).

مرة أخرى نتساءل: ١- لماذا كان الربّ يخاف من أن يستطيع الإنسان التمييز بين الخير والشر؟ ٢- ألم يكن هذا هو هدف كل الرسالات السماوية، إرشاد الإنسان إلى طريق الخير ليتخّذه طريقا له؟ والابتعاد عن طريق الشر؟ ٣- هل كانت هناك في الجنّة فعلا شجرة تسمح لمن يأكل من ثمارها أن يحيا إلى الأبد؟ ٤- ماذا يقصد نصّ هذا الاصحاح من سفر التكوين عندما يقول الربّ (قد صار كواحد منا)؟ ما المقصود هنا بهذه العبارة (واحد منا)؟ من هم هؤلاء الذين يجمع الربّ بينه وبينهم؟

هناك كذلك عودة واضحة، إلى فكرة أن الملك الأرضي، هو المسؤول عن توزيع ثمار شجرة الحياة، الكائنة في حديقة الربّ، وهي نفس الشجرة ذات نفس الهدف، التي يمكننا أن نراها لدى كل حضارات شعوب المنطقة، فهي عند السومريين والبابليين والآشوريين والكنعانيين والمصريين، وهي نفس الفكرة وراء كون الملك الأرضي هو أكثر رجال مملكته خصوبة، بل هو أكثر رجال الأرض خصوبة، فهو المسؤول عن توزيع الثمار.

وهذه المسألة فيها تورية وكناية، في كل التقاليد الشعرية القديمة، عن القدرة الجنسية

لدى فحول الرجال، القادرين على توزيع منيهم (ثمارهم)، على عدد كبير من النسوة، كما كان يفعل، (مين) اله الخصوبة في مصر القديمة، وغالبا ستكون كلمة (منوي)، مشتقة من اسم هذا الإله **Men**، وهي في الإنجليزية كذلك **semen**، إذا عرفنا أنه بإضافة السين، إلى بداية الكلمة المصرية القديمة، تتحول الكلمة من اسم إلى فعل، أي أن لكمة (سيمن) بالمصرية القديمة، تعني بذر البذور.

أنظروا إلى ما قاله باروخ في القطعة الشعرية القادمة، وباروخ اسم عبري معناه (مبارك)، وكان كاتبا مخلصا ومحبّا للنبي إرميا، وفي اصحاح ٣٦ من سفر إرميا، وهو أحد الأسفار القانوينة المعترف بها في التوراة، استدعى إرميا كاتبه باروخ، ليكتب له السفر الذي سيحمل اسمه، فكتب كلام الله الذي تنبّأ به إرميا، وقرأه على مسامع الشعب في هيكل الربّ في أورشليم، ثم قرأه كذلك في آذان رؤساء اليهود، فاضطربوا اضطرابا عظيما. ومن أعمال باروخ كذلك ذهابه إلى بابل، حاملا رسالة من النبي إرميا، تحذّر ملكها مما كان مزمعا أن يحل بتلك المدينة، من القصاص الإلهي والعقوبة.

وسفر باروخ هو أحد الأسفار الأبوكريفا، غير المعترف بها من كنيسة روما، بسبب أن النسخة الوحيدة التي وصلتنا منه، هي نسخة ليست مكتوبة بالعبرية بل باليونانية، وتبدو فيها بوضوح ملامح اللغة اليونانية، التي كانت سائدة في القرن الثاني قبل الميلاد، في حين أن إرميا وباروخ كانا قد عاشا قبل ذلك بخمسة قرون، أي في القرن السابع قبل الميلاد. أنظروا إلى ما قاله باروخ هنا:

(مع ندى الصباح سينزل الشفاء/ سينزل من السماء/ الشفاء من الأمراض/ وستنسحب من الأرض كل الأمراض/ مع غيرها من أعراض/ التنافس والنزاع والجدال/ والتقاضي والرغبة في الانتقام/ والحقد والحسد والكراهية وسفك الدماء/ وكل ما له علاقة بهذه المشاعر السلبية/ سيختفي هو الآخر ليس إلى حين/ بل قل إلى أبد الآبدين/ ولن يحدث أبدا بعد ذلك/ أن يموت إنسان دون استيفاء/ وقته المحدّد له سلفا على الأرض/ ولن يحدث أبدا بعد ذلك/ أن تسقط فجأة على إنسان/ صاعقة من

السماء/ أو أي شدّة أو محنة أو ضرر أو ضرار أو حظّ عاثر/

وستصبح الحيوانات المتوحّشة مستأنسة/ فبمجرّد خروجها من أحراشها/ ستصبح مستأنسة/ فتنقاد بسهولة إلى بني البشر/ مسلة قيادها لهم/ كل التنانين والثعابين التي ستخرج من جحورها/ ستنقاد بسهولة إلى الإنسان/ حتى لو كان هذا الإنسان طفلا صغيرا/ ومن أعجب ما سيحدث كذلك/ أن النساء سيحملن ويلدن/ دون أي تعب أو ارهاق أو ألم/ وسيحدث أيضا في تلك الأيام/ أن الحصاد لن يكون مرهقا/ وأن بناة المنازل لا يعبون/ .....)

هي نفس الأفكار التي كان النبي إشعياء، قد سبق له الإشارة اليها، في الاصحاح ١١ من السفر الذي يحمل اسمه، وهي نفس الأفكار التي سيشير اليها يسوع المسيح، مرارا وتكرارا أثناء بعثته الأرضية، وهي نفس الأفعال التي مارسها بيديه عمليا، مثل معجزات الشفاء من الأمراض، والحديث عن التساح بين كل مخلوقات الله، وعن غفران الربّ لخطايا البشر دون حدود، وبالتالي ردّ الاعتبار للبشر، الذي كانوا سابقا قد اعتبروا خطاة، لأنهم ورثوا خطيئة العصيان من أبيهم آدم.

يلاحظ هنا التشابه بين أفعال المسيح المنتظر، في مثل هذه القطعة الشعرية، وفي نصوص التوراة الأخرى، مثل سفر إشعياء القانوني، وبين أفعال احدى شخصيات الأساطير اليونانية، وهي شخصية أورفيوس، التي كثيرا ما استعملت في الفنون المسيحية، من العصور المبكّرة، وأورفيوس هذا كان قادرا على استئناس الحيوانات المتوحّشة، بمجرد الغناء والعزف على قيثارته، حيث نراه كثيرا في لوحات جدارية ملوّنة على طبقة من الجصّ، وهي الطريقة المعروفة باسم الفريسكا، أو في نحت جداري بارز أو غائر، من القرون الأولى للميلاد، وقد تحرّكت أمامه السباع والضباع، في إيقاع راقص على أنغام قيثارته.

٥- مأدبة المسيح

تدور فكرة المأدبة بشكل عام، حول موضوع احتفال المسيح مع تلاميذه، في يوم

العشاء الأخير، وهو اليوم السابق على صلبه، بانتصاره النهائي الرمزي على قوى الشرّ، بتعليقه على الصليب، وهو نفس ما أصبح معروفا في علوم الأنثروبولوجيا (دراسة الأجناس البشرية)، وفي دراسة الممارسات الدينية في الحضارات القديمة، باسم طقس إعادة التجميع، والمقصود بذلك الإشارة الى، إعادة دمج فصيل في المجتمع كان مغضوبا عليه، أو إعادة ضمّ أشخاص معيّنين في القبيلة، بعد أن كانوا قد تمّ بشكل مؤقّت، تعليق انتماءاتهم إلى القبيلة لسبب أو لآخر.

المأدبة هي أيضا الطقس الذي مارسه الإله بعل، في الأساطير الكنعانية، احتفالا بمناسبات مثل تنصيبه ملكا، أو مثل عند إتمام بنائه لقصر ملكي جديد. وهو نفس ما كان الملك سليمان يمارسه من طقوس احتفالية، تقدّم خلالها الأضاحي من الحيوانات المذبوحة، على هياكل معابده، أو على هيكل قدس أقداس معبد أورشليم، بعد أن كان قد تمّ بناؤه، وأثناء الاحتفال ببدء فصل الخريف، وكانت هذه الاحتفالات هي الأخرى تسمّى طقس إعادة التجميع.

أنظروا إلى ما يقوله كاتب سفر الملوك الأول، من أسفار التوراة القانونية، في الاصحاح ٨ (٦٢- ثم ذبح الملك وسائر إسرائيل معه، ذبائح أمام الربّ. ٦٣- وقدّم سليمان قربانا للربّ من ذبائح السلام، اثنين وعشرين ألفا من البقر، ومئة ألفٍ وعشرين ألفا من الغنم. وهكذا دشّن الملك وجميع بني إسرائيل هيكل الربّ. ٦٤- وقدّس الملك في ذلك اليوم، الفناء الذي يقع أمام الهيكل، بأن قدّم هناك القرابين والمحرقات والتقدمات وشحم ذبائح السلام، لأن مذبح النحاس القائم أمام الربّ، كان أصغر من أن يسع المحرقات والتقدمات وشحم ذبائح السلام. ٦٥- واحتفل سليمان بالعيد في ذلك الوقت، مع سائر إسرائيل، وجمهور كبير توافد من مدخل حماة إلى وادي مصر، واستمرّ الاحتفال أمام الربّ أربعة عشر يوما. ٦٦- وفي اليوم الخامس عشر بعد العيد، صرف سليمان الشعب، فباركوه وتوجّهوا إلى منازلهم بقلوب يغمرها الفرح والغبطة).

كما يمكننا أن نجد إشارة، إلى مثل هذه المآدب الاحتفالية في سفر إشعياء، المكتوب

في القرن الثامن ق م، أي بعد حوالي قرنين من زمن الملك سليمان، وفي اصحاحه ٢٥ يقول (٦- في أورشليم يقيم الربّ القدير، مأدبة مسمّنات لجميع الشعوب، مأدبة خمر صافية معتّقة، مأدبة لحوم وأمخاخ. ٧- ويمزّق النقاب المسدول على كل الشعوب، والحجاب الذي يغطّي جميع الأمم. ٨- ويمسح السيّد الربّ الدموع المنهمرة على الوجوه، ويزيل عار شعبه من كل الأرض).

ثم يستمر طقس المأدبة، في سفر النبيّ عِزرا، المكتوب في القرن الخامس ق م، بعد عودة جزء من الشعب اليهودي، من بابل إلى أورشليم، حيث كان الهيكل مدمّرا، يقول في الاصحاح ٦ (١٤- تابع شيوخ اليهود بناء الهيكل بنجاح، فاستكملوا البناء حسب أمر اله إسرائيل، ١٥- وتمّ بناء الهيكل في اليوم الثالث من شهر آذار، في السنة السادسة من ملك داريوس. ١٦- ودشّن كهنة بني إسرائيل واللاويين وبقيّة المسبيّين العائدين، هيكل الله بفرح. ١٧- وقدّموا قرابين احتفالا بتدشين هيكل الله.

مائة ثور ومائتي كبش وأربعمائة خروف، واثني عشر تيس مِعْزي، لتكون ذبيحة خطيئة عن جميع إسرائيل، بحسب عدد أسباطهم. ١٩- واحتفل العائدون من السبي بالفصح في اليوم الرابع عشر من الشهر الأول، ٢٠- وإذ كان الكهنة واللاويّون قد تطهّروا جميعا، ذبحوا حملان الفصح، لجميع المسبيّين العائدين، ولأخوتهم الكهنة ولأنفسهم. ٢١- وأكل الاسرائيليّون العائدون من السبي الفصح، مع سائر الذين انفصلوا عن ممارسة رجاسات الأمم. ٢٢- واحتفلوا بعيد الفطير سبعة أيام بفرح).

ثم انظروا معي إلى هذا الشيء العجيب جدا، الذي يحدث في الاصحاح ٤٠ من سفر أيّوب (١٥- بهيموت يأكل العشب كالبقر. ١٦- إن شدّته في عضلات بطنه. ١٧- عضلات فخذيه مضفورة. ١٨- عظامه أنابيب نحاس، وأطرافه قضبان حديد. ١٩- إنه أعجب كل الخلائق، ولا يقدر أن يهزمه الا الذي خلقه. ٢٣- لا يخامره الخوف إن هاج النهر. ٢٤- من يقدر أن يصطاده من الأمام، أو أن يثقب أنفه؟) إن هذا الاسم بهيموت **Behemoth**، هو اسم فرس النهر في الأساطير الكنعانية، وهذه هي الطريقة التي كان

يوصف بها جسمه في الأساطير الكنعانية، فما الذي جاء به هنا في سفر أيّوب؟

الإجابة هي : ١- أنه أحد رموز الشر في العالم القديم، لسبب يظلّ مجهولا لنا. ففي مصر القديمة كان فرس النهر، هو الشكل الذي يظهر به اله الشر ست **Seth** على جدران معبد إدفو، حيث يقوم اله الخير حورس **Horus** بطعن جسمه بالحراب. ٢- في الأساطير الكنعانية في رأس شمرة، كان فرس النهر يعتبر الوحش، الذي يتحدّى إرادة الربّ، ويتحدّى كذلك قوّة وذكاء الإنسان، ويمثّل إلى جانب الشرّ، كل القوى الشرّيرة الأخرى، المسؤوله عن فوضى العالم ودماره. من الغريب كذلك أن يأتي ذكر بهيموت، في العديد من أسفار التوراة، ضمن قوائم القرابين، التي تقدّم كأضحية إلى ربّ إسرائيل. فالشعب اليهودي لم ينس أبدا تراث كنعان، وأسماء آلهة الشرّ في كنعان.

ثم في الاصحاح ٤١ من سفر أيّوب، هناك الحاح غريب على نفس المعنى، ولكن هذه المرّة المسألة تتعلّق، بالوصف التفصيلي للمدعو لوياثان (١- أيمكن أن تصطاد لوياثان بشصّ؟ أو أن تربط لسانه بحبل؟ ٢- أتقدر أن تضع خزامة في أنفه؟ أو تثقب فكّه بخطّاف؟ ٥- أتلاعبه كما تلاعب العصفور؟ أو تطوّقه بترس ليكون لعبة لفتياتك؟ ٧- أتُثْخِن جلده بالحراب؟ ورأسه بأسّنة الرماح؟ ٨- إن حاولتَ القبضَ عليه بيدك فإنّك ستذكر ضراوة قتاله، ولا تعود تقدم على ذلك ثانية.

٩- أي أمل في إخضاعه قد خاب، ومجرد النظر اليه يبعث على الفزع. ١٠- لا أحد يملك جرأة كافية ليستثيره. ١٢- دعني أحدثك عن قوته وتناسق قامته. ١٣- من يدنو من متناول صفّ أضراسه؟ من يفتح شدقيه؟ ١٤- إن دائرة اسنانه مرعبة. ١٥- ظهره مصنوع من حراشف كتروس مصفوفة متلاصقة بإحكام. ١٦- متلاصقة لا ينفذ من بينها الهواء. ١٧- متصلة ببعضها البعض، متلبّدة لا تنفصل. ١٩- من فمه يتطاير شرار نار. ٢١- من فمه ينطلق اللهب. ٢٢- في عنقه تكمن قوّة، وأمام عينيه يعدو الهول. ٢٣- ثنايا لحمه محكمة التماسك، مسبوكة عليه لا تتحرّك. ٢٦- لا ينال منه السيف الذي يصيبه، ولا ارمح ولا السهم ولا الحربة).

إذن من هو هذا الآخر المدعو لوياثان؟ الإجابة هي أنه التمساح، وهذا واضح طبعا من وصف صفاته الجسدية، وهو كذلك مثل صديقه بهيموت، يمثّل قوى الشرّ والفوضى والدمار، في الأساطير الكنعانية، وهو الآخر ظهر كإله شرير في مصر القديمة، حتى أن الناس هناك حاولت عبادته، فقط لإرضائه ولاتّقاء شرّه. ظهر هو الآخر في المآدب التوراتية، ضمن قوائم المأكولات التي تقدّم للشعب، لحم التمساح! هناك نسخة أخرى من لوياثان تسمّى لوتان، وتظهر في صورة أفعى ذات الجسد الملتف الملتوي، والسبعة رؤوس.

٦- لقب ابن الإنسان القادم فوق السحاب

مثل لقب (المسيح) الذي يدلّ على أن حامله ممسوح من السماء، فإن لقب (ابن الإنسان) هو الآخر له دلالة هامة، وهي أن حامله مولود من الجنس البشري، من سلالة آدم أبي البشر. وفي حين كان ظهور لقب (المسيح)، قد حدث في وقت متأخر نسبيا، من تاريخ مملكة إسرائيل، فإن لقب (ابن الإنسان) قد ظهر في وقت أكثر تبكيرا عنه. هذان اللقبان متساويان تقريبا في القيمة، ويدلاّن على الملك الأرضي، وهما قريبا الشبه من لقب ثالث، ومساويان في القيمة له، وهو لقب (ابن آدم). أما اللقب الرابع وهو لقب (رجل يد الربّ اليمنى)، فهو الدال على حقيقة إيمانية ثابتة في الذهنية اليهودية، وهي أن ملوك إسرائيل كانوا في السماء، يجلسون إلى يمين كرسي عرش ربّ إسرائيل.

سأضع هنا فقط بعض النماذج الدالة على ما أقول، فلدينا أولا نص من مزمور ٨٠ يقول (١٤- يا اله الجنود، تطلّع من السماوات، ١٥- تفقّد ابن آدم الذي اخترته لنفسك. ١٧- لتكن يدك على الإنسان الجالس عن يمينك. على ابن آدم الذي اخترته لنفسك). ثم لدينا ثانيا نص من مزمور ١١٠ يقول (١- قال الربّ: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك).

ثم هناك نصّ من الاصحاح ٧ في سفر النبي دانيال، الذي يصف فيه احدى الرؤى المتعلّقة بما سيحدث في الآخرة، في نهاية العالم (٩- شاهدت الأزلي يعتلي كرسيه وكانت ثيابه بيضاء كالثلج. ١٠- تخدمه ألوف ألوف الملائكة، ويمثل في حضرته

عشرات الألوف، فانعقد مجلس القضاء وفتحت الأسفار. ١٢- أما سائر الحيوانات فقد جرّدت من سلطانها. ١٣- وشاهدت أيضا ابن الإنسان مقبلا على سحاب، حتى بلغ عرش الأزلي فقرّبوه منه. ١٤- فأنعم عليه بسلطان ومجد وملكوت، لتتعبّد له كل الشعوب، وكل الأمم من كل لسان. سلطانه أبدي لا يفنى، وملكه لا ينقرض).

وكما سبق القول فإن هذا الملك الأرضي الجالس إلى يمين ربّ إسرائيل، هو في نفس الوقت ممثل الربّ أمام الشعب، وممثل الشعب أمام الربّ، فأمام الشعب هو الذي يوزّع بركات الإله، وهو أمام الرب مسؤول عن المملكة الأرضية. تضيف الينا نصوص التوراة مفهوما جديدا عن املك الأرضي، وهو أنه كذلك المسؤول عن صيانة شؤون جنّة عدن، وعن حماية شجرة الحياة الكائنة في جنّة عدن. كان ابن الملك في الأساطير البابلية هو المسؤول عن حماية أشجار حدائق والده.

في حالة غضب الربّ على أحد الملوك الأرضيين، من بين ممثليه الشخصيين، فهاكم ما يمكن أن يحدث له، وهو ما جاء في الاصحاح ٢٨ من سفر حزقيال، على لسان حزقيال، في وصف حالة ملك مدينة صور (١١- وأوحى الربّ اليّ بكلمته قائلًا: ١٢- اندب ملك صور، وقل له هذا ما يعلنه السيّد الربّ: كنتَ خاتم الكمال، ١٣- كنتَ في جنّة الله عدن، ١٤- وأقمتك على جبل الله المقدّس، ١٦- إنما بسبب كثرة تجارتك امتلأ قلبك ظلما، فأخطأت. لهذا أطرحك من جبل الله كشيء نجس. ١٧- سألقي بك إلى الأرض أمام الملوك لتكون عرضة لعيونهم الهازئة).

إن هذا التداخل بين شخصيّة ربّ إسرائيل، وشخصيّة الملك الأرضي لشعب إسرائيل، أدّى في نهاية الأمر إلى تصويرهما، في بعض الكتابات التوراتية، كما لو كانا شخصا واحدا، أو كيانا مقدّسا واحدا، وهذا هو ما كانت الاناجيل تكرّره مرارا في وصف يسوع المسيح، قائلة (إن يسوع المسيح يساوي الأب السماوي في الجوهر)، وقد حدث كذلك في بعض المرّات أن شهد يسوع المسيح لنفسه. إذن ليست هي فقط نصوص التوراة، التي تذكر هذا المعنى، مثل نصّ حزقيال المشار اليه أعلاه، بل كذلك هناك نصوص في

الأناجيل تفعل نفس الشيء.

أنظروا مثلا إلى هذا المشهد، وهو من المشاهد الختامية في حياة يسوع المسيح الأرضية، وتدور أحداثه بعد القبض على يسوع مساء الخميس، وأثناء محاكمته على يد الكهنة صباح الجمعة، وهو في الاصحاح ٢٦ من إنجيل متّى (٦٣- عاد رئيس الكهنة يسأله: أستحلفك بالله الحيّ أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟ ٦٤- فأجابه يسوع: أنت قلتَ، وأقول لكم أيضا إنكم منذ الآن سوف ترون ابن الإنسان، جالسا عن يمين القدرة، ثم آتيا على سحب السماء. ٦٥- فصرخ رئيس الكهنة: قد جدّف، فلا حاجة لنا بعد الآن إلى شهود، ها أنتم قد سمعتم تجديفه، ٦٦- فما رأيكم؟ أجابوا: يستحق عقوبة الموت).

لكن من أعجب نصوص الأناجيل، هذا الحوار الذي دار بين يسوع وتلاميذه، كما جاء في الاصحاح ٨ من إنجيل مرقص (٢٧- سأل يسوع تلاميذه: من يقول الناس إني أنا؟ ٢٨- فأجابوه: يقول بعضهم إنك يوحنا المعمدان، وغيرهم إنك إيليا، وآخرون إنك واحد من الأنبياء. ٢٩- فسألهم: وأنتم من تقولون إني أنا؟ فأجابه بطرس أنت المسيح. ٣٠- فحذّرهم من أن يخبروا أحدًا بأمره. ٣١- وأخذ يعلمهم أن ابن الإنسان، لا بدّ أن يتألم كثيرا، ويرفضه الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم. ٣٢- فانتحى به بطرس جانبا وأخذ يوبّخه. ٣٣- فزجر بطرس قائلًا: اغرب من أمامي يا شيطان).

ماذا نفهم من هذه القطعة؟ ١- أن الناس كانوا مختلفين في الرأي حول من هو يسوع المسيح. ٢- أن المسيح كان يريد من تلاميذه أن يخفوا عن الناس حقيقة شخصيته بدليل (حذّرهم من أن يخبروا أحدا بأمره. ٣- وهذا شيء غريب فلماذا إذن هو قد جاء إلى الأرض إذا لم يكن ليعلن للناس حقيقته؟ ٤- أن بطرس أهم تلاميذه كان قادرا على توبيخه، لأن بطرس كان ممن اعتقدوا لفترة من الوقت، في إمكانية قيام مملكة على الأرض، يكون يسوع المسيح هذا ملكا عليها، وبالتالي يكون بطرس وزيرا له.

استمرّت إذن نفس هذه الأفكار الخاصة، بقدرة الملوك الأرضيين على الاتيان بالمعجزات، عند كتابة أسفار الأناجيل، إذ كان قد حدث في القرون الأولى من الميلاد، أن الكثيرين من أفراد الشعب اليهودي، ومن أفراد الشعوب الأخرى، التي كان يطلق عليهم شعوب الأمم، كانوا قد تحوّلوا من اليهودية إلى المسيحية. ففي الأناجيل المختلفة هناك العديد من المرّات، التي وصف فيها يسوع المسيح، بأنه (القادم فوق السحاب).

لكن فيما يتعلّق ببعض الملوك الأرضيين، لفترات سابقة من التاريخ الإسرائيلي، فإن مساواتهم للأبّ السماوي، أو تداخل شخصيّاتهم مع شخصية الأب السماوي، لم يكن يعني الغياب التام لاراداتهم كبشر، وكقادة سياسيين وحربيين، كغيرهم من قادة الشعوب الأخرى، الا أن ملك شعب إسرائيل، كان يتميّز عنهم أحيانا، خاصة في أوقات الشدّة، بالقدرة على الاتيان بأفعال معجزية، مثلما حدث من يشوع النبي والملك والقائد العسكري، الذي تمكن من إيقاف قرص الشمس في السماء، لمدّة يوم كامل، حتى تمكن من القضاء على كل أفراد جيش العدو.

إن هذه الصورة لابن الإنسان (القادم فوق السحاب)، قد استعيرت غالبا من المزامير، التي كانت تغنّى ويُترنّم بها، في مناسبات تتويج ملوك بني إسرائيل، وهي التي كانت بدورها قد استعيرت من الأسطورة الكنعانية، التي كان يقال فيها عن الإله البعل إنه هو الآخر (القادم فوق السحاب). الا أن معدّل تكرار هذه الصورة، قد تزايد في أسفار التوراة الأحدث زمنيا، عن معدّل تكرارها في الأسفار الأقدم زمنيا.

وقد يعود ذلك نسبيا إلى حقيقة، تتعلّق بالتاريخ الديني لشعب إسرائيل، وهي أن معدّل تكرار حديث الربّ مع أنبيائه الأقدم زمنيا، كان أعلى بكثير من معدّل حديث الربّ مع أنبيائه الأحدث زمنيا، وهو ما جعل الربّ في الأزمنة الأحدث، يميل إلى أن يرسل ملائكته، لتتحدّث إلى شعبه بالنيابة عنه، ثم يرسل بني الإنسان كذلك بعد الملائكة. في قول آخر، أصبح ربّ إسرائيل أكثر تباعدا وارتفاعا عن شعبه في الأزمنة الأحدث، خاصة في المرحلة ما بعد السبي البابل (٥٨٦ ق م). هكذا جاءت الملائكة فوق السحاب، ثم جاء بنو الإنسان كذلك فوق السحاب.

الفصل السادس

أرباب بلاد الرافدين

١- أرباب السماوات والرياح

كانت شعوب بلاد الرافدين، خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وفقا لما وصل إلى علمنا من كلمات الأغنيات الشعبية الرائجة، المكتوبة على أحجار ومعادن، تؤمن بأن المحيط الذي يعيش فيه البشر، يعجّ بالكائنات المفيدة والضارة، وبوجود العديد من الأرباب الذين يصنعون الخير، والعديد من الشياطين المسؤولين عن الشر. فمثلا على مستوى الحياة اليومية العادية، ففي حالة الاصابة بالصداع أو بآلام الأسنان، اعتقد الناس أنه يمكنهم، أن يعزوا هذه الأعراض، إلى شيطان الصداع، والى شيطان ألم الأسنان، حتى المشاجرة مع الجيران كان لها شيطانها. كانت هذه الشياطين تسكن المناطق الصحراوية، المتاخمة للمناطق الزراعية في وادي دجلة والفرات، من الجهة الغربية.

لم يكن لهذه الشياطين أسماء تعرف بها، بل كان يقال شيطان الصداع، أما الشياطين المتسبّبة في كوارث، فكانت لها أسماء، مثل شيطان الإصابة بوباء الطاعون واسمه (نامتار)، وشيطان الاصابة بالأمراض المميتة واسمه (آشاكو)، وهما اللذان كان يمكنهما أحيانا الظهور في أشكال آدمية. أنظروا إلى ما يقوله هنا مزمور ٩١ (٢- أقول للربّ: أنت ملجئي وحصني، أنت إلهي الذي وثقت به. ٣- أنت منقذي من فخاخ الصيّاد ومن الوباء

المهلك. ٥- فلا أخاف من هول الليل ولا من سهم يطير في النهار. ٦- ولا من وباء يسري في الظلام، ولا من هلاك يفسد في الظهيرة).

أما الكوابيس والمخاوف الليلية، فكانت تعزى إلى شيطان اسمه (ليليتو). أنظروا هنا إلى ما يقوله إشعياء، في الاصحاح ٣٤ من سفره، عن الصحراء والخرائب وكائنات الظلام (١٤- تجتمع فيها الوحوش البريّة مع الذئاب، وهناك تستقر وحوش الليل وتجد لنفسها ملاذ راحة. ١٥- هناك تعيش البوم، وترعى صغارها، وهناك أيضا تتلاقى الصقور). لدينا أيضا ما يسمّى شيطان النوايا السيّئة، الذي ينتظرك على باب منزلك، فإذا خرجت منه وأنت مغتاظ ومتجهّم سكنك، وهذا هو الشيطان الذي يشير اليه نصّ سفر التكوين، في قصّة قايين وهابيل في الاصحاح ٤ (٦- سأل الربّ قايين: لماذا أنت مغتاظ؟ لماذا أنت متجهّم الوجه؟ ٧- إن لم تحسن التصرّف، فعند الباب خطيئة تنتظرك، تتشوّق أن تتسلّط عليك، لكن يجب أن تتحكّم فيها).

أما الإله الأعلى فوق كل من عداه من الآلهة، فهو اله السماء واسمه (آنو **Anu**)، لأنه هو الذي يرسل الشمس لتشع بضيائها على البشر، وهو الذي يسقط المطر. هو الملك الأعلى، الذي يصدر الأحكام التي يتحكّم بها، في كل من العالمين الأرضي والسماوي، ولا أحد ينافسه في نفوذه. يلاحظ هنا أن الملوك البشريين في الفترة المبكّرة من عصر مملكة بابل، كانوا يسمّون (آنيتو **Anitu**)، وتعني المرافق للاله آنو، أو وكيله في أعماله، أو أن آنو هو الذي اختاره ليكون مديره التنفيذي.

أما اله الرياح فكان يسمّى (إنليل **Enlil**)، وقد أدرك شعب بابل في مرحلة مبكّرة، أن هذه الرياح هي المسؤولة عن تجفيف المستنقعات، التي تنشأ بعد الفيضانات، في نهري دجلة والفرات، ففي كل عام، في نهاية فصل الربيع وبداية فصل الصيف، تأتي مياه الفيضان، فتغمر الحقول والزراعات، ثم تأتي الرياح بداية من نهاية الخريف وطوال فصل الشتاء، لتجفّف المياه في المستنقعات. كانت معابد اله الرياح تطلب منه في صلواتها له، التخفيف من غلوائه، حتى يمكن للمياه أن تستمر، أطول وقت ممكن في الأراضي الزراعية.

الا أن الرياح كما كانت تلعب دورا سليبا، في تجفيف المياه، فهي كذلك كانت تلعب دورا إيجابيا، في توجيه المياه نحو المناطق التي لا تصل اليها الفيضانات، حيث يمكن لمياه قليلة أن تحافظ على بقاء النباتات العشبية، التي تقوم عليها أنشطة رعي الأغنام والماشية، وهو النشاط الثاني في الأهمية بعد الزراعة، منذ أن بدأت المجتمعات البشرية الأولى، في الاستقرار في أودية الأنهار الكبرى على كوكب الأرض.

من بين الأدوار الإيجابية للرياح، التي أدركها الإنسان الأول، ملء أشرعة المراكب بالهواء، الذي يمكنه أن يدفع هذه المراكب، في الاتجاهات التي يريد راكبوها أن يسلكوها، في مياه القنوات البطيئة الحركة. كما أدرك هذا الإنسان البدائي، أن الرياح هي كذلك التي تحرّك السحاب في السماء، ليذهب إلى مناطق بعيدة عن الأنهار، ويسمح هناك بسقوط الأمطار، التي تروي أشجار النخيل، فتحافظ على بقائها حيّة.

في التراتبية العامة في مجمع الآلهة **Pantheon**، كانت السماء تشغل المكانة الأولى، ثم تأتي بعدها مباشرة الرياح في المرتبة الثانية، لكن شعب بابل أدرك أن الرياح، لا تستطيع أن تتصرّف بإرادة منفصلة، عن إرادة السماء، لذلك كان التفاهم بينهما مطلوبا، وهذا هو السبب في أن كهنة معابد السماء، كانوا دائمي التعاون مع كهنة معابد الرياح، لتحقيق الصالح العام لشعب بابل.

غالبا ما كان يحدث، خاصة في المراحل المبكّرة من تاريخ شعب بابل، أن يصبح كبير كهنة معابد السماء، هو الملك الأعلى للبلاد، وبالتالي يكون الكاهن الأعلى لمعابد الرياح، في منصب نائب الملك، أو مديره التنفيذي. الدليل على ذلك هو أننا وجدنا أنه من بين ألقاب نائب الملك، يوجد لقب (إنليليتو **Enlilitu**)، ويعني مساعد اله الرياح، فالمقطع (إيتو) في اللغة السومرية يعني نائب أو مساعد، وهو ما رأيناه في كل من الكلمتين آنيتو وإنليليتو.

الشيء الملفت للانتباه هنا، هو أن الشعب البابلي أدرك مبكّرا، أن هناك وجهين متعارضين لكل إله، فكما أن الإله يمكنه أن يكون صانع خيرات، فهو كذلك يمكنه أن

يكون صانع شرور ومصائب. لذلك كان الهدف الرئيسي من صلوات وطقوس العبادة في المعابد البابلية، هو إتّقاء شرور الإله.

لقد أدرك الشعب البابلي هذا بفضل قدر كبير من الواقعية، تمتعت بها الحكمة الشعبية البابلية، فليس هناك من بين بني البشر من هو خير كله، أو من هو شرّ كله، وحيث إن الآلهة كانت وفقا لتصوّر تلك المرحلة التاريخية، هي الأخرى ذات عواطف بشرية، مثل الفرح والغضب والرغبة في الانتقام، فحتى بين الآلهة، لم يكن هناك من هو كلّي الخيرات، أو من هو كلّي الشرور.

إن من بين الشرور التي تتسبّب فيها الآلهة، يمكننا أن نجد، الفيضانات المدمّرة التي لا يمكن السيطرة عليها، فتغرق الزراعات والمساكن، والعواصف الرملية والرياح الموسمية الساخنة، القادمة من جهة الصحراء، وتتسبّب في إتلاف المحاصيل، وفي تدمير المنازل، وأسراب الجراد التي تجلبها أحيانا الرياح، فتأكل المحاصيل الزراعية.

حتى غزوات قبائل بدو الصحراء، أو غزوات القبائل البدائية الأخرى، التي كانت تسكن منحدرات المناطق الجبلية بين العراق وإيران، كل هذه الأحداث والحوادث، كانت تعزى إلى الجانب السّيئ من الآلهة، التي كانت ترغب أحيانا، لسبب أو لآخر، في الانتقام من البشر. وهكذا فعندما سقطت مدينة أور في أيدي الأعداء، وتمّ تدميرها إلى حد بعيد، قال كهنة معابد الآلهة، لشعب بابل المهزوم، إن هذه الهزيمة وهذا الدمار، كانا بسبب غضب الآلهة على شعب بابل، لابتعاد هذا الشعب عن ممارسة طقوس العبادات القويمة، التي سنّتها الآلهة.

كانت أمثال هذه الواقعة، وهي هزيمة الشعب البابلي في مواجهة أعدائه، هي نقاط تحوّل جوهرية، في تاريخ الشعوب البشرية بشكل عام، إذ نجد هنا محاولة السلطات الدينية، أن تلعب الدور السياسي، الذي تستمر الديانات، في محاولة لعبه حتى الآن، في حياة الشعوب، لتحتفظ هذه السلطات الدينية، لأطول فترة ممكنة، بأكبر قدر ممكن من النفوذ، ومن الهيمنة على العقول. الا أن مثل هذه الهزائم العسكرية، كانت هي كذلك،

التي أدّت لاحقا لدى شعوب عديدة، وفي ممالك مختلفة، من بينها مملكة إسرائيل، إلى أن يحل القادة العسكريون، محلّ الكهنة في منصب ملوك البلاد.

٢- ربّ المياه

كانت هناك ربّة للأرض، تعيش فوق المنحدرات الجبلية، كانت تسمّى نين هورساج Nin hursag، وهما كلمتان تعنيان (سيّدة الجبل)، وكانت هذه للعجب هي نفسها، العبارة المستعملة في قول (تراكم الطمي في المستنقعات)، وكانت هذه المستنقعات هي تلك التي تتكوّن، من المياه التي تتبقى في المناطق المنعزلة، التي تقع في الأراضي ذات المستوى المنخفض، عن مستوى سطح النهر، بعد انسحاب مياه الفيضان السنوي. كان هذا يحدث غالبا أسفل النهر، أي في المناطق الجنوبية من بلاد الرافدين، القريبة من مصبّ النهرين، في مياه الخليج الفارسي (العربي).

هناك أسطورة قديمة تعزي نمو النباتات، إلى التزاوج بين ربّة الأرض وربّ المياه، واسمه إنكي Enki، تقول إن الإنسان الأول لم يعرف الزراعة، الا بعد أول اتحاد بالتزاوج بين ربّ المياه وربّة الأرض، وأن تعدّد النباتات وتنوّع المملكة النباتية، يُعزى إلى أن ربّ المياه قد خان ربّة الأرض، بالتزاوج مع النباتات الأولى من بناتهما معا، فنتج عن ذلك التزاوج النباتات الثانية والثالثة وهكذا. هذه هي ملحوظة ذكية من شعب قديم، أدرك بفطرته حدوث عمليات، يسمّيها العلم الحديث، عمليّات النشوء والارتقاء، لكن الشعب البابلي بمعرفته الأسطورية، لم يجد أمامه الا هذا التفسير الأسطوري.

لديكم هنا كلمات أغنية سومرية/ بابلية، عمرها لا يقل عن خمسة آلاف عام، وجدت محفورة على الأحجار فوق جدران معابد بابل القديمة، مكتوبة بالعلامات المسمارية cuneiform، وهي الكتابة التي لم تكتشف شفرتها الا بعد أبحاث شاقة، للعديد من العلماء، منذ منتصف القرن السابع عشر، وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. تقول الأغنية:

إن الأرض البكر كانت بريئة/ إن الأرض البكر كانت نظيفة/ الا أن الأرض البكر لم

تصرخ باكية/ عندما التهمتها المياه/ كما كانت الطيور البكر في ذلك الوقت/ لا تصرخ أبدا باكية/ في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه السباع تقتل/ ولا كانت فيه الذئاب تخطف النعاج/ ولا كانت فيه الكلاب البرّية تلتهم الأطفال/ ولم يكن فيه المريض بعينه يقول إنه مريض بعينه/ ولا المريض برأسه يقول إنه مريض برأسه/ ولا الامرأة العجوز تقول إنها امرأة عجوز/ ولا كان الرجل العجوز يقول إنه رجل عجوز/ لم تكن كل هذه الكائنات تعرف أسماءها/ ولم يكن الإنسان يعرف أسماءها/ كما أنه لم يكن يعرف لا الشيخوخة ولا الألم .....

هذا هو حال الأشياء كما كانت في البدايات، قبل أن تختبر الكائنات الألم الأرضي، وتتعلم أن الشكوى هي من الطباع والخصائص، التي تميّز الكائنات الأرضية. بعض هذه الصور يذكّرنا بحال الإنسان في جنّة عدن، قبل أن يعرف الخطيئة وبالتالي يطرد من الجنّة، ومن ثمّ يعرف الشيخوخة والمرض. بعض هذه المعاني يرد في الاصحاح ٢ من سفر التكوين، الذي يصل عمره إلى حوالي ٣٢٠٠ سنة. (١٩- وكان الربّ الإله قد جبل من التراب، كل وحوش البريّة وطيور الفضاء، وأحضرها إلى آدم ليرى بأي أسماء يدعوها. فصار كل اسم أطلقه آدم على كل مخلوق حيّ اسما له).

هذا التوافق الذي كان قائما بين كائنات الطبيعة من بشر وحيوانات، وهذا الانسجام التام بين عناصرها من جماد ونبات، كما يظهر في هذه الأغنية السومرية، يجد صداه في نصّ توراتي من القرن الثامن ق م، في الاصحاح ١١ من سفر النبي إشعياء، الذي يصف صفاء الأحوال، عند ظهور المخلِّص المنتظر

(٦- يسكن الذئب مع الحمل، ويربض النمر إلى جوار الجدي، ويتآلف العجل والأسد، ويسوقها جميعا صبيّ صغير. ٧- ترعى البقرة والدبّ معا، ويأكل الأسد التبن كالثور. ٨- ويلعب الرضيع في أمان عند جحر الثعبان، ويمدّ الفطيم يده إلى وكر الأفعى فلا يصيبه سوء. ٩- لا يؤذون ولا يسيؤون في كل جبل مقدّس، لأن الأرض تمتلئ من معرفة الربّ، كما تغمر المياه البحر).

إن أسطورة ربّ المياه مع ربّة الأرض والجبال، تنتهي بربّة الجبال وهي تلعن رفيقها لتقلّب مزاجه، وهو ما يدلّ بوضوح على أن شعب بابل، كان قد أدرك أن للمياه جانبها السيّء الخطير المؤذي. لكن وفقا لنصّ نفس الأسطورة، فإن المحكمة السماوية تعترض على ربّة الأرض، وتحكم في النهاية لصالح ربّ المياه. هذا الحكم السماوي يؤدّي إلى اعتذار ربّة الأرض إلى ربّ المياه، واقتناعها بأنها يمكنها التخفيف من تأثير لعنها لرفيقها، بأن تعترف بالجوانب الإيجابية من أفعاله. هكذا يقودنا نصّ الأسطورة إلى إدراك، كيف أن التعاون بين المياه والأرض يمكن أن يكون مثمرا، وأنه هو الذي يؤدّي إلى استمرار الحياة. نجحت هذه الأسطورة في أن تعبّر بواقعية، عن طبيعة الحياة في جنوب بلاد الرافدين، حيث تكون الأرض جبلية والمياه هادرة.

ليس هناك ما هو أفضل من هذه الأسطورة، التي تسمّى أسطورة (أصل الحياة)، في تصوير حدّة الصراع بين الإنسان، وبين ظروف بيئته الصعبة، من أجل الحصول على ضرورات الحياة. كما أنها تعكس إيمان الشعب البابلي العميق، بأن هناك قوّة عليا ما، تفوق قوّة البشر، وتتحكّم في قوى الطبيعة، وبالتالي تتحكّم في حياة البشر، وأن على الإنسان أن يسعى، إلى التأقلم مع نزواتها، والى محاولة الحصول على رضاها.

من العجيب كذلك معرفة أن ربّ المياه هذا، كان يعتبر الها للحكمة وللقوى السحرية معا، ويعود هذا في الأساس، إلى الارتباط بين المياه، وبين نمو النباتات، التي تقوم عليها حياة البشر، فالمياه هي واهبة الحياة. لكن مما لا شكّ فيه كذلك، أن هذه القدرات الخاصة بربّ المياه، تعود إلى ظاهرة خاصة بتصرّفات المياه، وهي قدرتها على الدخول إلى عمق الأشياء، وعلى النفاذية والانتشار، وعلى تخلّل مسام الأشياء، حتى الصلب منها مثل الأحجار، فلكل حجر درجة مسامية. أدرك الشعب البابلي أن انتشار المياه، لا يكون فقط فوق سطح الأرض، ولكن المياه تتسلّل كذلك إلى باطن الأرض، أي إلى طبقاتها السفلية.

من العجيب كذلك ملاحظة ارتباط المياه بالأحكام القضائية، فقد كانت الحضارة

السومرية البابلية تمارس هذا الطقس، الذي انتقل من هناك إلى أوروبا، حيث ظلّ يُمارس حتى نهاية القرون الوسطى، أي حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، وهو طقس القاء البشر، المشتبه في اشتغالهم بالأعمال السحرية، في مياه النهر، لمعرفة إن كان الشخص بريئا أو مدانا، فإذا هو طفا فوق الماء كان بريئا، ونجا من المزيد من العقاب، وإذا هو غرق في الماء كان مدانا، ولقي بالغرق العقاب الذي يستحقّه. هكذا كانت المياه هي القاضي العادل، الذي يحكم بالبراءة أو بالادانة، ثم يقوم على الفور بتوقيع العقاب المستحقّ على الجاني.

في النصوص البابلية القضائية، التي تصفّ أو تسجّل مثل هذه الوقائع، أو مثل هذه الممارسات العقائدية، من المفيد معرفة أن كلمة (نهر)، في الكتابة المسمارية المستعملة في هذه النصوص، تسبقها دائما الكلمة المسمارية، التي تعني (الربّ)، أي أن كلمة النهر تأتي مصحوبة دائما بكلمة الربّ، هكذا الربّ النهر. لا غرابة في هذا على الاطلاق، فإن شعب مصر القديمة كذلك، اعتبر نهر النيل الها معبودا، معروفا باسم (هابي) أو (حابي)، وهما كلمتان تعنيان، الأولى الواهب العاطي، والثانية المحبّ. تطوّر الأمر فيما بعد، حتى استقر في الوجدان الشعبي، أي في الضمير العام لشعب بابل، أن ربّ المياه قادر، على أن يرفع اللعنات والتعاويذ الشرّيرة، من كتاب أنصبة البشر، أو أن يثبّتها عليهم.

هذه هي أيضا البداية في الاعتقاد، بأن المياه قادرة على تطهير الإنسان من أدرانه، ليس فقط القذارة المادية العالقة بجسده، ولكن كذلك القذارة النفسية العالقة بروحه. ثم ظهر هنا في وقت لاحق، على يد كهنة المعابد المختلفة، الاعتقاد بأن الإنسان، يمكنه أن ينقل نصيبه البائس، أو يحوّل أدرانه الروحية، من جسده هو إلى جسد حيوان، مثل الأبقار أو الخرفان، عبر طقوس وصلوات، ثم يقتل هذا الحيوان ذبحا، ثم يلقي بجثّته في النهر، وهكذا أوحى الكهنة إلى الشعب، بأن المذنبين من بينهم، قد تخلّصوا بممارسة هذا الطقس، من أدرانهم وذنوبهم، وأنه هكذا تمّ غفران خطاياهم لهم، وأنهم هكذا قد عادوا أبرياء كيوم ولدتهم أمهاتهم، وكانت هذه هي بداية الاعتقاد في فكرة (كبش الفداء scapegoat)، أي فكرة تقديم ذبائح حيوانية، تقرّبا إلى الربّ، الذي يغفر بالتالي ذنوب

الإنسان الذي يقدّم القربان. وهي فكرة حاكمة في حضارة وديانة الشعب اليهودي.

أنظروا إلى ما تقوله التوراة، بخصوص هذا الموضوع، في الاصحاح ١٦ من سفر اللاويين، وهو من الأسفار الخمسة الأولى، التي تعزى كتابتها إلى نبيّ الله وكليمه موسى، فيما يتعلّق بموضوع، كيفية خلاص ابنيّ هارون، من تبعات الخطيئة التي التصقت بهما، وأدّت إلى موتهما، بمجرّد اقترابهما من مذبح الربّ:

(٣- يدخل هارون إلى مذبح قدس الأقداس، ويأتي بثور لذبيحة خطيئة، وكبش لمحرقة. ٤- وعليه بعد أن يغتسل بالماء، أن يلبس قميص كتّان، وأن يرتدي سراويل كتّان، ويتعمّم بعمامة كتّان. ٥- يأخذ من شعب إسرائيل تَيْسَيْن من الماعز لذبيحة الخطيئة، وكبشا واحدا ليكون محرقة. ٦- فيقرّب هارون ثور الخطيئة تكفيرا عن نفسه وعن أسرته، ٧- ثم يأخذ التيسين ويقدّمهما أمام الربّ عند مدخل خيمة الاجتماع.

١٠- وأما التيس الذي وقعت عليه القرعة، فيوقفه حيّا أمام الربّ، ثم يطلقه إلى الصحراء، فهو كبش فداء. ١٦- فيكفّر من نجاسات بني إسرائيل وسيّئاتهم وسائر خطاياهم، ٢٠- ثم يأتي بالتيس الحيّ، ٢١- ويضع هارون يديه على رأسه، ويعترف بجميع خطايا بني إسرائيل، ويحمّلها على رأس التيس، ٢٢- فيحمل التيس ذنوب الشعب كلها إلى أرض مقفرة، ٢٣- ثم يدخل هارون إلى خيمة الاجتماع، حيث يخلع الملابس ويستحمّ).

٣- عِشتار ربّة الأمومة

من أسطورة تزاوج ربّ المياه مع ربّة الأرض والجبال، ثم إنجابهما للعديد من الربّات الاناث، يمكننا أن نستدل على مدى أهميّة وجود العنصر النسائي، في الأدب الديني للحضارة السومرية، وهنّ اللائي يمكن اعتبارهنّ، تنويعات على الموضوع الرئيسي، ألا وهو موضوع الربّة الأم، التي عُرِفَت لدى السومريين باسم إيننّا **Inanna**، وعرفت لدى الشعوب السامية من عموريين وآشوريين باسم عِشتار **Ishtar**، وهي الشخصية التي كانت تعتبر بين الشخصيّات الرئيسية، في كل الديانات القديمة، التي عبدت مظاهر

الطبيعة، وحوّلت عناصرها إلى أرباب وربّات.

إن الاهتمام الأساسي لدى الإنسان الأول، منذ عصور ما قبل التاريخ، كان يدور حول زيادة المحاصيل الزراعية، وزيادة عدد رؤوس قطعان الماشية، وزيادة عدد أفراد أسرته، وبالتالي زيادة عدد رجال القبيلة، أو عدد رجال مجموعته العرقية، الصالحين لقتال الأعداء من رجال القبائل الأخرى، وكذلك زيادة عدد النساء القابلات للحمل والولادة. وقد انعكس هذا على ملمحين رئيسيين، في تاريخ كل الشعوب القديمة، من بلاد الرافدين حتى أوروبا، أولهما هو عبادة ربّ كان يسمّى ربّ الاخصاب، يكون من بين أكثر الأرباب الذكور أهميّة.

ثانيهما هو أنه منذ أن سكن الإنسان الأول الكهوف الحجرية، ظهرت رسوم جدارية، لأشكال تبدو كما لو أنها كانت لنساء منتفخات البطون، أو كما لو أنهنّ كنّ حوامل. في مناطق حقول الحفائر الأثرية في بلاد الرافدين، مثل منطقة تل أسمر التي تعود إلى ١٥٠٠ ق م، تمّ العثور على أشكال أسطوانية من الحجر، غالبا كانت تستعمل كأختام، على الخامات التي تكتب النصوص عليها، وقد وُجِدَ منقوشا على أحد طرفيها شكلٌ نسائي ببطن منتفخ.

اعتقد الإنسان القديم، أنه وفقا لمبدأ التقليد أو المحاكاة، مع استعمال بعض التعاويذ السحرية، يمكن لهذه الصور لنساء حوامل، أن تكون ذات تأثير سحري، على الواقع المعاش، مع قيام هذا الإنسان القديم، بأداء بعض الصلوات البدائية القصيرة، التي لم يكن يعرف في ذلك الوقت المبكّر، إلى من يتوجّه بها، لكنها حتى قبل ظهور التجمّعات البشرية، وقبل ظهور الأديان الرسمية، كانت في ضميره الجمعي، مع إدراك لم يعرف مصدره، بقدرة بعض آلهته على الاتيان بالمعجزات، فيمكنه بذلك أن يحصل بالصلوات على النتائج المرجوّة.

وهكذا حدث في كل حضارات الشرقين الأوسط والأدنى، في زمن البدايات حوالي ٣٠٠٠ ق م، أي ألف عام قبل ظهور الديانات الابراهيمية، لدى كل الشعوب السامية،

باستثناء شعب إسرائيل، أن ظهر طقس التزاوج المقدّس، بين أرباب وربّات الديانات كلها، والحضارة السومرية هنا مثلٌ على ذلك، وهو الطقس الذي كان يمارس كرواية تمثيلية، في الممارسات الدينية المتكرّرة، في الأعياد والمناسبات المختلفة، وفيه يقوم الملك بدور الممثل الشخصي لربّ الاخصاب، المعروف في بابل باسم تمّوز، الذي أصبح لاحقا اسم شهر جني القمح، بينما تقوم بدور عشتار، واحدة من كاهنات المعبد. هذا هو المقصود بالتقليد أو المحاكاة.

كانت الرغبات الجسدية للربّة عِشتار لا يمكن إشباعها، لذلك كان كل من يحبّها مهما كانت قوّته، يستنفذ طاقته بالكامل، وصولا إلى الاستهلاك التام والموت، وهو ما تشير اليه هنا بعض السطور من ملحمة جلجامش:

أي عاشقٍ ذلك الذي أحببته إلى الأبد؟/ من مِن بين رعاة أغنامك ذلك الذي استطاع إرضاء نزواتك طول الوقت؟/ حتى تمّوز عشيق شبابك، فقد أصدرتِ حكما بالعويل عليه عاما بعد عام/ وعندما أحببتِ راعي الطيور الأرقط/ آذيته أذىً بليغا عندما كسرتِ جناحه/ وهو حيث يجلس الآن في البستان يبكي جناحه المكسور/ حتى عندما أحببتِ أسدا وهو المثالي في قوّته/ فقد حفرتِ له حفرا ليدفن فيها/ وفحل الثور الذي اشتهر في المعارك/ عندما أحببته أصدرت عليه حكما أن يضرب بالسياط/ وأن يقفز عبر مسافات شاسعة تقدّر بسبعة فراسخ/ وأن يشرب المياه الراكدة بما فيها من طين/ ثم أحببتِ حارس القطيع الذي كان يراكم أمامك الفطائر كل يوم/ ويذبح من أجلك صغار القطيع لتأكلي منها/ فقد حوّلتهِ إلى ذئب حتى أن كلابه قضمت فخذيه.

كان من بين عشّاق عِشتار، يمكننا أن نعثر على تمّوز، وهو ربّ النباتات والخضراوات، الذي يموت ويحيى كل عام مع محاصيله الحقلية، وهو الذي كانت عشتار في مواسم مواته، تذهب للبحث عنه في عالم الأموات السفلي تحت الأرض. وهو ملمح هام في هذه الأسطورة البابلية، إذ سينتقل منها إلى أساطير كل الحضارات المجاورة، ففي كنعان ستذهب عنّات **Annat**، للبحث عن جثّة بعل في العالم السفلي بعد وفاته، وفي مصر

ستذهب إيزيس للبحث عن جثّة أوزروريس بعد وفاته، وفي اليونان ستذهب (دايا ماتر) ربّة الأرض، للبحث عن كور بعد وفاته، وأفروديت عن أدونيس بعد وفاته.

إن بحث عِشتار عن تمّوز ربّ إخصاب الحقول، حتى في المواسم السنوية، لتراجع خصوبته ومواته المؤقّت، قد يكون بسبب رغبة البشر، في سقاية الأرض وزراعتها حتى في مواسم الجفاف. هناك كذلك إضافة جديدة في أسطورة كنعان في نصوص رأس شمرة، وهي أن اله الزراعة قد حاول، أن يحلّ محلّ بعل كبير الآلهة بعد وفاته، فتأكد الجميع من عدم قدرته، على ملء الفراغ الذي تركه موت بعل، فيطلبون من هذا البديل أن يخلي العرش، وأن يذهب للحصول على العقاب الذي يستحقّه في العالم السفلي.

هناك كذلك إضافة جديدة إلى شخصية عشتار، ففي فترة سبي بني إسرائيل في بابل، خلال القرون من السادس إلى الثالث ق م، عرفت عشتار بصفتها واحدة من أرباب القتال في الحروب، وهي صفة لم تكن لها على الاطلاق في بابل، وتفسير ذلك هو أن كفاءة عشتار كمقاتلة، ظهرت فقط لدى شعب إسرائيل، الذي كان دائم الدخول في معارك حربية مع جيرانه، في حين كان شعب بابل، يتمتع بقدر أكبر من الاستقرار، لعدم قدرة الشعوب المجاورة له على مهاجمته، بفضل تفوّق قوّته العسكرية على قوّتها.

كانت صفات عِشتار كربّة قتال، أكثر وضوحا في مملكة آشور، في شمال بلاد الرافدين، منذ القرن ١١ ق م، حيث ظهرت دائما إلى جوار ربّ أرباب تلك الحضارة المسمّى آشور، في الأشكال الفنية المختلفة من نحت وتصوير جداري، وكذلك ذكر اسمها مقرونا باسمه، في النصوص الملكية، وقد أضيفت اليها صفة (ذات الشجاعة المثالية)، وكذلك (التي كانت تشدّ عصب المقاتلين في ميادين القتال)، و(تقاتل معهم وتحطّم أعداءهم)، كما أنها عرفت بأنها قادرة على الظهور في أحلام الملوك، وتوحي اليهم بالرؤى، إلى أفضل الخطط لكسب المعارك الحربية.

ظهرت عِشتار في حضارات كثيرة مجاورة جغرافيًّا، ومتزامنة تاريخيًّا، مع حضارة آشور. ففي مصر مثلا في نفس الفترة الزمنية، أي في القرنين ١٢ و١١ ق م، ظهرت في

النقوش الجدارية المصرية، في زمن الأسرتين ١٩ و٢٠ من عصر الرعامسة، في الدولة المصرية الحديثة، أشكال لأسود يظهر عليه تأثير مدارس النحت الآشورية، رغم أنه قبل ذلك التاريخ، لم يكن الأسد يظهر في الفن المصري، لأنه ليس من الحيوانات المعروفة في مصر.

ثم حدث في القرون الأولى من الميلاد، في شبه الجيرة العربية، أن قامت قبائل الجنوب، بتسمية نجم الصباح الباكر، أكثر نجوم السماء لمعانا قبيل ظهور ضوء الفجر، باسم عشتار، ومن المعروف الآن أن هذا هو كوكب الزهرة **Venus**، وقد عبدته بعض هذه القبائل، على أنه الثالث في ترتيب الأهمية لديهم بعد الشمس والقمر، وقد ارتبط هذا النجم (عِشتار/ الزهرة) بالقتال، لدى تلك القبائل العربية، ولهذا السبب كانت أغلب الغزوات الحربية بين القبائل، تقع في الفجر، بعد التأكّد من وجود هذا النجم في السماء، للاستبشار خيرا بوجود ربّة القتال، إلى جانب صفوف مقاتلي القبيلة الغازية. وقد ساد هذا المعتقد كذلك في بالميرا، المدينة الدولة الواقعة في شمال الجزيرة العربية، خلال نفس فترة القرون الثلاثة الأولى من الميلاد.

٤- أرباب آخرون

إذا حاولنا في هذا الفصل من الكتاب، أن نذكر كل أسماء الأرباب، من كبارهم وصغارهم، في أدب الأساطير البابلية، فسيكون هذا مملًّا جدًّا ومربكًا. إلا أنه يمكننا رغم ذلك أن نذكر، أن أغلب هؤلاء الآلهة كانوا يظهرون بأسماء، ثم يعاودون الظهور بأسماء جديدة، وبألقاب وصفات جديدة، مثلما كان الحال في حضارات العالم القديم، فعندما تتغلب دولة على أخرى، كان يحدث أن ينتقل ربّ الدولة المنتصرة، إلى مجمع آلهة الدولة المنهزمة.

ففي مصر القديمة مثلًا، بعد أن كان رعّ في هليوبوليس، هو اله الشمس والخلق في الدولة القديمة، ظهر آمون كاله خلق في طيبة، وأصبح اسمه المعروف به هو آمون رعّ، أي أضيفت إلى صفاته كخالق، الصفات التي كانت قديما للإله رعّ، وهكذا. كان ذلك قد

حدث بعد انتقال عاصمة الدولة المصرية، من هليوبوليس إلى طيبة. وهكذا فإن أي ائتلاف أو اندماج سياسي بين مدينتين، كان يؤدّي إلى اندماج أو التحام بين أرباب المدينتين.

أولا: ربّ الشمس

في بابل الحامورابية، أي حوالي سنة ١٧٠٠ ق م، كان اله الشمس شاماش **Shamash**، هو أحد أكبر آلهة بابل، وأحد أكبر الآلهة نشاطا بشكل عام، وكان له اسم آخر يعرف به وهو بابّار **Babbar**، ومعناها المشرق المضيء. من المعروف طبعا أن العدو الرئيسي لربّ الشمس هو ربّ الظلام، الذي كان كذلك رمزا لكل ما هو شرّير وظالم، إذ ارتبط الظلام بالأشرار وبأفعالهم الدنيئة. وقد كان حال الظلام شبيها بذلك في كل ديانات الحضارات القديمة.

عند ذكر اسم شاماش، كانت هناك دائما نفس العبارات التي تتكرّر مرتبطة باسمه، مثل عبارة (الذي يحمل الشفاء في جناحيه)، وعبارة (الذي يطرد الأمراض بتعاويذه السحرية)، وعبارة (الذي ينصر المظلوم ويطالب له بحقّه أمام منصّة القضاء). وهذا في الحقيقة شيء ملفت للانتباه، أن استطاع شعب بابل أن يدرك، العلاقة بين حرارة شمس النهار والشفاء من الأمراض، وكذلك العلاقة بين ضوء الشمس وكشف الحقّ، إذ غالبا ما تتدثّر الأفعال الظالمة بظلام الليل، ولا يمكن فضح هذه الأفعال الا في ضوء النهار.

الا أن من أعجب الأشياء كذلك، معرفة أن ربّ الشمس في بابل، بعد أن يقضي نهاره كل يوم، مخترقا السماء من الأفق الشرقي حيث يشرق، إلى الأفق الغربي حيث يغرب، يبدأ كل ليلة بعد الغروب، في القيام برحلته الليلية، مخترقا مناطق العالم السفلي الاثنتي عشرة، خلال ساعات الليل الاثنتي عشرة، ليعود إلى الشروق من جديد، في صباح اليوم التالي. هذه هي نفس الفكرة التي اعتنقتها ديانات مصر القديمة، عن الإجابة على السؤال: أين يذهب اله الشمس بعد غروبه، خلال ساعات الليل.

كان اله الشمس خلال عبوره عالم الظلمات، يقوم كذلك بكشف كل خطايا البشر، المخبوءة بعناية في ظلام الليل، وهو بفضل هذا الفعل أصبح يعتبر الها للعدالة وللقضاء

العادل، وهذا هو السبب في ورود اسمه وصفته، في مقدّمة نصّ تشريع حامورابي، المكتشف على لوحة حجرية مشهورة، حيث نراه وهو يطالب كلّ الحكّام الأرضيين، بأن يكونوا عادلين في أحكامهم، إذ إنه البطل المنقذ لمظاليم شعبه، ونرى كذلك الملك الأرضي، وهو يقف أمامه خانعًا خاشعًا خاضعًا، يستلهم منه المبادئ التي سيحكم بها شعبه.

ثانيا: ربّ القمر

أمّا سين ربّ القمر، فقد حصل على شهرة كبيرة، في مجمّع الآلهة الآشوريين، كما أثبتت حفائر السير ليونارد وولي، في مدينة أور، وهي المدينة التي كانت أحد أهم مراكز عبادته، في جنوب بلاد الرافدين. إن القمر بصفته أحد عناصر الطبيعة، زادت أهميّته في المناطق الصحراوية الدافئة، التي يفضّل ساكنوها، حياة الليل المنعش المائل للبرودة، على حياة قيظ النهار المشمس المرهق، خاصة كون ليل الصحراء في المناطق الدافئة، لا توجد به سحب تغطّي السماء، كما يحدث في البلاد الباردة، وهكذا كان ظهور القمر، في السماء كل ليلة، وهو يتغيّر من هلال ضئيل الحجم، إلى بدر كامل الاستدارة، عنصرا هاما في قياس الزمن، ومؤشّرا باعثا على الاطمئنان، إلى أن هذا الربّ موجود هناك في السماء كل ليلة، والى أنه لن يسمح باختلال انتظام مرور الزمن.

بالإضافة إلى ذلك، كانت القوافل التي تعبر الصحراء، أحيانا في رحلات تستغرق الرحلة منها بضعة شهور، تعتمد اعتمادا كليّا على القمر للاستدلال على مرور الزمن، وكذلك على الاتجاهات التي من المفروض أن يسلكوها، دون الاعتماد على أيّة عوامل مساعدة أخرى. كانت معرفة المدّة الزمنية التي تستغرقها الرحلة الصحراوية، عنصرا هاما في تحديد حجم المؤن اللازمة للقافلة، من مأكولات ومشروبات وملابس، قبل الخروج إلى الصحراء، ثم الوصول بعد حين طال أو قصر، إلى أقرب مدينة.

وقد تعود بداية الاهتمام بالقمر إلى السومريين الأوائل، حوالي ٣٠٠٠ سنة ق م، الذين عبروا صحراء فارس، وجاؤوا إلى بلاد الرافدين للاستقرار فيها، إلى جوار نهرين

عظيمين. وهكذا استمرّ الاهتمام بالقمر في شبه الجزيرة العربية، حتى ظهور الإسلام، حيث كان النشاط البشري الرئيسي لأهل الجزيرة هو التجارة، وحيث كانت هناك دائما قوافل تجارية، متجهة إلى الشام شمالا في موسم الصيف، والى اليمن جنوبا في موسم الشتاء. هذا هو السبب في استمرار اهتمام العرب، بالشهور والسنوات القمرية (السنة ٣٥٤ يوما)، أكثر من اهتمامهم بالشهور والسنوات الشمسية (السنة ٣٦٥ يومًا).

ثالثا: نيبو

كما هو معروف فإن الهلال هو رمز اله القمر، الذي قد يرسم فوق رأسه، أو يرسم على عمود يمسكه بيده، الا أن هناك أربابا آخرين، يظهرون في التصاوير والنقوش الجدراية، في معابد بابل وآشور، وقد نقشت إلى جوار رؤوسهم، علامات خاصة تدلّ على شخصيّاتهم، من بينها علامة المثلث المتساوي الساقين، وهو قريب الشبه من رأس الرمح المعدني، المثبّت في طرف الرمح، كما أن هناك كذلك الشكل القريب من وتد الخيمة، الذي يدقّ في الأرض لتثبيت أطراف الخيمة. كان رأس الحربة المعدني هو رمز للاله المقاتل (مردوخ)، أما المثلث المتساوي الساقين، القريب الشبه من وتد الخيمة، فهو دلالة على الثبات والاعتدال، وهو رمز اله الحكمة والمعرفة والفصاحة اللغوية (نيبو).

كان نيبو ربّا للكلمات المنطوقة والمكتوبة، وهو لذلك كان الإله الذي يقوم بتوصيل الرسائل بين الأرباب. لكن بالإضافة إلى ذلك كان معروفا بالذكاء وبالمكر والدهاء، لذلك كان الها للتجارة واللصوصية، وقد رأى القدماء أن التجارة واللصوصية، لا ينفصلان عن بعضهما، فإذا أردت أن تكون تاجرا، أصبح ينبغي عليك أن تكون لصّا. كان كوكب عطارد هو الكوكب الخاص بالإله نيبو، وعطارد في الإنجليزية هو ميركوري Mercury، ومن المعروف كذلك أن هذا هو الاسم، الذي أطلقه القدماء، على السائل الفضّي اللزج اللامع البرّاق، المعروف بالزئبق، لأن الإنسان لا يستطيع أن يقتنصه، أو أن يقبض عليه في يده، لشدّة مكره ولصوصيّته.

توحّد ميركوري في الأساطير الرومانية، مع هيرميس في الأساطير اليونانية السابقة،

محتفظا بنفس الخصائص التي عرفت عنه في الأساطير البابلية. من العجيب أن هرميس بدوره كان في السابق، قد توحّد مع جحوتي في الأساطير المصرية، وأنه هناك قد اختير له رمز طائر الأيبيس (أبو قردان)، الذي يسير متهاديا، فيعطي الانطباع بالحكمة، الا أنه كان يظهر كذلك أحيانا في صورة قرد البابون، ليعطي الانطباع بالمكر والدهاء واللصوصية.

من العجيب كذلك معرفة أن نيبو في الأساطير البابلية، هو الربّ الذي كان مسؤولا أمام بقيّة الأرباب، عن نقل رسائل الأرباب إلى الشعب البابلي، أي أن نيبو كان المتحدّث الرسمي باسم الأرباب، والناطق بلسان الأرباب، وهو ما جعل بعض اللغويين يقترحون، أنه الأصل اللغوي الاشتقاقي **etymologic**، للكلمة العبرية الدالة على أنبياء التوراة **prophet**، وهي كلمة **nabi**، التي تنطق نبيّ، ومعناها في العبرية المتحدّث باسم الربّ. الا أن بعض علماء المصريّات، يقترحون أن يكون الأصل اللغوي لكلمة نبيّ، هو من الكلمة المصرية القديمة (نب.إي) وتعني سيّدي ومعلّمي.

رابعا: مردوخ

هو الربّ الذي يحمل علامة رأس الحربة إلى جوار رأسه، الذي كان في بداية ظهوره يعتبر الربّ المحلّي لمدينة بابل، في الفترة العمورية أي بين ١٨٢٦ ق. م. و١٥٢٦ ق م، ثم حلّ تدريجيّا محلّ إينليل **Enlil**، ربّ الرياح والعواصف، في منصب النائب الأول لربّ الأرباب، والقائم بأعمال مديره التنفيذي، لبرنامجه الخاص بشعب بابل. بصفته تلك أصبح مردوخ، يلعب دورا مساندا لدور ربّ الأرباب، ضد كل معارضيه من قوى الشرّ.

وهكذا فإنّه عند لعب الأدوار التمثيلية، في مسرحيات طقوس الاحتفالات بالأعياد الدينية المختلفة، خاصة خلال الاحتفال بعيد مقدم العام الجديد، كان الكاهن الذي يقوم بدور مردوخ، يقوم برفع حربته أو رمحه، موجها رأس الحربة، إلى وجه قوى الفوضى والدمار، التي كانت تسود المسكونة، قبل خلق العالم. هذه التمثيليات بأدوارها المختلفة، انتقلت إلى أساطير وطقوس الحضارة الكنعانية، حيث اتخذ مردوخ اسما جديدا هو حدّاد

Haddad، الذي سيعرف لاحقا في سوريا وفلسطين، ويظلّ رمزه هو الحربة.

ثم سيتحوّل اسمه إلى كلمة كنعانية تعني (السيّد) أو (الآمر) أو (المطاع)، وهي في الكنعانية كلمة (بعل)، ويصبح كبير آلهة كنعان، ويظل رمزه كذلك هو الحربة. ثم يعود إلى شمال العراق في زمن الآشوريين، ليصبح مرّة أخرى كبير آلهة شعبه، ويظلّ رمزه هو الحربة، ويطلق عليه اسم (آشور)، ليسمّى بعد ذلك كل شعبه على اسمه، ويصبحون الآشوريين. سيظهر خلال فترة حكم الملك آشور ناصر بعل الثاني **Ashur nasir baal**، بين ٨٨٣ ق م و٨٥٩ ق م، في آثار شمال العراق، خاصة في مدينة نمرود **Nimrud** العاصمة، وقد أمسك في يده بدلا من حربة القتال، عمودا يشبه صاعقة البرق.

خامسا : ايريش كيجال ونِرجال

هما قوّتان من قوى الشرّ، الموجودة في العالم السفلي تحت الأرض، وقصّتهما تعطينا فكرة واضحة، عن تصوّرات شعب بلاد الرافدين، فيما يتعلّق بالعالم السفلي. نحن لا نزال نتذكّر أن الالهة عِشتار قد ذهبت إلى العالم السفلي، للبحث عن تمّوز ربّ الاخصاب، الذي كان يمرّ في ذلك الوقت بمرحلة موات مؤّقت، وكان على عِشتار أن تمرّ عبر سبع بوّابات، لتصل إلى نهاية رحلتها.

أثناء عبور هذه البوّابات، قامت الربّة الشرّيرة إيريش كيجال، التي يمكن اعتبارها الجالسة على عرش السلطة المطلقة في العالم السفلي، بتجريد عِشتار من شاراتها الإلهية الدالة على كيانها المقدّس. إيريش كيجال كانت معروفة باللفظ السومري القديم الذي يعني (ربّة)، وهي كلمة (اللاتُ). في مصر القديمة كان يحدث كذلك نفس هذا المرور بالبوّابات، أثناء عبور العالم السفلي، ولكنها كانت اثنتي عشرة بوّابة بعدد ساعات الليل، يقف أمام كلٍ منها حرس من الثعابين المجنّحة، لا يسمحون للمتوفّى بالمرور، الا إذا كان يعرف كلمة السر، الخاصة بكل بوّابة، لذلك كان كهنة مصر القديمة، يبيعون للأغنياء قبل وفاتهم، الكتب التي تحتوي كلمات السرّ الخاصة بكل البوّابات.

أما نِرجال فهو ربّ التدمير الشامل، إمّا بواسطة الحروب، أو بالظواهر الجوّية مثل

البرق، أو بالأوبئة مثل الطاعون. لم يكن الإنسان القديم يفهم من أين يأتيه هذا البلاء، من نوع البرق والطاعون، فكان يعزيه إلى أرباب الشرّ مثل نِرجال، ثمّ وحتى نهايات القرن الثامن عشر الميلادي، كان الإنسان يعزيه إلى غضب الله، ذلك قبل أن يتمكن العلم الحديث، من أن يشرح للإنسان، من أين يأتيه البرق والطاعون.

استطاع نِرجال ذات يوم، أن يخترق دفاعات العالم السفلي، كما لو كان مملكة ذات أسوار وحراسات، ثم يضع حرسه الخاص أمام كل البوّابات، ويتمكن من محاصرة القصر الملكي، وإنزال إيريش كيجال عن عرشها. هو نوع من الصراعات البشرية الطابع، التي كان الآلهة رغم عدم بشريتهم، يقعون فيها. حتى لا ننسى أن كل الآلهة هم من صنع البشر. لكن نِرجال أبقى على حياة إيريش كيجال عندما توسّلت اليه، ثم تزوّجها لكنه أبقى على مقاليد حكم العالم السفلي بين يديه. طباع الآلهة هي نفسها طباع البشر.

الفصل السابع
أساطير بلاد الرافدين

١- نشأة الأساطير

إن الأساطير التي ورثتها الشعوب السامية، في الألف الأول قبل الميلاد، وظهرت آثارها في كتاب مثل توراة الشعب اليهودي، كانت قد ورثتها عن الشعوب السومرية والبابلية والكنعانية، وهي الشعوب التي أنتجتها في الألف الثالث، أو في الألف الثاني قبل الميلاد. هذه الأساطير هي مثل لوحات تشكيلية من فسيفساء **mosaic**، تعالج غالبا نفس الموضوعات، لكنها في كل مرّة، باستعمال عناصر متغيّرة الأحجام والألوان والأشكال.

إذ كان يحدث في كل مرة، تنتقل فيها أسطورة من مكان إلى آخر، من بابل أو أور أو نمرود، إلى أوجاريت أو أورشليم، أو من زمن إلى آخر، أن تدخل عليها تعديلات متفاوتة الأهمية. وبذلك يمكن اعتبار الأساطير مثل الكائنات الحيّة، الدائمة التغيّر والتبدّل مع مرور الزمن. إذن هو مشهد دائم التغيّر في تكويناته، لكنه يحتفظ تقريبا بنفس المكوّنات، نفس الشخصيّات ونفس الأحداث، ولا تحدث التغييرات الا في التفاصيل. هذا في الواقع هو ما يدعو غالبا إلى الحيرة والتعجّب، وأحيانا إلى الذهول.

لكن كل شخصيات هذه الأساطير تبدو مسلّية تماما، خاصة ملحمة (جلجامش **Galgamesh**)، وهو اسم قديم لأحد ملوك مدينة (أورك) الأوائل. في ذلك الوقت البعيد،

لم تكن هناك دول، بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة في العصور الحديثة، بل كانت كل مدينة هي مملكة مستقلّة، أو دولة مستقلّة city state.

إن هذه الملحمة بصرف النظر عن المقصود بمعانيها الأصلية، كانت غالبا ما تقرأ أو تحكى، في ذلك الزمن القديم، في أماكن اللقاءات العامة، أو في التجمّعات العائلية، أو في اللقاءات الحميمة، وفقا لطبيعة تفاصيل الجزء المروي، مثلما سيصبح الحال لاحقا مع قصص ألف وليلة الفارسية العربية، التي كانت تقرأ أو تروى بمصاحبة عازف ربابة، في المقاهي الشعبية في فارس والبلاد العربية، حتى منتصف القرن العشرين.

يمكننا الاستدلال على شعبية هذه الملحمة، وعلى انتشارها في كل البلاد المجاورة للعراق القديم، بحقيقة عثور البعثات الأثرية الأجنبية، على شقافات من الفخّار، أو على ألواح من الطين المحروق، عليها نصوص بالكتابات الآرامية أو السريانية، تمّ تأريخها بالقرن الثاني عشر قبل الميلاد، تروي أجزاء من سيرة وملحمة الملك جلجامش، في موقع حفائر مدينة مجدّو التي تقع في وسط فلسطين. بشكل عام توحي لنا هذه الأسطورة، بأنها في الأصل كانت قد جاءت من مصادر متعدّدة، وتجمّعت أجزاؤها واحدا بعد الآخر في بلاد الرافدين.

من الجدير بالذكر أن شخصيات ملحمة جلجامش، تتميّز بالطابع الحركي والدرامي العنيف، سواء أكانوا من أبطال الملحمة، أو من الأبطال الضدّ، أي من أولئك الواقفين ضدّ أبطال الملحمة، إذ كان هذا الإنسان السومري المبكّر، قد أدرك وجود القوى المتضادة المتضاربة في الطبيعة، مثل أن يكون النهر هو صاحب الفضل في إنماء الزروع، الا أنه هو كذلك الذي يفيض فيغرق الأرض والبشر، ومن هنا ظهرت الثنائيات مثل الخير والشر، والنور والظلام، والعدل والظلم، والنظام والفوضى.

ومن هنا جاء التقسيم بين الأدوار التي كان الكهنة يلعبونها، في طقوس تمثيليات الاحتفالات الدينية في المعابد السومرية، فهناك كاهن طيب يلعب دور النهر جالب الخيرات، وهناك كاهن آخر شرير، يلعب دور النهر جالب الكوارث والأزمات، وكل

أبطال كلا الجانبين هم من الأرباب وليسوا من البشر، وهؤلاء الأرباب هم كلهم من قوى الطبيعة، التي تمّ تحويلهم إلى آلهة، ثم تمّ تصويرهم في تمثيليات المعابد، أو في أحداث الملاحم، على أنهم كائنات بشرية، يتميّزون بقدر غير عادي من القسوة والحدّة والعنف.

هذه الملحمة السومرية، مثل غيرها من الأساطير السومرية، تكشف عن الأفكار الفلسفية، التي كانت سائدة في زمنها، فرغم الغموض الشديد، والكثير من علامات الاستفهام، التي تحيط ببشر تلك الفترة الزمنية المبكّرة، من تاريخ الحضارة البشرية، إذ إنهم لم يكونوا قادرين على إدراك حدود الكون، ولا حتى إدراك حدود المنطقة الجغرافية التي يسكنونها، ولا على فهم كيفية عمل عناصر الطبيعة المحيطة بهم.

وهكذا فإن سؤال بسيط مثل (من أين تأتي مياه الأنهار؟) كان يحيّرهم جدا، فهم لم يكونوا يستطيعون الانتقال بسهولة، بين مصبّ النهرين في جنوب بلاد الرافدين، وبين منابعهما في جبال تركيا وأرمينيا، وهكذا فإن أغلب الحضارات القديمة مثل البابلية أو المصرية، قد أجابت على هذا السؤال بأن (مياه النهر تنبع من الجنّة)، وهو نفس ما ستذكره التوراة في سفرها الأول (التكوين)، رغم أنه من المفترض أن تكون المعرفة الموجودة في التوراة هي من الله، الا أن النصّ الذي أوحى به الله إلى نبيّه موسى، لا يختلف على الاطلاق عن معارف الشعوب البدائي.

أنظروا إلى ما يقوله الاصحاح الثاني من سفر التكوين (١٠- وكان نهر يجري في عدن ليسقي الجنّة، وما يلبث أن ينقسم من هناك إلى أربعة أنهر. ١١- الأول منها يدعى فيشون، الذي يلتفّ حول أرض الذهب. ١٣- والنهر الثاني يدعى جيحون، الذي يحيط بجميع أرض كوش. ١٤- والنهر الثالث يدعى داقل/ دجلة، وهو الجاري في شرق آشور. والنهر الرابع هو الفرات). لا يختلف نصّ التوراة عن نصوص الأساطير السومرية والمصرية القديمة. تتفق أغلب المصادر على أن بلاد كوش هي شمال شرق السودان، أو بلاد الحبشة، وفيها منابع النيل.

كان السومريّون الأوائل، يحاولون أن يتأمّلوا في أصل الكون، وفي نشأة الإنسان،

كما حاولت بعض أساطيرهم، معالجة موضوعات اقتصادية واجتماعية، مثل العلاقات المتشابكة، من جهة بين الإنسان والطبيعة التي تحيط به، ومن جهة أخرى بين الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه. وقد أدركت هذه الحضارات القديمة، أن استمرار الحياة هو الدليل على أن جميع عناصر الكون والطبيعة والكائنات، قد وصلت إلى مرحلة من النظام والتناغم والانسجام، وأنه من الضروري لاستقرار هذا النظام، وجود أرباب يسيطرون على مقاليد الأمور.

ورغم ما تبدو عليه شخصيّات هذه الأساطير، من قسوة وخشونة مشاعر، وتقلّبات مزاجية حادة، فإنه يمكننا إدراك أن خلف هذه الشخصيّات والأحداث، إمكانية وجود نظام، وذلك لأن العقل البشري لدى الإنسان السومري البدائي، الذي استطاع أن يدرك إنقسام الموجودات إلى ظواهر طبيعية مثل الأنهار والرياح، وجوامد مثل الجبال والأحجار الكريمة، وكائنات حيّة مثل النباتات والحيوانات والبشر، واستطاع أن يعطي كل هذه الأقسام من الموجودات، أسماءها التي عرفها بها، هو نفس العقل البشري الذي اخترع شخصيّات هذه الأساطير وأحداثها.

وحدث أنه عندما اكتشف علماء اللغات القديمة، طريقة فهم وفكّ شفرة، الكتابة المسمارية السومرية القديمة، أن أدرك هؤلاء العلماء، أن الكتابة السومرية، مثلها مثل الكتابة الهيروغليفية في مصر القديمة، قد استعملت الأسماء والأفعال والحروف، ثم اخترعت قسما آخر من الكلمات هو ما يسمّى (مُحَدّدات **determinatives**)، بحيث يوضع أمام كل الأفعال محدّد يدلّ على أنها أفعال، ويوضع أما كل الأسماء محدّدات مختلفة، تدلّ على أن الكلمات المختلفة، هي لجماد أو لنبات أو لحيوان.

ورغم هذا التعقيد النسبي لأسلوب الكتابة، فإننا نشعر عند قراءة النصوص السومرية القديمة، التي تحكي لنا قصصا عن الجوامد والنباتات، بقدر كبير من السذاجة في المفاهيم، و الفجاجة في المشاعر، وهو ما يمكن أن يعزى الى، سذاجة مفاهيم الإنسان البدائي، والى فجاجة مشاعره. هذا بالإضافة إلى الاعتقاد، الذي ساد أغلب تلك

الحضارات القديمة، وما زال سائدا لدى بعض القبائل المعزولة عن العالم، في غابات أفريقيا وفي أمريكا الجنوبية، من أن لكل شيء من هذه الأشياء من جمادات ونباتات روحا تحرّكه، مثلما هناك روح لكل كائن حيّ آخر، من بشر وحيوانات، وهو ما تمّ تعريفه لاحقا باسم مبدأ (حيوية المادة **animism**).

فإذا كنتَ إنسانا بدائيا، تعيش في بيئة خصبة، بها الكثير من العناصر الطبيعية، متل تلك التي كانت متوفّرة في بلاد الرافدين، من أرض خصبة ومياه وفيرة ونباتات تنمو في الحقول، فإنك لا يمكنك أن تفشل حتى بذكائك البدائي، في إدراك إمكانيّاتك أنت كإنسان، فتبدأ في تعلّم الزراعة، وفي تنظيم الدورات الزراعية، وفي تخزين المحاصيل، وفي إقامة التجمّعات البشرية. لكنك كذلك لن تفشل في إدراك حقيقة، أنك إزاء هذه الطبيعة الخصبة، تقف في أحيان كثير عاجزا محدود الامكانيات، أمام تقلّباتها المزاجية ونزواتها الحادة.

ففي مواجهة نهرين عملاقين متقلّبي المزاج، مثل نهري دجلة والفرات، بمواسم فيضاناتهما التي كانت قادرة بهوجائيّتها، وبسبب موسم فيضان واحد، على أن تحوّل إقليما مزدهرا، إلى إقليم دمار شامل وفناء تام، خلال زمن جيل كامل، أي خلال ثلاثين عاما. هذا هو السبب الحقيقي وراء مظاهر قسوة الأرباب في الأساطير السومرية، وهو أيضا السبب في الفرق الملحوظ بين هذه القسوة من ناحية، وبين رقّة مشاعر أغلب الأرباب المصريين من ناحية أخرى، الذين عاشوا في وادي النيل، الذي كان على درجة كبيرة من الهدوء، وبفيضانات أكثر رحمة بكثير، من فيضانات دجلة والفرات. بالإضافة إلى أن إقليم العراق يعرف مواسم شديدة القيظ صيفا، إذ تحيط به صحراء مشهورة بعواصفها الساخنة، المحمّلة بالأتربة والرمال وبأسراب الجراد.

وهكذا تمكنّت الدراما التمثيلية، مع المحاكاة الخارجية للأشكال الإنسانية، من تحويل أرباب الأساطير السومرية إلى بشر، لهم عواطف وانفعالات البشر، وهو ما سينتقل بالكامل إلى ربّ التوراة، فهو رغم كونه الها واحدا، لا شريك له في مُلْكه، الا أنه

يشارك البشر مشاعرهم، فيفرح ويغضب وينفعل وينتقم، مثلما كان أرباب بابل يفعلون. هذا التورّط العاطفي الانفعالي، يبدو بوضوح في الأساطير، التي تحوّلت أحداثها إلى مناظر تمثيلية في طقوس العبادات.

هذا هو ما كان يحدث مثلا، في يوم الاحتفال بمقدم فصل الربيع، ويسمّى يوم الانقلاب الربيعي، وبالانجليزية الكلمة هي **equinox**، وكلمة **equi** تعني أن يتساوى، وكلمة **nox** تعني الليل، وتعني أن يتساوى طول الليل مع طول النهار، بعد أن كان النهار في فصل الشتاء أقصر من الليل، فينقلب الحال في فصل الربيع، ليصبح النهار أطول من الليل، وهو ما يعني كذلك ارتفاع درجات حرارة الجوّ، وبالتالي ذوبان الثلوج فوق قمم جبال أرمينيا وتركيا، وفيضان مياه نهري دجلة والفرات. هنا يصبح العالم الذي يعرفه الإنسان السومري مهدّدا.

في هذه الأوقات الحرجة، يتعاون الإنسان مع الأرباب، لإنقاذ العالم الذي يعيش فيه الإنسان، من ذلك الصراع الأبدي بين النظام والفوضى، وهؤلاء الأرباب هم قوى الطبيعية، التي سبق لها في الدراما الطقسية أن تحوّلوا إلى بشر.

بهذه الدراما الطقسية التي ينطق فيها الكهنة، بالكلمات الانفعالية القويّة المؤثّرة، تمكَن الإنسان من أن يعبّر عن مخاوفه وآماله وأحلامه، لكي يخفف عن نفسه الانفعالات العاطفية الحادة، التي عادة ما كانت تنتابه، في هذه الأزمة الموسمية المتكرّرة، عند كل موسم فيضان، بتجديد إيمانه بأن قوى العناية الإلهية **providence** لدى أربابه، لا يمكن لها أن تتخلّى عنه، فيتركه الأرباب ليسقط فريسة، في يد قوى الطبيعة التي لا ترحم.

هذه الكلمات المشار اليها أعلاه، والموصوفة بالانفعالية القوية المؤثّرة، هي الأصل في كلمة أسطورة في اللغات الأوروبية **mythology**، باليونانية **myth**، ومنها جاءت الكلمة الفرنسية **mot**، التي تعني كلمة، والكلمة **motto** وتعني شعار، والكلمة الإنجليزية **mute**، وتعني دون نطق كلمة، وكلها تشير إلى قوة الكلمة، التي ينطق بها الكاهن خلال الصلوات، أثناء طقوس العبادات في المعابد وفي الأماكن المقدّسة، فتتحوّل الأشكال

الغامضة للطقوس، إلى المعاني المحدّدة التي يفهمها البشر المؤمنون بهذه الصلوات والطقوس.

هكذا يصبح التعبير اللفظي، هو الأكثر تأثيرا، وفقا لممارسات كل الديانات القديمة والحديثة، فالكلمة المنطوقة الملفوظ بها، هي الأداة السحرية للاقناع.

٢- مهرجان يوم الكفّارة

كان هذا العيد هو كذلك يوم العيد الكبير، ويوم الاحتفال بالعام الجديد، وكانت مراسم هذا الاحتفال هي الطريقة الذكيّة، لربط المؤمنين بالمعتقدات الدينية السومرية، وجعلهم يمارسون طقوسها بشكل إيجابي نشيط. من ناحية أخرى اعتقد الشعب السومري أن هذه الطريقة، هي الوسيلة المثلى للتأثير في الأرباب.

تبدأ مراسم الاحتفال بالعام الجديد، يوم الانقلاب الربيعي في بداية فصل الربيع، بطقس شعائري في شكل تمثيلية مسرحية، تدور أحداثها وحواراتها بين أرباب نظام الكون، الذين يتحكّمون في فصول السنة، وبين أرباب الفوضى الذين يتحكّمون في مياه الفيضانات، ينتصر طبعا في نهايتها أرباب النظام الكوني المستقرّ.

كانت هذه الممارسات متشابهة لدى كل شعوب المنطقة، السومريين والكنعانيين والعبرانيين، عند الاحتفال بمقدم السنة الجديدة، حين أصبح ربّ النظام يتمثّل في صورة الملك الأرضي. يمكن لنصوص التوراة في نبوّاتها المختلفة، أن تقدّم لنا الدليل، على أن هذا الاعتقاد قد ساد في إسرائيل، وامتدّ من المجال الديني، لينعكس على التاريخ السياسي. هذا هو ما أضاف الكثير من التماسك والترابط إلى الأسطورة التوراتية، والى الطقوس الكهنوتية الإسرائيلية، فالملك هو نفسه ربّ الأرباب.

كانت هذه الفكرة في بابل، تختصر في عبارة واحدة، هي وجود الربّ منعزلا (في الأعالي حيث الارتفاع) أو (حيث السموّ) أو (حيث التعالي إلى السماء). وتدوم الاحتفالات أربعة عشر يوما، تنقسم إلى فترتين، تدوم الفترة الأولى أربعة أيام. وقد وجدنا في شمال العراق، عند أطلال مدينة نينوى، حيث موقع مكتبة الملك آشور باني بال،

فيما اعتبر بقايا قصره، نصوصا محفورة على ألواح حجرية، وكذلك وجدنا في جنوب العراق، في مواقع مختلفة، نصوصا مكتوبة على شقافات فخّارية (أوستراكا ostraca)، تشير كلها إلى مهرجان الأيام الأربعة.

عمر أحدث هذه النصوص هو على الأقل ١٠٠٠ عام ق م، وأقدمها عمره ٢٠٠٠ عام ق م، وقد أدركنا أن هذا الفرق الزمني، يبدو واضحا في الاختلاف بين أسلوبي الكتابة السومرية، الذي تغيّر كثيرا بين هذين التاريخين، كما هو الحال في الكتابة الهيروغليفية مثلا، التي تمرّ خلال ثلاثة آلاف عام، بثلاث مراحل تاريخية في تطوّرها، الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية. كان هذا الاحتفال بيوم الكفّارة سائدا إذن، على زمن الملك حامورابي العموري، حوالي سنة ١٧٠٠ ق م، والى هذا الزمن تعود، أكثر نصوص الاحتفال بهذا العيد اكتمالا.

الا أن مسألة الارتباط بين مهرجان الاحتفال بالعام الجديد، وبين يوم الانقلاب الربيعي، تعود إلى زمن أقدم بكثير من سنة ٢٠٠٠ ق م، إذ ربط الكثير من الحضارات القديمة، فكرة بداية العام الجديد، بمقدم فصل الربيع، بما فيه من ازدهار ثمار الأشجار، ونموّ محاصيل الشتاء خاصة القمح في الحقول. وذلك بسب أن أغلب الحضارات القديمة، التي استقرّت في أودية أنهار العالم الكبرى، في مصر والعراق والهند والصين، كانت حضارات زراعية.

ارتبط هذا الحدث الجغرافي الطبيعي، في بلاد الحضارات القديمة، بفكرة انتصار ربّ الاخصاب والنماء، على ربّ الجفاف والعقم. أما في مهرجان الكفّارة في بابل القديمة، وهو نفسه مهرجان الاحتفال بالعام الجديد، فقد ارتبطت فكرته كذلك، بفكرة الربّ الذي يعتزل العالم، خلال الثلاثة أيام الأول من المهرجان، ثم عودته إلى شعبه في اليوم الرابع، بعد الحاح ورجاء وصيام الشعب كله.

فإذا كانت عبارة (في الأعالي)، المشار اليها في فقرة سابقة من هذا الفصل، تذكّرنا بالنشيد الترنيمة (المجد لله في الأعالي)، الذي قال الإنجيل إنه جاء على لسان الملائكة،

ليلة مولد يسوع المسيح، فإن موت يسوع المسيح، ودفنه في القبر، ثم عودته في اليوم الثالث، من عالم الأموات إلى عالم الأحياء، تزيد التشابه بين الأسطورتين البابلية والمسيحية، عبر وسيط زمني لم يكن الا نصوص التوراة، وطقوس المعابد اليهودية.

وحيث إن هذا المهرجان، كان يعتبر مناسبة قوميّة لتجديد قوى كل البشر والأرباب، فقد كانت فترة الأربعة عشر يوما الخاصة بهذا المهرجان، هي إجازة رسمية من الأعمال في عموم مملكة بابل، بحيث يتمكن جميع أفراد الشعب، من الاشتراك في مهرجان الاحتفال، في كل معابد الربّ (مردوخ)، في جميع المدن البابلية. كان من المفروض أن يصوم الجميع عن الطعام، خلال الأربعة أيام الأولى، أو على الأقل خلال اليوم الرابع، وهو اليوم الذي يتوقّع فيه الشعب، عودة الربّ من عزلته المؤقّتة، في الأعالي فوق الجبال، أو في المملكة السماوية.

في اليوم الرابع: كان الملك الأرضي للبلاد، يلعب دوره في مسرحية معروفة باسم (التخلّي عن العرش)، وهي حتى الآن ذروة الأحداث، بحيث يتمّ التخلّي عن العرش بشكل طقسي شعائري، في معابد الربّ (مردوخ)، إذ يقوم أحد كهنة المعبد، بنزع شارات الملكية ورموز السلطة، من فوق ملابس الملك، ثم يركع الملك على ركبتيه أمام صورة الربّ (مردوخ)، الموجودة في المعبد، ويعلن بصوت مرتفع أنه ينكر مسؤوليته، عن أيّ تهمة فساد أو ظلم أو طغيان، ارتكبت في حقّ شعبه، إبّان العام المنصرم، من وجوده على عرش البلاد، في قمّة السلطة.

هنا يظهر الربّ مردوخ عائدا من مكمنه الجبلي، ومن عزلته المؤقّتة في (الأعالي)، التي يمكن أن تفهم على أنها (السماء)، أو على أنها (العالم الآخر) أو (عالم الموتى)، ويقوم بلعب دوره أحد كهنة المعبد. تعتبر هذه اللحظة هي نقطة تحوّل هامة، في هذا العرض المسرحي، الذي يستغرق أربعة عشر يوما، إذ يعتبر ظهور مردوخ هنا هو عودة من الموت إلى الحياة، ورمزا لانتصار الحياة على الموت، فالذهاب إلى السماء كان مرادفا للموت.

ثم يقوم مردوخ (أي الكاهن الذي يلعب دوره) بإعادة تتويج الملك الأرضي للبلاد. لكن هنا كان يأتي أحيانا طقسٌ غريب، لم ينجح علماء اللغات القديمة في تفسيره، إذ يقول النصّ إن الكاهن الأعلى للمعبد يقوم بتوجيه صفعة، إلى وجه الملك المعاد تتويجه! فما معنى هذا؟ قد يكون هذا دلالة على أن الملك الأرضي هو خادم لكهنة معبد مردوخ، أو أن سلطة كهنة هذا المعبد تفوق سلطة الملك.

فإذا جلبت هذه الصفعة الدموع إلى عيني الملك، اعتبرت هذه إشارة إيجابية، تدلّ على ندم الملك على ذنوبه، وعلى اتخاذه صفات التواضع والانسحاق، وهي صفات مستحبّة في الملوك، وفقا لمقاييس ذلك العصر، وبالتالي فهو يستحق لقب (خادم الربّ). كل هذه الطقوس والممارسات والمفاهيم، ستنتقل إلى الديانتين الكنعانية والتوراتية، وبعضها سيتبقّى بوضوح شديد في الديانة المسيحية.

في اليوم الخامس: كانت المعابد ترشّ أولا بالماء، ثم تعفّر ثانيا بالأبخرة المتصاعدة من مئات المباخر. وهو ما سيحدث لاحقا، بالضبط في المعابد اليهودية في إسرائيل، في طقس الاحتفال بما يسمّى (كبش الفداء)، حيث كانت ذنوب الشعب تحلّ في عنزة أو خروف، ثم يقتل حيوان الأضحية هذا، بما كان يعتبر تكفيرا عن هذه الذنوب.

ثم تؤخذ جثّة الحيوان، لتحكّ وتفرك بحوائط الهيكل المقدّس للربّ نيبو، وهو من جهة المحامي العام عن الشعب، ومن جهة أخرى هو الرسول، القادر على لعب دور الوسيط، أي على التواصل بين الأرباب والبشر. بعد ذلك يلقى برأس الجثّة وبجسمها، في مياه نهر قريب، حتى يأخذها تيّار الماء بعيدا، عن أماكن إقامة البشر في المدن والقرى.

ولعدم وجود أنهار في مملكة إسرائيل، كانت جثث حيوانات كباش الفداء، تلقى في الصحراء، في أبعد مكان من مضارب خيام القبائل. حلّت الصحراء إذن محلّ مياه الأنهار. لكن في بعض الحالات في مملكة إسرائيل، كان يمكن بسهولة الوصول إلى سواحل البحر المتوسّط. أنظروا إلى ما قاله النبي ميخا، أحد أنبياء التوراة، في السفر الذي يحمل اسمه، في الاصحاح السابع منه (١٨ – اله مثلك يصفح عن الاثم، ويعفو عن

المعصية. ١٩- يطأ ذنوبنا بقدميه، ويطرح معاصينا إلى أعماق البحر).

من الغريب معرفة أن هذا الطقس، الخاص بإلقاء الذبيحة (الحيوان الضحية)، في الصحراء أو في مياه الأنهار أو البحار، كان يسمّى بالأكّادية طقس (كوبار)، وبالعبرية (كيبور) أو (كيفور)، وهذه الكلمات في هاتين اللغتين، تعنيان بالعربية (كفّارة) أو (تكفيرا عن الخطايا).

في اليوم السادس: كان الحدث الأهم، هو عودة (نيبو) إلى الظهور، وقد اعتبر في احدى الفترات الابن الوحيد للربّ (مردوخ). ثم تستمرّ طقوس الأيام التالية التي لا نجد لبعضها تفسيرا، إذ تقول النصوص إن أهم أحداث اليوم السابع، هو أن الابن نيبو، يحاول أن يحرّر الأب مردوخ، من محبسه السماوي المؤقت، كأن مردوخ كان دون أن يشعر أحد، قد عاد إلى محبسه.

في اليوم الثامن: الحدث الأهم هو أنه، بعد تحرير مردوخ، يقوم الكهنة بتنصيبه على عرش البلاد، مع الملك الأرضي المعاد تتويجه. في اليوم العاشر يعود الشعب إلى الصيام، من فجر اليوم حتى غروب الشمس، حين تمدّ موائد مآدب طعام لكل البشر، احتفالا بانتصار مردوخ (الخير) على كل أعدائه، وانتهاء فترة الأزمة.

في الأيام الأربعة الأخيرة: تقام طقوس التزاوج، بين مردوخ وربّة الأمومة والخصوبة (عِشتار)، ذلك حتى تكون السنة التالية، هي سنة خصوبة ووفرة في المحاصيل الحقلية، وزيادة في أعداد رؤوس قطعان المواشي. عند انتقال هذه الطقوس إلى رأس شمرة في كنعان، تضاف إلى المسرحية الدينية، شخصيّات جديدة منها شخصيّة الإله الضدّ، الذي يمثّل العقم والموت والفناء، الذي يدخل في صراع طقسي، مع (تمّوز) ربّ الخصب والنماء.

في اليوم الرابع عشر: يتمّ تحديد وتثبيت مصائر البشر والأرباب، ثم تعاد صور الأرباب وتماثيلها إلى معابدها. مرّة أخرى نشير إلى مدى تأثّر المسيحية بهذه التقاليد، فرغم أن الديانة اليهودية لم تعر الصور والتماثيل المقدّسة أي اهتمام، الا أن الديانة المسيحية

تحتفي بصور وتماثيل الشخصيّات المقدّسة، وتسمّي الصور (أيقونات)، وهي التي تكون حاضرة في الاحتفالات الدينية.

٣- أسطورة الخلق البابلية

تتلى نصوصها خلال اليوم الرابع، من مهرجان الاحتفال بالعام الجديد، وتتكون من سبعة فصول، مكتوبة على سبعة ألواح منفصلة، تصف الفصول الثلاثة الأولى، عملية خلق أرباب بابل، وتعتبر هذه النصوص هي أقدم محاولة من فلاسفة بابل وحكمائها، لتفسير عملية خلق الكون. هذه هي بعض سطور منها:

...../ عندما كانت السماوات في الأعالي/ لم يطلق عليها اسمٌ بعد/ وكانت الأرض ثابتة أسفلها/ لم يطلق عليها اسمٌ بعد/ لم يكن هناك الا ربّ الأزل (آبسو)/ وهو الأب الذي أنجبهم/ والأم (تيامات) التي حملت بهم جميعا/ وكانت مياههم جميعا/ تمتزج في جسد واحد/ ولم يكن هناك كوخ واحد من الغاب/ قد تشكّل بعد/ ولم تكن هناك أرض مستنقعات واحدة/ قد ظهرت إلى الوجود بعد/ ولم يكن هناك على الاطلاق/ أي ربّ من كل هؤلاء الأرباب بعد/ إذ لم تكن أسماؤهم قد أطلقت عليهم بعد/ وبالتالي لم تكن مصائرهم قد عرفت بعد/

ثم حدث أن بدأ كل ربّ/ في اتخاذ شكله الخاص به/ الشكل الذي سيتميّز به عن غيره/ وهكذا جاء كل من (لحمو) و(لاحامو) إلى الوجود/ عندما أطلق عليهما اسماهما/ ثم بدآ في النمو/ وفي اكتساب القامة المديدة والعمر المديد/ ثم تشكّل بعدهما كل من (آنشار) و(كيشار)/ اللذين تفوّقا فيما بعد على كل من عداهما/ فقد أطالا الأيام وراكما السنوات/ ثم جاء (آنو) وريثهما/ الذي لاحقا سينافس أجداده/ فلقد كان (آنو) هو المولود الذكر الأول الذي أنجبه (آنشار)/ ثمّ أصبح ندّا لأبيه/ ومساويا له في الجوهر/ .....

سنعرف لاحقا أن (آبسو) هو القوّة الخاملة، الكامنة في المياه الحلوة القابلة للشرب، الغائرة أسفل القشرة الأرضية، وأن (تيامات) هي القوة الهادرة في مياه البحر المالحة.

وكان الأرباب البدائيون الأصليون مثل (آنو) ربّ السماء، و(إينكي) ربّ المياه التي يمكن التحكّم فيها لصالح البشر، ينظرون بقدر من التعالي، إلى صغار الأرباب الذين يدّعون أن أنشطتهم، ذات أغراض محدّدة، حتى لو لم تكن بعض هذه الأغراض، في صالح الجنس البشري. بالتالي لم يستطع الأرباب صغار السنّ، أن يفهموا السبب في أن الأرباب الكبار، كانوا يحاولون دائما كبح جماحهم.

يظهر في الأسطورة، في هذا التوقيت، أحد الأرباب الشباب المولودين حديثا، ويدعى (إيا)، وهو ربّ المكر والدهاء والتعاويذ السحرية، الذي ينجح في التغلّب على (آبسو) ربّ المياه الجوفية. هكذا فسّر منظّرو الحضارة البابلية، كيفية بدء الاستقرار في جنوب بلاد الرافدين، حين تمكن الدهاء من السيطرة على مياه الآبار وعيون الينابيع الجوفية، مما وفّر للبشر مصدرا هاما لمياه الشرب. هنا يولد (مردوخ) الذي سيصبح الربّ المحلّي لمدينة بابل، خلال الحقبة العمورية.

يزداد غضب قوى الطبيعة التي لا توافق على استقرار البشر، مثل (إنليل) ربّ الرياح العاصفة، بالتعاون مع (تيامات) ربّة مياه البحر المالح الهادرة، مما جعل (آنو) ربّ السماوات، ومن معه من أرباب المجلس القضائي السماوي، يتراجعون خائفين. لم يعرف الأرباب كيف يتفاهمون، مع تهديدات مياه البحر الهادرة وعواصف الرياح. وهو ما يفسّر السبب في أن هذه الحضارات القديمة، تجنّبت ركوب البحر، حلال فترات طويلة من تاريخها. كانت معتقداتهم القديمة تشير إلى ضرورة انتصار قوى الخير على قوى الشر، لكنهم كانوا يدركون كذلك، بتجاربهم الحياتية المريرة، حقيقة المعاناة البشرية، ومدى عدم وضوح الرؤية أمام الإنسان.

أصبح (مردوخ) البطل الذي يمثّل قوى الخير، هو الوحيد القادر على القيام بمهمّة الدفاع عن مملكة بابل، بل عن الجنس البشري كله، وهو بالمفهوم اليهودي/ المسيحي، الشخص المعروف باسم (المخلِّص المنتظر). الا أن (ألواح مصائر البشر)، كانت لا تزال في حوزة (كينجو) الشرير، وهذه الألواح هي مخطّط برنامج (كلمات الأرباب)، الذي

سيشرع كينجو في تنفيذه، بمجرّد انتصاره على مردوخ، وهو ما سيؤدّي حتما بالبشرية إلى الهلاك، لأن هذا البرنامج كان من وضع قوى الشرّ. هكذا تدور رحى المعركة بين الخير والشر.

من الملفت للانتباه، وجود عناصر أسطورية في تفاصيل هذه الأسطورة، تعود لاحقا إلى الظهور في النصوص التوراتية، مثل عثور مردوخ على جزّة من صوف الخروف، ملقاة في الصحراء، متروكة على الأرض، تقول الأسطورة إن من يعثر عليها، سيكون علامة دالة على أنه سيكون المنتصر النهائي في المعركة. هذا النوع من العلامات الدالة، يسمّيه المتخصّصون في الحضارات القديمة، البضاعة المخزونة من رصيد الخرافات، التي كانت سائدة في الأزمنة القديمة، وهي البضاعة المعدّة دائما لإعادة الاستعمال، في التراث الشفهي من الموروث الشعبي الخرافي.

أنظروا إلى الاصحاح ٦ من سفر القضاة التوراتي، فيما يتعلّق بقصّة النبوءة الإلهية إلى جدعون، في صراعه مع أعدائه المديانيين (٣٦- قال جدعون لله: إن كنت حقا ستنقذ إسرائيل على يدي كما وعدت، فاعطني علامة على ذلك. ٣٧- سأضع الليلة جزّة صوف في البيدر. فإن ابتلّت الجزّة وحدها بالندى، وبقيت الأرض كلها جافة، أدرك أنك ستنقذ إسرائيل على يدي كما وعدتني. ٣٨- وهذا ما حدث).

من العناصر الأسطورية الأخرى، التي تظهر في أسطورة الخلق البابلية، ثم تعاود الظهور بعد مئات الأعوام، في النصوص التوراتية، مسألة تحويل الماء إلى دمّ، ومسألة اليد المصابة بالبرص التي تشفى بدخولها إلى العبّ وخروجها منه، ومسألة تحوّل العصا إلى ثعبان، كما جاءت في قصّة نبي الله موسى. إن طريقة عرض هذه المعجزات كما جاءت في الاصحاح ٤ من سفر الخروج التوراتي، تشبه إلى حدٍّ بعيد، الفقرات التي يقدّمها السحرة الحاليون، في البرامج الترفيهية، بغرض إبهار المشاهدين.

(٢- سأله الربّ: ما تلك التي بيدك؟ فأجاب موسى: عصا. ٣- فقال الربّ: القها على الأرض. فألقاها فإذا هي حيّة، فهرب منها موسى. ٤- فقال الربّ: مدّ يدك واقبض

عليها من ذيلها. فمدّ موسى يده وقبض عليها، فارتدّت عصا في يده. ٦- ثم قال الربّ: ادخل يدك في عبّك. فأدخل يده في عبّه، وعندما أخرجها، إذا بها برصاء كالثلج. ٧- وأمره الربّ: ردّ يدك إلى عبّك ثانيةً. فردّ يده إلى عبّه ثم أخرجها، فإذا بها قد عادت مثل سائر جسده. ٩- قال الربّ لموسى: وإذا لم يصدّقوا هاتين الآيتين، ولم يصغوا لكلامك، فاغرف من ماء النهر، واسكبه على الأرض الجافة، فيتحوّل الماء الذي غرفته من النهر إلى دمّ فوق الأرض).

في تلك المواجهة النهائية بين مردوخ وتيامات، يكونان مسلّحين بالأسلحة البشرية مثل القوس والأسهم والشباك، ولكن كذلك بالرياح والصواعق. يتمكن مردوخ في لحظة مصيرية أن يمتطي السحب، وبالتال يصبح فوق رأس تيامات، ويكون له النصر النهائي. هذا هو ما سنجده لاحقا في العديد من النصوص التوراتية، أن يأتي ربّ الجنود فوق السحاب. بعد القضاء على تيامات تمكن مردوخ كذلك من القاء القبض على كينجو، ومن استرداد ألواح المصائر منه، وهكذا تعود المصائر البشرية، لتصبح تحت سيطرة مجلس القضاء السمائي.

يذكر نصّ الأسطورة البابلية أن مردوخ، هو الذي قام بعد ذلك بخلق العالم، بنفس الترتيب الوراد لاحقا في التوراة، فأولا السماء والأرض، ثم ثانيا النجوم والكواكب والليل والنهار، ثم ثالثا الكائنات النباتية والحيوانية، ثم رابعا يأتي الإنسان على قمّة الخليقة. يستعمل مردوخ الدم المسفوك، من جسد كينجو بعد ذبحه، في مدّ جسد الإنسان الذي خلقه مردوخ من الطين، بالعنصر الحيوي اللازم لبعث الحياة فيه. على غرار النفس الإلهي الذي نفخه ربّ التوراة في جسد آدم أبي البشرية.

قد يكون مدّ جسد الإنسان بدماء مسفوكة من اله الشر، هو إشارة إلى وجود عنصر شيطاني فاسد شرير، في الطبيعة البشرية للإنسان، وهو ما أدّى لاحقا في كل الحضارات، في محاولة منها لتقليل عنصر الشر داخل الإنسان، إلى كراهية أكل الدمّ بل وتحريمه. أنظروا إلى تحريم أكل الدمّ، كما جاء في أحد أسفار التوراة، وهو سفر التثنية

Deuteronomy، الاصحاح ١٢

(٢٠- فإذا اشتهت نفوسكم أكل اللحم، ٢١- فاذبحوا من بقركم وغنمكم التي أنعم بها الربّ عليكم. ٢٣- لكن إيّاكم وأكل الدمّ، لأن الدمّ هو النَفْس، فلا تأكلوا النفس مع اللحم. ٢٤- لا تأكلوا منه بل اسكبوه على الأرض، كما يسكب الماء. ٢٥- لا تأكلوه، لتنعموا أنتم وأولادكم من بعدكم بالخير، إذ صنعتم الحق في عيني الله).

هناك كذلك في الأسطورة البابلية، الإصرار على فكرة أن الأرباب خلقوا البشر، حتى يكون البشر لاحقا في خدمة الأرباب، فيدير البشر للأرباب ملكيّاتهم الزراعية، كما لو أن هؤلاء الأرباب كانوا من الملوك الأرضيّين، وهو ما انعكس بالتأكيد على النصوص التوراتية، ففي الاصحاح ٢ من سفر التكوين

(١٥- وأخذ الربّ الإله آدم، ووضعه في جنّة عدن ليفلحها ويعتني بها. ١٦- وأمر الربّ الإله آدم قائلًا: كل ما تشاء من جميع أشجار الجنّة، ١٧- ولكن إيّاك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر، لأنك حين تأكل منها حتمًا تموت). يفهم من هذا النصّ كذلك، أن الربّ كان قد زرع وحده، بعض أشجار الجنّة، قبل خلقه لآدم أول البشر. وهو قريب الشبه مما جاء في الأسطورة السومرية.

ووفقا للأسطورة السومرية، فبعد انتصار مردوخ، تمّ بناء معبده على قمّة جبل هرمي الشكل، معروف باسم زيجورات، حتى يكون في مستوى أعلى من كل من عداه، في أعلى مستوى ممكن عرفه البشر حتى ذلك التاريخ، وهو ما سيتكرّر في الحضارة الكنعانية، عند بناء معبد (بعل)، بعد انتصاره على قوى الشرّ والتشوّش، وهو نفس ما سيتكرّر لاحقا في النصوص التوراتية المختلفة، المكتوبة على زمن الأنبياء موسى وميخا وإشعياء وصفنيا. فالنبي موسى كتب في سفر التكوين الاصحاح ١١

(٤- قال أهل الأرض: هيّا نشيّد لأنفسنا مدينة وبرجا، يبلغ رأسه المساء. ٥- ونزل الربّ ليشهد المدينة والبرج، اللذين شرع بنو البشر في بنائهما. ٧- فقال الربّ: هيّا ننزل اليهم ونبلبل لسانهم، حتى لا يفهم بعضهم كلام بعض. ٨- وهكذا شتّتهم الربّ من هناك

على سطح الأرض كلها، فكفّوا عن بناء المدينة. ٩- لذلك سمّيت المدينة بابل). في هذا النصّ لم يكن بناء البرج لصالح عبادة الربّ، بل بسبب غرور الإنسان وزهوه بنفسه، لذلك غضب الربّ على الشعب.

أما النبي ميخا فقد أصلح ما قاله موسى، عندما قال في سفره، في الاصحاح ٤ (١- ويكون في آخر الأيام، أن جبل هيكل الربّ، يصبح أشهر الجبال، ويعلو فوق كل التلال، فتتقاطر اليه شعوب عديدة، ٢- وتقبل اليه أمم كثيرة قائلة: هيّا لنصعد إلى جبل الربّ، إلى هيكل يعقوب، ليعلمنا طرقه فنسلك في سبيله). وذكر النبي إشعياء تقريبا نفس الشيء، في الاصحاح ٢ من سفره (٢- ويحدث في آخر الأيام، أن جبل هيكل الربّ، يصبح أسمى من كل الجبال، ويعلو فوق كل التلال، فتتوافد اليه جميع الأمم. ٣- وتقبل شعوب كثيرة، وتقول: تعالوا لنذهب إلى جبل الربّ، إلى بيت اله يعقوب، فيعلّمنا طرقه ونسلك في سبله).

أما في نبوّة صفنيا، فهناك آيات كثيرة ذات دلالات تنبّؤية، في تلك النبوءة القصيرة التي تتكوّن فقط من ثلاثة اصحاحات، كأن يقول (يقول الربّ: سأمحو كل شيء عن وجه الأرض. أبيد الإنسان والحيوان وطيور السماء وسمك البحر. وأفني بقيّة عبدة البعل. وأفني كل كهنة الوثن. والذين يصعدون إلى أسطح المنازل للسجود لكواكب السماء. والذين ارتدّوا عن عبادة الرب. وعن اتّباع أحكام الربّ. استأصلت أمما فغدت بروجهم أطلالا. أقفرت شوارعهم وصارت مدنهم خرابا. لأن الأرض كلها ستؤكل بنار غيظي. فلا يبقى متشامخ في جبلي المقدّس). الكلمات ذالت الدلالات في هذا النصّ الأخير، هي عبدة البعل. كهنة الوثن. أسطح المنازل. البروج أطلالا. جبلي المقدّس.

ينتهي نصّ هذه الأسطورة بترنيمة تقريظ للربّ مردوخ، وفيها تطلق عليه الألقاب الشرفية، التي تصل في بعض النسخ إلى حوالي مئة لقب مختلف، كانت تذكر كلها متتالية في الصلوات، وتشير كلها إلى أفعاله الخارقة، التي تأتي في اللغات السومرية والأكّادية، أحيانا في صورة اسم الفاعل، مثل القاهر للشرير، أو الظافر في المعارك، وتأتي أحيانا في

صورة صفات بصيغة مبالغة، مثل الرزّاق للهبات، أو الوهّاب للعطايا.

تنبغي هنا الإشارة إلى أن مصر القديمة عندما عبد شعبها ربّا واحدا، على زمن (إخناتون) في الأسرة الثامنة عشرة، كان لهذا الربّ الواحد (رع) اله الشمس، أكثر من سبعين اسما مختلفا، منها (خبري) أي جالب أخبار الخير، و(آتون) أي مصدر الدفء والضياء، و(آتوم) أي التام في كماله، وهي بذلك تشتمل على مجموعة صفاته المختلفة.

ثم انظروا هنا إلى صفات الربّ الخالق كما جاءت في سفر المزامير، من أسفار توراة شعب إسرائيل، ففي المزمور ٧٤ (١٢- إنما الله هو صانع الخلاص في وسط الأرض. ١٣- فالق البحر. محطّم رؤوس التنانين. ١٤- ممزق رؤوس فرعون وجيشه. ١٥- مفجّر الينابيع والجداول. مجفّف أنهار كانت دائمة الجريان. ١٦- مكوّن الكواكب والشمس. ١٧- خالق الصيف والشتاء).

وفي مزمور ٨٩ (٨- من مثلك أيها القدير ربّ الجنود؟ ٩- المتسلّط على هياج البحر. ١٠- من سحق قوّة مصر فصارت كقتيل. ١١- أنت ملك السماوات والأرض مؤسّس المسكونة. ١٢- خالق الشمال والجنوب. ١٣- أنت عظيم القدرة. يدك قوية ويمناك رفيعة. ١٤- الرحمة والحقّ يتقدّمان حضرتك. ١٦- باسمك يبتهج شعبك طول النهار. ١٨- لأن الربّ هو حامينا). الشمال والجنوب هنا، هي إشارة واضحة إلى مصر القديمة، التي كانت تنقسم غالبا إلى أرضين، إحداهما شمالية والأخرى جنوبية، وكان أهم ألقاب فراعنة مصر، هو لقب موحّد الأرضين (سما طاوي).

وفي مزمور ٩٣ (١- الربّ مرتديا الجلال. متمنطقا بحزام القوة. ٢- عرشك ثابت منذ القدم. ٤- الربّ في العلاء أعظم من صوت مياه الأمواج الغزيرة. ٥- أقوالك ثابتة لا تزول منها كلمة واحدة إلى أبد الآبدين). وفي مزمور ٩٤ (١- يا ربّ أنت المنتقم الجبّار. أنت اله الانتقام. أنت تتجلّى بغضبك. ٢- يا ديّان الأرض. يا من يجازي المتكبّرين على أعمالهم. ٩- يا صانع الأذن وجابل العين. يا مؤدّب الأمم ومعلّم الإنسان الحكمة). في هذه النصوص تأتي صفات الربّ أحيانا، في صورة أفعال مصرّفة إمّا مع ضمير المخاطب

(أنتَ)، أو ضمير الغائب (هو). أنت المنتقم الجبّار، أنت تتجلّى بغضبك. هو في العلاء. هو أعظم من صوت المياه.

٤- نزول عِشتار إلى العالم السفلي

في الديانة السومرية حيث تبدو بوضح، مظاهر عبادة قوى الطبيعة، فإن تعاقب مواسم الاحتفالات بالأرباب، ارتبط بتعاقب مواسم النباتات ومحاصيل الحقول، التي يمكن أن تعكس بوضوح، فكرتي الحياة والموت، فالحياة هي مواسم حصاد المحاصيل، والموت هو مواسم جفاف الأرض، قبل غمرها بالمياه وعودتها إلى الحياة. إذن أدرك السومري القديم أنه بالإمكان بعد الموت، العودة إلى الحياة، وهو ما تمّ التعبير عنه في الديانة، بفكرة موت ربّ الإخصاب، وبقائه محتجزا في العالم السفلي، ولو لفترة مؤقّتة كل سنة.

وهكذا فإن الأسطورة الاغريقية، خلال القرون القليلة السابقة على ميلاد المسيح، ومن بعدها الأسطورة الرومانية، خلال القرون القليلة التالية لميلاد المسيح، قد احتفظتا بفكرة الموت المؤقّت، ومن ثمّ العودة إلى الحياة، مع تغيير أسماء أولئك الأرباب الذين يموتون، ثم يعودون إلى الحياة، وفق الأسماء السائدة في عالم أساطير كلٍ من هاتين الحضارتين.

أما في الأسطورة الكنعانية، ومن بعدها الأسطورة التوراتية، اللتين شغلتا مرحلة زمنية وسيطة، بين الحضارة السومرية الأقدم من ناحية، والحضارتين اليونانية والرومانية الأحدث من ناحية أخرى، فقد حدث أثناء رحلة (بعل) إلى العالم السفلي، أن تغلّب ربّ الموت والعقم والجفاف والأرض اليابسة، واسمه في اللغات الكنعانية من آرامية وسيريانية هو (موت Mott)، على (بعل) ربّ الأرباب. من الغريب أنه عند دفن (بعل)، تظهر إلى جواره ربّتان اثنتان، إحداهما هي ربّة الشمس (شاباش)، والأخري هي ربّة الإخصاب (عنّات Annat) وأخت بعل الشقيقة. في مصر القديمة تظهر الالهتان إيزيس ونفتيس، وهما تغطّيان بأجنحتهما جسد أوزوريس المتوفّى، وهما كذلك أختاه الشقيقتان.

كان من المعروف أن (تمّوز) أو (دوموزي)، ربّ خصوبة الأرض لدى السومريين،

يذهب كل عام في رحلة قصيرة إلى العالم السفلي، وبالتالي كانت رفيقته وعشيقة شبابه الربّة (عِشتار)، تذهب إلى العالم السفلي هي الأخرى للبحث عنه. يبدأ نصّ هذه الأسطورة بوصف العالم السفلي، القاتم المظلم العابس الكئيب، الخيالي الوهمي غير القابل للّمس، وهي صورته التي سيظهر بها، خلال حقبة كتابة التوراة، على زمن مملكة إسرائيل، ثم يبدأ في اتخاذ شكل أقل كآبة في الحقبة المسيحية. يقول النصّ

العالم السفلي هو الأرض التي لا عودة منها/ فهي رحلة ذهاب فقط دون إياب/ مع ذلك تتخذ الربّة عِشتار قرارها بالذهاب/ إلى ذلك المقام المظلم/ المنزل الذي لا يغادره من يذهب اليه/ المنزل الذي لا يوجد به ماء الحياة/ حيث طعام المقيمين فيه هو من التراب والطين/ حيث لا يعودون يرون أيّ ضوء/ لأنه منزل الظلام المقيم/ حيث لا يرتدون أيّ ملابس/ بل هم يغطّون أجسامهم مثل الطيور/ بأجنحتهم المطويّة عليهم/ فهم لا يتحرّكون حيث يُتْرَكون/ فباب المنزل وأقفاله يغطّيها التراب المقيم.

هذه هي المفردات البشرية، التي استعملها أحد أقدم شعوب الأرض، في تخيّل الصورة التي سيكون عليها العالم السفلي، الذي من المفترض أن يكون، هو المكان الذي سينتهي اليه الأشرار. لكن هناك ملحوظة جديرة بالانتباه، هي أنه في حين تكوّنت مناطق العالم السفلي من اثنتي عشرة منطقة، في أساطير مصر القديمة، وهو عدد ساعات الليل، تكوّنت مناطق العالم السفلي في الأساطير السومرية البابلية، من سبع مناطق، وهو عدد طبقات السماوات، الواحدة فوق الأخرى، وعدد طبقات الأرض، الواحدة تحت الأخرى، رغم أن بدايتي الحضارتين تنتميان إلى نفس المرحلة التاريخية، أي إلى حوالي القرن الثلاثين ق م.

عند وصول عشتار إلى البوّابة الأولى، من بوّابات العالم السفلي، تهدّد حرّاسها أنهم إن لم يفتحوها لها، فهي ستقتحمها بالقوّة محطّمة إيّاها. تعطي (إيريش كيجال) ملكة العالم السفلي الأمر إلى الحرّاس، بفتح البوّابة ولكن بشرط، أن تقبل عشتار، التخلّي عن جزء من مصاغها الملكي وتيجانها وشارات ربوبيّتها، عند عبورها كل بوّابة من البوّابات

السبع. وكما يحدث عادة في النصوص الشعائرية الطقسية، تتكرّر نفس الكلمات والعبارات، في الحوارات التي تدور بين عشتار وحرّاس البوّابات.

تصل عشتار إلى البوّابة السابعة، وقد أصبحت شبه عارية، وقد تخلّت عن كل قواها الربوبية، فأصبحت لا حول لها ولا قوّة، واقعة تحت سيطرة، السلطة المطلقة لملكة العالم السفلي. تذكّرنا هذه التفاصيل بما كان يمكنه أن يحدث، للعديد من أبطال أساطير التوراة، الذين كانوا يفقدون أحيانا قواهم الخارقة، بتأثير الوقوع تحت نفوذ قوى سحرية شرّيرة، تجرّدهم من مميّزاتهم، مثلما كانت حال شمشون، الذي فقد قوّته الخرافية، عندما قام أعداؤه بقصّ شعر رأسه، لأنهم عرفوا أن هذا الشعر هو نقطة ضعفه.

هنا عند هذا الموضع من الأسطورة، يلقى القبض على عشتار، وتحبس حبسا منفردا، وتصيبها اللعنات قادمة على لسان عدوّتها ملكة العالم السفلي. في مصر القديمة كان المتوفّى، يزوّد في أثاثه الجنائزي، بكتيب يحتوي على الكلمات السحرية، التي يمكنها أن يردّ بها، على اللعنات الشرّيرة، فيبطل مفعولها. أما في حالة الربّة عشتار، فقد تدخّل لانقاذها، الربّ إيا **Ea**، ربّ المياه المتغلغلة في طبقات الأرض، وربّ الحكمة والحيلة والدهاء، الذي أخذ على عاتقه مهمّة، إنقاذ عشتار من مصيرها المظلم، وإعادتها من عالم الموتى السفلي، إلى عالم الأحياء العلوي، مع العمل على استعادتها لخصوبتها التي كانت مشهورة بها.

ما هي الحيلة التي لجأ اليها؟ إن إيا **Ea**، يخلق رجلا يحرمه من قدراته الإنجابية، أي يخلقه دون خصيتين، أي أنه رجلٌ مخصيّ **castrated**، ويرسله إلى إيريش كيجال ربّة وملكة العالم السفلي، ليطلب الرجل منها أن تعيد اليه خصوبته المسلوبة، بأن تتركه يحتسي من الماء، الموضوع في قربة ماء، معروف بقدرته على إعادة الخصوبة لمن يفقدها. يسرق الرجل القربة ويعطيها إلى عشتار لتشرب منها. تظهر في بعض قصص التوراة والانجيل، شخصية الرجل المخصيّ، الذي يمكنه أن يكون مرسالا موثوقا به، لأنه يمكنه أن يدخل البيوت في غيبة رجالها، دون أن يكون هناك خوف منه على نساء البيت.

يتدخّل Ea، ليدافع عن عشتار ويباركها، وهو ما يحدث كثيرا في قصص التوراة، حيث نرى الآباء يباركون بعض أبنائهم، ويلعنون بعضهم الآخر، فتظلّ هذه البركات أو اللعنات، تلاحق الأبناء حتى الممات. لدينا مثلا في الاصحاح ٢٧ من سفر التكوين بالتوراة، قصّة بركة البكورية، التي كان من المفروض أن يمنحها نبي الله اسحق ابن إبراهيم، لابنه البِكْر عيسو، فسرقها الابن الأصغر يعقوب من أخيه عيسو، بأن تحايل على الموقف، فارتدى ملابس عيسو والشعر الخشن الذي كان له، في الوقت الذي كان اسحق أبوه فيه، قد فقد البصر، ولم يعد قادرا على التمييز بين ابنيه.

تعود عِشتار للمرور من البوّابات السبع، في الاتجاه العكسي، أي من البوّابة الأخيرة إلى البوّابة الأولى، وهي تستردّ عند كل بوّابة، ما كان لها من ملابس وتيجان وشارات ربوبيّة. ينتهي النصّ بذكر الجزية، التي كان على عِشتار أن تدفعها، حتى يسمح لها بمغادرة العالم السفلي، التي كانت غالبا في صورة ذبيحة حيوانية، قربانا إلى غيرها من الأرباب. الغريب هنا هو أنها حتى بصفتها واحدة، من ربّات مجمع أرباب السومريين، كانت تقدّم هي الأخرى، القرابين إلى غيرها من الأرباب.

بعد أن تستردّ ربوبيتها، تقوم عِشتار هي نفسها، بإنقاذ تمّوز عشيق شبابها، ثم تقول لأتباعها: (طهّروه واغسلوه بالمياه النقيّة/ ثمّ ادهنوا جسمه بالأطياب/ والبسوه رداءً أحمر اللون/ ثمّ اجعلوه يلعب على مزماره اللازوردي/ ألحانه الشجيّة ألحان شبابه/ ثم ضعوا أمامه البخور والمِسك/ حتى تحسّنوا له مزاجه/ حتى ينتهي به الأمر الى/ أن يعود من جديد شابا قويّا خضبا/ وتستعيد بالتالي أرضنا الزراعية خصوبتها). تصاحب هذه الأنشودة عملية رمزية، يقوم خلالها كهنة المعابد، بتخليق أعضاء تناسلية ذكورية وأنثوية، باستعمال الطين الصلصال، تغسل بعد ذلك بدماء حيوانات الأضاحي.

ثم يستأنف الكهنة ترنيم الأنشودة، بهذه الأبيات الشعرية: (عندما تضع الربّة الأم حملها المقدّس/ تضع كذلك كل النساء الحبالى أحمالهنّ/ وعلى غرار ذلك يخلق الربّ (آنو) السماوات/ ثم يخلق الربّ (آنو) الأرض/ ثم تخلق ربّة الأرض أنهارها/

ومن أنهارها تنبع مياه القنوات/ ومن قنواتها تنبع مياه المستنقعات/ ومن مستنقعاتها تخرج ديدان الأرض/ تبكي أمام الأرباب كل دودة قائلة:/ ماذا ستعطون إيّاي لأتغذّى به؟/ فيردّ عليه الأرباب قائلين:/ سنعطيكِ من ثمار التين الناضجة/ ومن ثمار المشمش الناضجة).

يعتقد أن هذا الجزء الثاني من نصّ الأنشودة، يعود إلى الفترة العمورية، وهي بين ٢٠٠٠ ق م، و١٥٠٠ ق م، وقد تمّ العثور عليه، في أطلال مدينة ماري **Mari**، الواقعة حاليا في الأراضي السورية، في الجزء الشمالي من مجرى نهر الفرات، كما أنه قد تمّ العثور على نصوص شبيهة، في مواقع أطلال مدينة بابل في جنوب العراق، بتاريخ يقع بين ٧٠٠ ق م و٦٠٠ ق م.

إن الشعوب السومرية، بما كان لها من حكمة، ومن قدرة على ملاحظة التناسق، الموجود بين عناصر الطبيعة، ومن إدراك لضرورة الصراع بين الإنسان وبين عناصر الطبيعة، حتى يتمكن الإنسان من البقاء على قيد الحياة، من المحتّم أن تكون هذه الشعوب كذلك، قد أدركت التناقض الواقع فيه الإنسان، في مواجهة حقائق العالم الأرضي، بين قوّة ومجد الطبيعة صنيعة الأرباب، وبين ضعف وعجز الإنسان، صنيعة الأرباب هو الآخر، ضعفه وعجزه أمام ألغاز الوجود، فيما يتعلّق بمدى ارتفاع السماوات، ومدى عمق باطن الأرض، وهي الألغاز التي لن يصل الإنسان أبدا، إلى العثور على حلول لها، وما في كل ذلك من سخرية ربوبية، من ضعف قدرة الإنسان، في التزامه بالكفاح اليومي، في سبيل الحصول على قوته وقوت أولاده.

كان الفلاح السومري يعمل أجيرا في الأراضي الزراعية، إذ لم تعرف الحضارة السومرية المبكّرة، الملكية الفردية للأرض الزراعية، بل كانت كل الأراضي المزروعة، مثلما كان الحال تقريبا في كل الحضارات الزراعية الكبرى في فتراتها المبكّرة، إمّا ملكا للأسرة المالكة ولرجال البلاط الملكي، أو أنها تدخل في إطار الملكيات الخاصة بالمعابد، لذلك كان الفلاح يعمل أجيرًا، إما لدى البلاط الملكي، أو لدى السلطات

الدينية، ويقبض أجره من أيٍ منهما، في شكل جزء من محاصيل الحقول.

هذا الصراع اليومي الحتمي مع قوى الطبيعة، هي الفكرة الرئيسية التي تدور حولها، موضوعات أسطورتين سومريّتين أخريين، لبطلين شعبيين معروفين للجميع، الأول هو آدابا **Adapa**، وهو كاهن أعظم في معابد بابل، والثاني هو جِلجامش **Gilgamesh**، وهو كاهن أعظم آخر، مسقط رأسه هو مدينة أوروك، شغل لاحقا منصب ملك البلاد، ثم تحوّل قرب نهاية حياته إلى ثلثي اله وثلث إنسان، أي أن العنصر الإلهي فيه كان ضعف العنصر البشري فيه.

من المعروف أن عددا كبيرا، من ملوك فراعنة الأسرات الملكية في مصر القديمة، بداية من الأسرة الرابعة، مثلما تحكي لنا أسطورة خوفو والسحرة، المتعلّقة بالملك أوسركاف من الأسرة الخامسة، الذي كان مولودا ميلادا الهيا معجزا، وكذلك فيما يتعلّق ببعض شخصيّات معروفة، من طبقة كهّان وحكماء مصر القديمة، مثل ايمحوتب اله الطبّ، وأمنحوتب ابن حابو اله العمارة، وكذلك بعض شخصيّات الكتاب المقدّس، بعهديه القديم والجديد، قد ادّعوا أنهم هم أيضا أنصاف آلهة، أو ثلاثة أرباع آلهة، مع احتفاظهم بجزء من عناصرهم الإنسانية البشرية.

٥- أسطورة آدابا Adapa

وصل الينا نصّ هذه الأسطورة، أولا مكتوبا بالهيروغليفية، على شقافة من الطين المحروق، في جزء من لوحة كانت تستعمل لأغراض تعليمية، في مادة القراءة بالمدارس المصرية، في العاصمة المصرية (أخِت آتون) المعروفة باسم تلّ العمارنة، وتؤرّخ بحوالي القرن الرابع عشر ق م، ثم ثانيا حصلنا على المزيد من التفاصيل بخصوص نفس الأسطورة، في ثلاث شقافات أخرى، تمّ العثور عليها، في موقع مكتبة حفائر قصر الملك آشور باني بال، في أطلال مدينة نينوى، وتؤرّخ بالقرن السابع ق م، وتظهر شخصية آدابا في هذه النصوص، على أنه كاهن حكيم من كهنة معبد الربّ إيا **Ea**، يقدّم نصائحه ومشورته لكل من يحتاج اليها.

كان آدابا ذا حكمة عظيمة، إذ خلقته الأرباب ووهبته هذه الحكمة، حتى يصبح نموذجا، لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان، فيصبح الإنسان الأكثر حكمة، بين كل بني البشر، لكنه لم يحصل من هؤلاء الأرباب على الخلود، إذ لم يسمح له الأرباب بالحصول عليه. تقول أنشودة تقريظ آدابا:

إنه الذي لا يرتكب الشرّ/ لذلك لا لوم عليه/ إنه الذي لا يحزن/ إنه نظيف اليدين عفّ اللسان/ الطاهر القادر على ممارسة طقوس التطهير لكل الشر/ بنثر المياه المقدّسة العطرية على أبدانهم/ إنه المكلّف بملاحظة دقّة ممارسة الطقوس والشعائر الدينية في المعابد/ إنه من يقوم بمساعدة الخبّازين في صناعتهم/ لذلك فإنه من يعطي شعب البلاد/ احتياجاته من خبزه اليومي/ فله نقول خبزنا كفافنا أعطنا اليوم/ هو من يعدّ موائد القرابين أمام الأرباب/ هو من يعدّ مراكب الصيد للإبحار/ هو إذن من يوفّر الأسماك لطعام الشعب/ بالمقادير اللازمة لكفاية كل فرد في كل يوم.

أما الأسطورة فتقول: يحكى أن آدابا، كان قد خرج ذات يوم لصيد السمك، في بحيرة مياه ساكنة عميقة، تبقّت من مياه فيضان نهر الفرات لذلك العام، في جنوب بلاد الرافدين. ثم جاءت فجأة رياح عاصفة قلبت القارب، فوبّخ آدابا رياح الجنوب العاصفة، ثم لعنها بصوت مرتفع، فصمتت الرياح على الفور، إذ انكسرت أجنحتها التي كانت تطير بها. من المعروف أن الكثير من شخصيّات التوراة والانجيل، التالية زمنيا على العصر السومري، وعلى وقائع هذه الأسطورة، كانت قادرة على أن تصرخ في وجه الرياح، بكلمات تأنيب عنيفة، موبّخة إيّاها على جعل المراكب تضطرب في المياه، فتصمت الرياح على الفور.

الا أن (آنو) كبير الأرباب، تضايق من معرفته بقيام أحد البشر الفانين، بممارسة سيطرته بهذه الطريقة، على واحدة من قوى الطبيعة، وشعر بالخطر يهدّده هو وغيره من الأرباب، وقال في نفسه: إنه لا يحق لبشري أن يفعل هذا، فماذا سيبقى للأرباب لو أن كل البشر فعلوا مثله؟ وبالتالي قرّر استدعاءه أمام مجلس الأرباب السمائي، لتوبيخه علنا على فعلته تلك. قبل التوجّه إلى ذلك المجلس، ذهب إيا Ea إلى آدابا، ينصحه بالامتثال

التام للأرباب في كل ما سيقولونه له، وبالطاعة التامة العمياء في كل ما سيأمرونه به، وبإظهر مشاعر التوبة لهم عن خطيئته لعلّها تغتفر.

وافق (تمّوز) على أن يذهب إلى بوّابة السماء، ليكون في استقبال آدابا عند وصوله، ثمّ ليقوده إلى المجلس السمائي، تحت رئاسة (آنو) كبير الأرباب. اقتيد آدابا أولا إلى المكان، الذي قدّمت له فيه وجبة من الخبز والماء، من النوع المخصّص للبشر الفانين، ثم سيق بعد ذلك إلى قاعة المحاكمة، حيث تمّ استجوابه بخصوص فعلته الشنيعة، وهي توبيخ الرياح ولعنها. ثم يأتي هنا في النصّ هذا السؤال: ماذا حدث حتى تحوّل هذا الإنسان التافه، الذي لا قيمة له، إلى كائن مميّز ذي اسم وشهرة؟ ثم ماذا سيفعل الأرباب به؟ هل سيطردونه من السماء على عصيان الأمر، الذي سبق وأن أصدروه إلى البشر، بعدم التصرّف كأرباب؟

يذكّرنا هذا الموقف، بما حدث بعد ذلك، أي في حوالي سنة ١٢٠٠ ق م، أي بعد النصّ المدرسي في العمارنة بمئتي عام، عندما كتب النبي موسى، في بداية سفر التكوين من كتاب التوراة، قصّة آدم وحوّاء في الجنّة، وما حدث لهما بعد عصيانهما لأمر الربّ، عندما أرادا أن يصبحا مثل الأرباب، في معرفة الخير والشرّ، فأكلا من الشجرة المحرّمة، فوبّخهما الربّ وطردهما من الجنّة.

إن رغبة الأرباب في البقاء متفوّقين على البشر، ومتميّزين عنهم بقدرتهم على التحكّم في عناصر الطبيعة، كانت تحتّم وضع نهاية لحياة هذا الكائن البشري المتجاوز لحدوده. الا أنه كان هناك حلٌّ آخر، ألا وهو تحويل هذا الكائن البشري، المحكوم عليه يوما بالموت والفناء، كغيره من سائر البشر، إلى كائن سماوي خالد، يقترب بخلوده ذاك من مرتبة الأرباب. هنا ظهرت من جديد وبوضوح، في تاريخ الجنس البشري، مسألة أن تكون ربع إله، أو نصف اله أو ثلاثة أرباع إله، التي سبق لها الظهور، وستعاود الظهور في حضارات مختلفة.

هذا هو ما حدث فعلا في هذه الأسطورة، إذ وافق الأرباب على أن يعطوا لآدابا، وجبة

من الخبز والماء، من النوع المخصّص للأرباب الخالدين، قائلين له: إن كل من يأكل من هذا الخبز، ويشرب من هذا الماء، لا يموت أبدا. تذكّرنا هذه العبارات بما قاله يسوع المسيح، أثناء عشائه الأخير مع تلاميذه، في الليلة التي قبض عليه فيها. الا أن الشيء العجيب في الأسطورة التي نحن بصددها، هو أن نعرف أن آدابا قد رفض هذا الامتياز، وبالتالي كأنه رفض الأبدية. يحدث بعد ذلك أن يسخر منه الأرباب، ويقرّرون إعادته إلى الأرض.

يضيف النصّ قرب نهايته بعض المعلومات، إذ إن (آنو) هو الذي كان قد أوحى إلى (آدابا) بالرفض، بعد أن كان قد أقنعه، بأنه من الأفضل للكائن أن يكون، أكثر الأكثر حكمة بين أهل الأرض، على أن يكون الأقلّ حكمة بين أهل السماء. لكن قد تكون الحقيقة هي، أن الإرادة الجماعية للأرباب كانت، ضد تحويل الكائن البشري الفاني إلى كائن خالد، حتى يظلّوا هم وحدهم خالدين، وأن تكون هذه هي الخدعة، التي توصّل بها الأرباب إلى النتيجة المرجوّة. هكذا ظلّ هذا الفرق، هو الفرق الأساسي بين أهل الأرض الفانين، وأهل السماء الخالدين.

الفصل الثامن
ملحمة جِلجامش

١- نصف إنسان نصف اله

جاءتنا تفاصيل هذه الملحمة من مصادر مختلفة، أولا مكتوبة باللغة الأكّادية، على اثنتي عشرة لوحة من الطين المحروق، وتؤرّخ بالقرن الخامس عشر ق م، ثم ثانيا على شقافات فخّارية من فلسطين تؤرّخ بالقرن الثاني عشر ق م، ثم ثالثا من موقع حفائر (بوغازكوي) عاصمة الحيثيين في آسيا الصغرى. هذه الأسطورة الملحمة في صورتها النهائية، تصبح قصّة بطولات شعبية، تتكوّن من سلسلة حلقات، مليئة بالأحداث المثيرة والوقائع الغريبة، في دورة حياة بطل شعبي هو جلجامش.

كان جلجامش شخصية تاريخية حقيقية، وهو غالبا من نسل حام ابن نوح، ووصل إلى منصب ملك مدينة أورك، وهي المعروفة في التوراة باسم **Erech**، وجاء ذكرها بالاسم، في الاصحاح العاشر من سفر التكوين (٦- وأبناء حام هم كوش ومصرايم وفوط وكنعان. ٨- وأنجب كوش نِمرود الذي ما لبث أن أصبح عاتيا في الأرض. ١٠- وقد تكوّنت مملكته في بادىء الأمر، من بابل وإِرك وأكّاد. ١١- ومن تلك الأرض خرج آشور وبنى مدينة نينوى). هكذا تصبح بعض معلومات التوراة الجغرافية والتاريخية، حقائق علمية يمكن الاستدلال على صحّتها. يعتقد الكثير من علماء الاشتقاق اللغوي،

في الوقت الحالي، أن اسم الدولة الحالية (العراق Irak)، مشتق من اسم تلك المدينة القديمة (أورك Ourk).

كان جلجامش ملكًا على أورك حوالي سنة ٢٧٠٠ ق م، ويمكن الاستعانة ببعض المصادر الأخرى غير التوراة، للتأكّد من كونه شخصية حقيقية، حيث تمّ العثور على شقافة سومرية، عليها نصّ مكتوب عنه، بنفس الأسلوب الملحمي، وتؤرّخ بحوالي سنة ١٥٠٠ ق م، وتسجّل وقائع حرب دارت رحاها، بين الملك جلجامش وملك بلاد كيش، حين حوصر جلجامش في مدينته، مما اضطرّه إلى قبول شروط الأعداء، لانهاء حصار المدينة. جلجامش إذن هو من بين تلك الشخصيّات الحقيقية، التي نجد لها أهمية أكبر في الأساطير، حيث حيكت عنهم التفاصيل، عنها في كتب التاريخ، التي لا تذكر عنهم الا القليل، مثلما كان هو حال الملك الإنجليزي آرثر، المشهور بحكايته مع فرسان المائدة المستديرة.

يبدأ نصّ الملحمة بهذه العبارة، التي تعتبر الوصف الأول الوارد في هذا العمل الأدبي، لمن سيكون بطل العمل الرئيسي، (إنه هو ذلك الذي رأى كل شيء)، وهي عبارة تقليدية معروفة، كانت تستعمل بكثرة في بدايات الأعمال الأدبية في بلاد الرافدين، وهي قريبة الشبه من العبارة، التي وردت في بداية ملحمة الأوديسّا للشاعر الاغريقي هوميروس، من القرن الثامن ق م، وفي الحقيقة فإن بدايات الحكايات الشعبية بشكل عام، في كل لغة من لغات العالم، ينشأ فيها نوع من أشكال الرواية، تستعمل عبارات بذاتها كمستهل أو كمدخل.

كما أن الشبه بين ملحمتي جلجامش والأوديسّا، يصل إلى ما هو أعمق من الشكل الخارجي، إذ يمتدّ إلى المضمون العام للعملين الأدبيين، اللذين تدور أحداثهما، حول أفكار فلسفية عميقة، عبر سلسلة متتالية الحلقات، من الوقائع والأحداث المثيرة لاهتمام الجمهور من قرّاء أو مستمعين، تتعلّق بالصراع المحتوم، بين الإنسان المحدود القدرات من جهة، وبين طموحاته التي تتعدّى قدراته من جهة أخرى، وتتجاوز غالبا أيّة إمكانيات

بشرية.

إن غلبة الأفكار الفلسفية على نصّ جلجامش، يجعل من الممكن وضع هذا النصّ، ضمن أسفار الحكمة، المشهورة في تاريخ الفكر البشري. وقد يكون مَيْل مؤلف هذا النصّ، إلى أن يفلسف أحداث الملحمة، أي إلى أن يحاول إظهار المعنى الكامن وراءها، هو الخيط الذي تمكن به في النهاية، من ربط أحداث ووقائع الأقاصيص المختلفة للبطل الواحد معا بخيط واحد، ليتحوّل العمل إلى قصّة شعبية فولكلورية، زاخرة بالأعمال البطولية، التي يقوم بها نفس البطل، ليصبح في النهاية في نظر شعبه، بطلا قوميا ومخلّصا منتظرا، يضع حدّا للظلم الواقع على كل الجنس البشري.

إن ما يحدث هنا في مثل هذه الملاحم، هي عملية تحويل هذا الإنسان إلى نصف اله. هذا هو نفس ما سيحدث لاحقا في الأسطورة الاغريقية، حيث يتحدّى الإنسان العادي، الأرباب المسؤولين عن المصائر، من ساكني قمم الجبال. ثم يحدث بعد ذلك، أن الانجذاب الشديد الذي تشعر به الشعوب، تجاه أبطالها القوميين من الملوك الأسطوريين، هو ما يؤدّي إلى البحث عن صلة نسب أو مصاهرة، بين هؤلاء الأبطال وبين أرباب البلاد، حتى يحصل الأبطال على شرعيتهم كاملة. هذا هو ما تعبّر عنه اللغة الأكّادية بهذا المثل الشعبي (إن الإنسان الذي يصبح ملكا، تعيد الأرباب تشكيله فيصبح على صورة الأرباب).

هذا هو نفس المعنى الوارد في الاصحاح الأول من سفر التكوين عن خلق آدم (٢٧- فخلق الله الإنسان على صورته ومثاله). هكذا تحوّل جلجامش بالتدريج إلى ثلثي اله وثلث إنسان، أي أن العنصر الربوبي فيه أقوى من العنصر البشري، وهو ما يعطي البشر العاديين الأمل، في أنه قد يمكنهم ذات يوم التحوّل هم أيضا إلى آلهة، أو حتى إلى أنصاف آلهة، فينتصرون بذلك على الموت ويحصلون على الخلود. ظهرت فيما بعد في التوراة فكرة أخرى، كأحد الحلول البديلة المتاحة للوصول إلى حالة أنصاف آلهة، إذا تمكنت نساء بشريات من التزاوج مع أبناء الأرباب، كما أنه من هنا جاءت كذلك، الفكرة وراء

القول، بأن يسوع المسيح هو ابن الله.

يقول نص الاصحاح السادس من سفر التكوين (١- وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على سطح الأرض، وولدت لهم بنات. ٢- أن انجذبت أنظار أبناء الله إلى بنات الناس، فرأوا أنهنّ جميلات، واتخذوا لأنفسهم منهنّ زوجات، ٣- فقال الربّ: لن يمكث روحي في الإنسان إلى الأبد، فهو بشري زائغ، لذلك لن تطول أيامه على الأرض أكثر من مئة وعشرين عاما. ٤- وفي تلك الحقب، كان في الأرض جبابرة، إذ بعد أن دخل أبناء الله على بنات الناس، ولدن لهم أبناء صاروا هم أنفسهم هؤلاء الجبابرة). وفي قول آخر العماليق.

ثم تأتي في السطور الأول من نصّ الملحمة، شكاوى نبلاء أورك، التي نرى بها نقدا واضحا لسياسة جلجامش الاستبدادية، ولسلطته المطلقة التي مارسها على شعب مدينة أورك، لا يعارضه فيها أحد. يقول النصّ (جلجامش لا يترك الابن لأبيه/ بل إنه يرسله إلى القتال/ ثمّ إنه نهارا وليلا يتفاخر بانتصاراته/ متعاظما في كبرياء وخُيَلاء/ جلجامش لا يترك الابنة لأمّها/ وهي ابنة المحارب/ التي يجب أن تصبح حتما/ أولا زوجة لنبيل).

قد تكون الشطرة الأخيرة، تشير إلى نوع من الممارسات الاستبدادية، التي ستصل إلى أوروبا في القرون الوسطى، وهي ممارسة حقّ النبيل أو اللورد أو الاقطاعي، في الحصول على عذرية كل فتيات الاقطاعية أو الدوقية، بأن يكون هو من يفضّ غشاء بكارتهنّ، في الليالي السابقة على زفافهنّ إلى أزواجهنّ.

ثم إن هناك إشارة إلى الأنانية البشرية المطلقة التي لا تحدّها حدود، وهو ما يحيلنا إلى أقوال سليمان الحكيم، الذي كان تقريبا على نفس القدر من الاستبداد بالسلطة والتفاخر بالكبرياء، وهو ما يمكننا أن نفهمه من إشاراته الدائمة، إلى كونه في نفس الوقت ملكا على أورشليم، وأحكم أهل الأرض، كأنه يريد أن يقول (أنا مركز الكون، أنا أفضل أهل الأرض).

في الاصحاح الأول من سفر الجامعة (١- هذه هي الأقوال الجامعة لسليمان ابن

داود)، والمقصود بذلك أنها الأقوال التي جمعت كل حكمة أهل الأرض. (٢- يقول الجامعة: كل شيء باطل. ٣- ما الفائدة من كل تعب الإنسان، الذي يتعبه تحت الشمس؟ ٤- جيل يمضي وجيل يقبل، والأرض قائمة إلى الأبد)، وهنا يصبح الوصف الشخصي لسليمان هو أنه نفسه هو الجامعة. ثم (١٢- أنا الجامعة، وكنت ملكا على إسرائيل في أورشليم. ١٤- لقد شاهدت كلّ الأشياء التي تمّ صنعها تحت الشمس، فإذا الجميع باطل كملاحقة الريح. ١٦- قلت في نفسي: لقد عظمت ونمَوْت في الحكمة، أكثر من كل أسلافي الذين حكموا أورشليم من قبلي).

٢- جلجامش يقابل إنكيدو

إنكيدو هو الرجل المتوحّش، الذي يظهر في بداية نصّ الملحمة، حيث كان يعيش في منطقة المنحدرات الجبلية، التي تنمو عليها الأعشاب، التي كان يتغذّى عليها. في البداية كان إنكيدو بالنسبة إلى جلجامش، عدوا ينبغي التخلّص منه، لكن الملحمة تجعلنا نرى كيف أنه بعد ذلك، كان قد تحوّل إلى رفيق مخلص، وزميل مغامرات الرحلة البطولية. الشيء المدهش في إنكيدو، أنه كان صورة جسمانية طبق الأصل من صورة جلجامش، الذي كان بدوره صورة طبق الأصل من (آنو)، ربّ الأرباب في المعتقدات السومرية.

إذن فإن هؤلاء الثلاثة كانوا متشابهين تماما كأنهم توائم، (آنو) و(جلجامش) و(إنكيدو)، وهم كلهم يتمتّعون بكونهم يحملون عنصرا بشريا، إلى جوار عنصرهم الإلهي. هذه هي البداية التي أدّت لاحقا إلى الخلط الكبير، الحادث في مسألة مثل طبيعة المسيح، هل هو اله سماوي، أم إنسان بشري؟ أي هل كانت له طبيعة واحدة، أم أنه كان ذا طبيعتين في نفس الوقت؟ فيظهر أحيانا بصفته الها، ثم يظهر في أحيان أخرى بصفته بشرا؟ أنظروا إلى الاصحاح الأول من سفر التكوين (٢٦- ثم قال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا، ٢٧- فخلق الله الإنسان على صورته ومثاله). هذا من التوراة، ثم انظروا إلى أحد نصوص الإنجيل، وهو من انجيل يوحنا الاصحاح الثامن، حيث يدور هذا الحوار، بين يسوع المسيح، وبين يهود من شعب أورشليم.

لا نستطيع أبدا أن نفهم من هذا الحوار، ما هو المعنى الحقيقي، وراء أن تكون ابنا لله، أو أن تكون ابنا لأبي الأنبياء إبراهيم، فهذا الحوار هنا هو متاهة تامة لا تستطيع أن تخرج منها. ثم إن يسوع المسيح يعترف هنا في هذا النصّ بأنه إنسان. ثم من يقصد بكلمة الآب؟ ومن يقصد بكلمة أبيكم؟ وما هو ذلك الذي لم يفعله إبراهيم؟ وماذا يقصد اليهود عندما يقولون: نحن لم نولد من زنا؟ هل كانوا يعرّضون هنا بيسوع المسيح المولود دون زرع بشر؟

(٣٧- يقول يسوع: أنا أعرف أنكم أحفاد إبراهيم، لكنكم تسعون إلى قتلي، لأن كلمتي لا تجد لها مكانا في قلوبكم. ٣٨- إني أتكلم بما رأيته عند الآب، وأنتم تعلمون بما سمعتم من أبيكم. ٣٩- فاعترضوه قائلين: أبونا هو إبراهيم. فقال: لو كنتم أولاد إبراهيم، لعملتم أعمال إبراهيم. ٤٠- ولكنكم تسعون إلى قتلي وأنا إنسان، كلّمتكم بالحق الذي سمعته من الله. وهذا هو ما لم يفعله إبراهيم. وأنتم تعملون أعمال أبيكم. ٤١- فقالوا له: نحن لم نولد من زنا، ولنا أب واحد هو الله. ٤٢- فقال يسوع: لو كان الله حقا هو أباكم، لكنتم تحبّونني. لأني خرجت من الله ولم آتِ من نفسي، بل هو الله الذي أرسلني. ٤٤- إنكم أولاد أبيكم إبليس، وترغبون في أن تعملوا شهوات أبيكم).

لو عدنا إلى الملحمة، لوجدنا إنكيدو يعيش منعزلا، ولا يعرف بشرا، يتغذّى على الأعشاب مثل الغزلان، ويتدافع مع الحيوانات المتوحّشة بالمناكب، حين يتواجد إلى جوارها عند منابع المياه. لذلك عندما تقابل جلجامش مع إنكيدو، كانت المصادمة بينهما حتميّة، لأن أحدهما يمثّل البداوة والبدائية، في حين يمثّل الآخر الحضارة والمدنية. تعكس هذه المواجهة الفلسفية، الاهتمام المبكّر الذي أولاه، حكماء بلاد الرافدين منذ القِدَم، إلى المدى الذي يمكن أن تذهب اليه، محاولات الإنسان في التوفيق، بين الفطرة التي جُبِل عليها، وبين المدنية التي اكتسبها من التجارب. كانت صورة البدو، من ساكني المنحدرات الجبلية المعشبة، هي في الحضارة السومرية، الصورة التقليدية لأعداء سكان المدن.

ولأن التصالح بين بدو المنحدرات الجبلية، وبين سكّان المدن السومرية، كانت أولى مهام حكّام تلك المدن، لذلك كان استئناس إنكيدو، هو أول إنجازات جلجامش. لكن قبل أن يتمّ التصالح بينهما، كان على جلجامش بدهاء الصيّاد، أن يحاول استئناس وترويض الجانب الوحشي في زميله، وقد تمّ ذلك عبر ترتيب لقاء له مع احدى عاهرات المعابد. هذه المهنة كانت منتشرة في معابد الكثير من الحضارات القديمة، ولا تزال مثلا من الممارسات المعتادة، في معابد بعض طوائف الديانات الهندوسية. دام اللقاء بين إنكيدو وعاهرة المعبد سبع ليالٍ.

بعد ذلك خرج إنكيدو إلى الغابة من جديد، ليكتشف هناك أنه فقد جانبه الوحشي، عندما هربت منه الغزالات، التي كانت سابقا تأنس اليه وتتآلف معه. لكنه اكتشف كذلك أنه في مقابل ما فقده، قد بدأ في اكتساب قدر من الحكمة البشرية. عندما عاد إلى ابنة الهوى، اقترحت عليه أن يترك الغابة، ويذهب معها إلى احدى المدن السومرية. في هذا الجزء من ملحمة جلجامش، شبهٌ كبير مع قصّة **Sidharta** سيد هارتا، الذي سيعرف لاحقا باسم بوذا، وبأنه مؤسّس الديانة البوذية، وتؤرّخ حياته بالقرن السادس ق م. تدعو فتاة الهوى إنكيدو، إلى اكتشاف المجتمع البشري، في مدينتها أورك، الذي يمكن أن يعوّضه عن صحبة الحيوانات.

عندما يلتقي الرجلان تدور بينهما معركة بالمبارزة، لا يتمكّن أيٌّ منهما من الانتصار على الآخر فيها، فتتحوّل العلاقة بينهما إلى الاحترام المتبادل، هنا تأتي في النص على لسان جلجامش، مجموعة من الأقوال الحكيمة متحدّثا إلى إنكيدو، يقول فيها (الأرباب فقط هي التي تعيش إلى الأبد/ أمّا الإنسان فأيّامه معدودة/ وكل ما يحقّقه في حياته/ ما هو الا قبض الريح/ وكل ما على الإنسان أن يفعله في حياته/ هو أن يحاول التقدّم إلى الأمام/ وألا يكون خائفا مما قد يقابله في الطريق/ وصولا إلى جبال غابات الأَرز/ بذلك يكتسب الإنسان لنفسه اسما). مسألة (الكل باطل وقبض الريح) هذه تذكّرنا بأسفار حكمة النبيّ سليمان.

من المعروف في الحضارة السومرية، قيام بعض المغامرين برحلات استكشافية إلى البلاد المجاورة، وقد تكون الإشارة الواردة هنا إلى (جبال غابات الأَرز) هي إشارة إلى لبنان الحالي، وقد يكون الجبل هو المعروف باسم جبل (صافون)، وهي كلمة عبرية تهني (الشمال)، وهو اسم مدينة في منطقة شرق نهر الأردن، وقد يكون اسم جبل، يقع على بعد ٣٠ كيلومترًا، إلى الشرق من موقع حفائر مدينة رأس شمرة، التي كانت مقرّ إقامة الإله (بعل)، ربّ الأرباب في الحضارة الكنعانية. كما أن هناك في سطور تالية، وصفا لما يسمّيه النصّ (حفرة في باطن الأرض تخرج منها النيران المتدفّقة في صخب كبير)، قد تكون هي المنطقة البركانية، الواقعة في جبل الدروز، التي شهدت نشاطا ملحوظا في الألف الثالث ق م.

من المبالغات الموجودة في هذا الجزء من نصّ الملحمة، أن السرعة التي كان جلجامش ورفيقه، يسيران بها بين جنوب بلاد الرافدين، في اتجاه مغامرتهما نحو بلاد الشمال، كانت حوالي ٥٠ فرسخا في اليوم الواحد، وقد اختلف مقياس الفرسخ بين الحضارات المختلفة، لكنه كان بين ٤ و٦ كيلومترات، أي أنهما كانا يقطعان على الأقل ٢٠٠ كيلومترًا، مشيا على الأقدام في اليوم الواحد، وهو مستحيل بالنسبة لبشر، لكنه ممكن بالنسبة لأنصاف آلهة.

رغم تحذيرات حكماء أوروك من خطورة هذه الرحلة، فقد انطلق الزميلان لا يلويان على شيء، ليواجها سويّا أول مخاطر هذه الرحلة، الذي ظهر أمامهما عند مدخل غابات الأَرز، في صورة حارس عملاق على مدخل الغابة. وفي تصرّف يدلّ على تحدّيهما له، قطعا بعض أشجار الأَرز وألقياها أمامه. دار صراع بينهم، فأسرع أرباب الرياح إلى مساندة البطلين، بواسطة إرسال هبّات متتالية من الرياح أسقطت العملاق، فتمكنا من قطع رأسه.

٣- جلجامش يرفض عِشتار

تظهر عشتار في هذا الجزء من الملحمة، بصفتها ربّة للخصب والنماء، وفي نفس الوقت كذلك ربّة للحرب والقتال. من الأشياء العجيبة التي تحدث في هذه الملحمة،

أن يرفض جلجامش محاولة عِشتار إغواءه، وهو ما حاولت أن تفعله، على أن تساعده بعد ذلك بما لديها من إمكانيات استثنائية. هو ليس فقط يرفض مساعدتها له، بل كذلك يقاومها بقدر من الشراسة، ولا تشرخ لنا الملحمة السبب في هذا التصرّف. أنظروا إلى هذا النصّ، المعروفة باسم (أنشودة حبّ عشتار)

(تعال جلجامش لتكن عشيقي/ وهكذا أضمن أن تكون ثماري منك/ ستكون زوجا لي وسأكون زوجة لك/ سأعطيك مهرا للزفاف/ عجلة حربية مصنوعة من الذهب واللازورد/ ستقود عجلتك الحربية بمساعدة الرياح/ التي ستهبّ دائما في الاتجاه الذي تسير فيه/ بدلا من الاعتماد على البغال/ سنقيم معا في منزل وسط غابة الأرز/ حيث عطور نباتات الغابة/ هي الهواء الذي نستنشقه كل يوم/ وعندما تدخل منزلنا/ ستقبّل عتبة الباب قدميك/ سيتواضع أمامك ملوك الأرض وأمراؤها ونبلاؤها/ وسيضعون أمامك الجزية من نتاج حقولهم).

هذه الأنشودة لم تستثر رغبات جلجامش، لكنها استثارت تمّوز، وهو ربّ الاخصاب في مواسم إنبات الحقول، وازدهار محاصيل الأرض، لكن عِشتار لم تكن قادرة، على إنقاذ تمّوز من موته الموسمي، خلال شهور جفاف الأرض، وهو الموت الذي كانت النائحات الباكيات، من فرقة منشدات عشتار، يقمن بالنواح عليه، في طقس جنائزي مارسته باكيات مصر القديمة، وتمارسه إلى الآن السيّدات في المواكب الجنائزية، في الكثير من دول الشرق الأوسط، وحوض البحر المتوسّط.

أنظروا إلى الاصحاح ٨ من سفر حزقيال، أحد أسفار التوراة، الذي يروي فيه النبي حزقيال تفاصيل رؤياه، التي تسمّيها التوراة، رؤيا عبادة الأصنام في أورشليم (١٢- قال لي: أرأيت يا ابن البشر، ما يعمله شيوخ إسرائيل في الظلام، وكل واحد منهم في مخادعه أصنام؟ ١٤- ثم جاء بي إلى مدخل باب هيكل الربّ، فإذا هناك نساء يبكين على تمّوز). ثم نصّ آخر من سفر النبي زكريا الاصحاح ١٢ (١١- في يوم الدينونة يكون النواح عظيمًا على هددريمّون، في سهل مجيدّون). وهددريمّون هو اله الانبات الآرامي، نظير تمّوز

لدى السومريين، وكان هو الآخر يموت في نهاية مواسم الحصاد، وخلال مواسم جفاف الأرض.

انتقاما لكرامتها المجروحة، بسبب الرفض الذي لاقته من جلجامش، فرغم أنها واحدة من ربّات السماء، الا أنها تتصرّف كما لو كانت امرأة أرضية، فتقوم بفضح تصرّفات جلجامش وأسراره، أمام مجمع أرباب سومر، وتتفّق مع كبير الآلهة (آنو) على ضرورة الانتقام منه. الغريب جدًّا هنا هو كيف كان الانتقام. هي أولا تهدّد بإقامة الأموات الذي هم قادرون على ابتلاع الأحياء، الا أنها تقرّر أخيرا أن يكون انتقامها في صورة سبع سنوات عجاف، لا تنبت فيها الأرض أي محصول.

هنا توجد إشارة واضحة إلى حلم النبي يوسف في أرض مصر، الوارد في الاصحاح ٤١ من سفر التكوين (٢٩- ستجيء سبع سنين فيها شبع عظيم في كل أرض مصر، ٣٠- ثم تجيء بعدها سبع سنين جوع، تنسي كل ذلك الشبع الذي كان في أرض مصر، ويتلف الجوع الأرض). وهو ما سيتكرّر حدوثه بعد بضع مئات من السنوات، في زمن النبي إليشع في فلسطين، وفقا لما جاء في الاصحاح ٨ من سفر الملوك الثاني، وهو من أسفار التوراة (١- قال إليشع للمرأة التي أحيا ابنها: إذهبي أنتِ وأهل بيتك، وأقيمي حيثما تيسّر لكِ، لأن الربّ سينزل جوعا على هذه الأرض سبع سنين).

يتمّ استقبال البطلين المنتصرين على أعدائهما، عند عودتهما إلى مدينتهما، بأنشودة ترنّم بما يعرف باسم المناوبة الصوتية التجاوبية، بين مجموعتين من المنشدين والمنشدات، بحيث تلقي احدى المجموعتين السوال المغنّى، فتقوم المجموعة الأخرى بغناء الإجابة على السؤال. الصوت الأول: من هو الأروع بين الأبطال؟ الصوت الثاني: جلجامش هو الأروع. الأول: من هو الأكثر مجدا بين الرجال؟ الثاني: جلجامش هو الأكثر مجدا. الأول: من هي الأسعد بين الزوجات؟ الثاني: زوجة جلجامش هي الأسعد.

ويبدو لنا أن مثل هذه الأناشيد المحتفية بنصر الأبطال المغاوير، قد استمر إنشادها في المناسبات المختلفة، حتى وصلنا زمنيا إلى المناسبات المتعلّقة بشعب إسرائيل. أنظروا

مثلا إلى الاصحاح ١٥ من سفر الخروج، النصّ المعنون (ترنيمة مريم بنت عمران) وهي أخت موسى وهارون (١٩- عندما دخلت خيول فرعون ومركبات فرسانه إلى مياه البحر، ردّ عليهم الله مياه البحر، أما بنو إسرائيل فكانوا قد مشوا على المياه اليابسة في وسط البحر. ٢٠- عندئذ أخذت مريم النبيّة أخت هارون، الدفّ بيدها، فتبعتها جميع النساء بالدفّ والرقص. ٢١- فكانت مريم تجاوبهنّ: رنّموا للربّ، لأنه قد تمجّد جدا، فالفرس وراكبه قد طرحهما الربّ في البحر).

كما أن ذكر أسماء زوجات الأبطال المغاوير، في النصوص التوراتية، كان قد أصبح هو الآخر، تقليدا قد استمرّ بتأثير من مثل هذه الأناشيد السومرية، إذ كان قد أصبح من الضروري كذلك على المقاتل المغوار البطل، أن يتفاخر متباهيا بانتصاراته، بل أحيانا متبجّحا جدا، ذاكرا اسم زوجته أو زوجاته، اللائي يدعوهنّ هن كذلك إلى التفاخر به. أنظروا مثلا في الاصحاح ٤ من سفر التكوين (٢٣- وقال لامش من نسل قايين لزوجتيه: يا عادة ويا زيلا، اسمعا قولي، يا زوجتي لامش، اصغيا لكلامي، إني قتلت رجلا جرحني وشابا كسرني. ٢٤- فإن كان الربّ قد انتقم لقايين سبعة أضعاف، فإنه ينتقم للامش سبعة وسبعين ضعفا).

٤- موت إنكيدو:

إن النسحة الممتدّة من الملحمة، تصل إلى ذروتها الدرامية، بكارثة موت إنكيدو، التي كانت الأرباب قد أنذرت بها جلجامش، في رؤيا داخل حلم، رأى فيه جدلا ونقاشا عنيفا في مجلس أرباب السماء، إذ كان إنكيدو أثناء القتال مع كائنات العالم الآخر، قد قتل ثورا من ثيران مملكة السماء، فإذا بمجلس الأرباب يطالب بضرورة تقديم، ضحيّة بشرية عوضا عن الثور المقتول، وهكذا قرّر مجلس الأرباب، ضرب إنكيدو بمرض قاتل لا شفاء منه، صارعه المصاب الذي عانى من الضعف والتخاذل، طوال مدّة اثني عشر يوما، وهي مرتان من وحدة القياس القائمة على مضاعفات العدد ٦، وفقا لنظام الأعداد الستّيني sexagesimal، في علوم حسابات الحضارة السومرية.

تعطي حادثة موت إنكيدو لمؤلّف الملحمة، الفرصة ليتحدّث عن الجدوى، التي يجنيها الإنسان، من المغامرات التي يساق اليها، بهدف تحقيق طموحاته، التي قد يدفع حياته ثمنا لها، ولا يحصل مقابل هذه الخسارة الفادحة، الا على قدر من الشهرة. لكن يتساءل البطل: هل الحياة الأخرى أكثر راحة من الحياة الحالية؟ كان الاعتقاد السائد في الحضارات القديمة، السومرية والكنعانية والإسرائيلية، حتى القرن الثاني ق م، أن الإنسان في العالم الآخر، يجلس مسترخيا مستريحا دون تعب، الا أن شكل الحياة سيكون مختلفا.

أنظروا إلى نصّ ما يقوله إنكيدو بعد موته (الآن أنا ذاهب إلى منزل الظلام/ حيث لن أعود إلى رؤية النور بعد ذلك أبدا/ أنا ذاهب إلى المنزل/ الذي لا يخرج منه من يدخل فيه/ الذي لا يغادره أحدٌ أبداً/ حيث لا يوجد طريق عودة يعود بك من هناك/ هو طريق اتجاه واحد ذهاب فقط/ هناك لا يوجد الا الكثير من التراب/ هناك لا يوجد للأكل الا الطين/ ولا يرتدي من هم هناك/ الا الملابس المصنوعة من ريش الطيور/ يحيطون بها أجسامهم في شكل أجنحة الطيور/ عندما نظرت حولي إذا بي أرى/ ملوك الأرض وأمرائها ونبلائها/ وقد خلعت عن رؤوسهم وأجسادهم/ تيجانهم وشارات ملكهم).

أنظروا إلى الاصحاح ٣ من سفر النبي أيّوب (١٢- لماذا لم لم أمت وأنا في رحم أمي؟ لماذا لم أسلم الروح عندما خرجت من بطن أمي؟ ١٣- لو لم أخرج من بطن أمي إلى هنا، لكنت الآن لا زلت مضطجعا ساكنا، ولكنت الآن لا زلت نائما مستريحا. ١٤- لكنت مع ملوك الأرض ومشيريها، ومع الرؤساء الذين كنزوا ذهبا. ١٦- لماذا لم أدفن في الأرض حيث لا أرى النور؟ ٢٣- لماذا يوهب نور وتوهب حياة لرجل ضلّ الطريق؟). حيرة وتردّد فلسفي، بين جدوى الحياة، وبين معنى الموت.

إن الكلمة الأخيرة التي نطق بها إنكيدو، تعلن أن الموت على يد الأرباب هو بركة من السماء، ثم يعود الراوي إلى فلسفته، بخصوص جدوى حياة الأبطال، التي يمكن أن يقضي عليها مرض عابر. ثم يعلن جلجامش الحداد على إنكيدو، مذكّرا مستمعيه بأهمّيته وبأهمية بطولتهما معا. كما سيفعل النبي داود لاحقا، فيما يتعلّق بقصّة أخرى، لكنها

شديدة الشبه بهذه الملحمة، إذ تتعلق هي الأخرى ببطلين مغامرين من البشر، اللذين أرادا هما كذلك الحصول على الخلود، واسماهما شاول ويوناثان، وهو ما يخبرنا به الاصحاح الأول من سفر صموئيل الثاني من أسفار التوراة.

(١٩- مجدك يا إسرائيل قتيل على روابيك، فيا لسقوط الجبابرة. ٢٠- لا تحكوا عن ذلك في عسقلون، لئلا تفرح بنات الفلسطينيين. ٢١- أيتها الجبال لا يكن فيك ندى ولا مطر، ومهجورة حقولك تبقى، لأن أبطالنا سقطوا هناك. ترس شاول سقط في التراب ولم يمسح بزيت. ٢٢- عن دم القتلى، قوس يوناثان لم ترتدّ إلى الوراء، وسيف شاول لم يرجع خائبا. ٢٣- شاول ويوناثان محبوبان محبّان، معا في الحياة، ومعا في الموت. أسرع من النسور هما وأقوى من الأسود. ٢٤- يا بنات إسرائيل ابكين على شاول، كان يكسوكنّ الحلل القرمزية. ٢٦- يا أخي يوناثان يا أعزّ صديق، مليئا بالألم والحزن أبكيك. لأن صداقتك لي أولى من حبّ النساء).

بعد دفن إنكيدو، وتقديم قرابين باسمه إلى الأرباب، استأنف جلجامش رحلته، وحيدا هذه المرة دون رفيق، لكنه عاد بحماس إلى بحثه الدؤوب، ليس عن الخلود أو الشهرة كما كان الحال سابقا، بل بحثا عن سرّ الوجود. ذهب في رحلته الأولى تلك إلى الجبال، للبحث عن الناجين من فيضان عظيم، أغرق كل الأرض المسكونة، فيما وراء حدود كل الأراضي التي سبق أن وطأتها قدماه، فوجد زوجا وزوجة، نجيا وحدهما من الفيضان، فمنحتهما الأرباب الخلود.

٥- البحث عن سرّ الخلود

عندما يصل جلجامش، إلى الجبال الواقعة عند الحافة الوعرة لنهاية العالم، أي عند نهاية الأرض المطروقة، يجد أن حرّاس تلك الحدود يأخذون شكلا غريبا، يجمع بين أجسام الرجال وذيول العقارب، يحاول رئيسهم أن يقنعه باستحالة استئناف رحلته، لكن إصرار جلجامش جعل هذه المحاولات بلا جدوى. بعد رحلة طويلة عبر المناطق المظلمة، المتاخمة للحدود الجبلية، وهو يتخّذ الاتجاه شمالا مقصده، يجد أن ثمار

الأشجار حوله هي أحجار كريمة وجواهر، يلمس بعضها لكنه لا يأخذ شيئا منها.

هنا يصل إلى البحر الكبير لأول مرة في رحلاته، وغالبا هو البحر المتوسّط Mediterranean، في منطقة قد تكون عند ساحل لبنان الحالية. هناك يقابل امرأة صغيرة السنّ، اعتقد هو أنها قد تكون احدى الربّات. عرف أنها تشغل وظيفة (حارسة حانة الجعة). هي في البداية تقابله بجفاء وتعترض طريقه، في الغالب بسبب خوفها منه، فهي لا تعرف وجهته أو نواياه. لكنهما سرعان ما يكتسب كل منهما ثقة الآخر، فيروي لها جلجامش تفاصيل رحلته.

عندما يذكر لها أن صديقه مات، أثناء بحثهما عن سرّ الخلود، تنصحه بألا ينشغل بهذا البحث بعد الآن، وبدلا من ذلك عليه أن يستفيد، من كل الفرص التي تتيحها له حياته القصيرة. هنا يقول التاريخ والأساطير، إن النساء أكثر عملية من الرجال. حاولت أن تقنعه أنه بدلا من أن يسلك طريق الشمال، عليه أن يسلك طريق الشرق، بحثا عن المكان الذي تشرق منه الشمس. قالت له إنه سيجد هناك قناة عليه أن يعبرها، فوق قارب يقوده بحّار، إلى الضفّة الأخرى من النهر، التي قد يجد عليها ما يبحث عنه.

كل الحضارات القديمة ذكرت هذه التفاصيل، في سومر وكنعان ومصر، وصولا إلى زمن الأساطير الاغريقية والرومانية. فللعبور من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، على المغامر الرحّالة، أن يعبر النهر على ظهر قارب يحرسه بحّار، معرفة اسم البحّار هي كلمة السرّ. قبل العبور اضطر إلى أن يعيد على سمع البحّار، قصة مغامراته هو وصديقه، كذلك قصّة موت الصديق. هنا يحدث شيء مزعج، إذ يخبره البحّار بأنه لا يستطيع أن يعبر به النهر، لأن جلجامش كان قد أتلف، دون قصد منه، تمّيمة الحظ المزيّنة بالأحجار الكريمة، التي كانت موضوعة على الشجرة التي لمسها.

بعد أن أبحرا هما الاثنان معا، جلجامش والبحّار في نفس القارب، قطعا خلال ثلاثة أيام، المسافة التي قد يقطعها الآخرون في ٤٥ يوما. وصلا إلى مياه بحر الموت. هناك ألقى جلجامش الأسئلة، بخصوص كيفية حصول البشر الفانين على الخلود، وحصل

بالصوت فقط دون صورة، على الإجابات التي لم تكن مشجّعة. كان من بين ما قيل له (هل نحن نبني بيوتا تظلّ إلى الأبد؟/ هل تظلّ الأنهار تفيض مياهها إلى الأبد؟/ ألا يستريح الموتى أخيرا بعد عناء الحياة؟/ ألا يتساوى عندئذ الأمراء مع الفقراء؟/ ثم إن المصائر تحدّدها الأرباب ولا دخل لبشري فيها/ على أن أسرار عالم الموت لم يكشف عنها بعد).

٦- قصّة الطوفان

يتقابل جلجامش مع الناجيَيْن من الطوفان، وهما البشريان الوحيدان اللذان حصلا على سرّ الخلود من الأرباب، الخلود الذي حصلا عليه بشكل استثنائي تماما، بشرط أن يظلّا في حالة سكون وكمون تامين، وعلى ألا يغادرا تلك المنطقة المطلّة على بحر الموت. ثم يبدأ الرجل في حكاية قصّة نجاته هو وزوجته من الطوفان لجلجامش. هكذا تأتي حادثة الطوفان الذي أغرق الأرض، على هامش هذه الملحمة، وخارج سياقها العام. لكن هناك حكايات أخرى تصف التفاصيل الدقيقة لحادثة الطوفان، في سياق أساطير سومرية أخرى.

في ملحمة جلجامش لا يذكر النصّ، السبب الذي من أجله قرّر الأرباب إغراق الأرض بالطوفان، لكن يحدث أن تذكر احدى النسخ الأكّادية اللاحقة، أن الأرباب قد تضايقوا جدًّا من زيادة أعداد البشر، ومن زيادة حجم الضجيج الصادر عنهم، الذي كان يزعج الأرباب في مساكنهم السماوية، حتى أنهم قد اضطرّوا إلى الصعود إلى الطابق السابع من السماء، للابتعاد قدر الإمكان عن ضجيج الأرض. وقد حاول الأرباب في البداية، أن يعاقبوا البشر بالمجاعات، الا أن البشر لم يرتدعوا عن ضجيجهم، فلم يعد باقيا أمام الأرباب، الا تجربة الانتقام من البشر بالطوفان.

أما التوراة فتذكر أن سبب الطوفان هو، رغبة الله في معاقبة البشر على كثرة خطاياهم. أنظروا هنا إلى ما يذكره الاصحاح ٦ من سفر التكوين عن طوفان الماء (٥- ورأى الربّ أن شرّ الإنسان قد كثر في الأرض، ٦- فملأ قلبه الأسف والحزن، لأنه خلق الإنسان.

٧- وقال الربّ: أمحو الإنسان الذي خلقته عن وجه الأرض، مع سائر الناس والحيوانات والزواحف وطيور السماء. ٨- أما نوح فقد حظي برضى الربّ. قال الله لنوح: قد أزفت نهاية البشر جميعا أمامي، لأنهم ملؤوا الأرض ظلما، لذلك سأبيدهم مع الأرض. ١٤- ابنِ لك فلكًا من خشب السرو، واجعل فيها غرفا تطليها بالزفت من الداخل والخارج. ١٦- وليكن للفلك طوابق سفلية ومتوسّطة وعلوية).

أما الحكاية التي يرويها الإنسان الناجي من الطوفان، التي لم نعثر أبدا على نصّها الكامل، ولكن فقط عثرنا على فقرات وشطرات متناثرة، على ألواح شبه محطّمة، فتقول (إن المدينة الواقعة على ضفّة نهر الفرات/ تلك المدينة القديمة التي سبق أن سكن فيها الأرباب/ قد انقلبت قلوب الأرباب عليها/ فأرسلوا اليها فيضان النهر ليغرقها). كان الأرباب قد نصحوا الزوجين، اللذين كان الأرباب قد قرروا، أن يكونا الناجيين الوحيدين، بأن يبنيا لهما سفينة ضخمة، ويستأنف النصّ الحكاية:

(انقذ حياتك أيها الكائن البشري الناجي أنت وزوجتك/ ابنِ لك ولها تلك السفينة/ وضع أغلى ما تملك على ظهر السفينة/ لكن يمكنك أن تتخلّى عن ممتلكاتك الأرضية/ التي لا تحتاج اليها فعلا/ فالهدف الحقيقي هو أن تنقذ روحيكما/ لتصبحا الناجيين الوحيدين/ ضع معك على ظهر السفينة/ بذور كل نباتات الأرض/ وأزواجا من كل كائنات الأرض). نصح الأرباب الزوجين الناجيين، بألا يخبرا أحدا من أهل الأرض، بنبأ الاستعداد لمواجهة الطوفان، وأن يردّدا دائما على الناس أجوبة مضلّلة خادعة، عندما يسألهما الناس عن السبب الذي من أجله، هما يبنيان هذه السفينة الضخمة.

ذات يوم بدأت العاصفة بالرعد والبرق، وهو الإعلان المعتاد، عن فتح أبواب السماء، وإسقاط المياه السماوية على الأرض، وهو ما فعله (إنليل) ربّ المياه السماوية في سومر، أو (بعل حدّاد) ربّ المياه السماوية في كنعان (مع أول بريق من ضوء شمس فجر اليوم الموعود/ جاءت السحب السوداء الضخمة/ قادمة من جهة أفق السماء/ داخلها كان يمكن أن يُسْمَع صوت ربّ الرعد/ زحفت السحب فوق التلال والوديان/ وصولا إلى

وادي نهر الفرات/ حيث ملأت الأمطار حوض النهر بالمياه/ التي فاضت على ضفّتيه/ حتى أغرقت كل المدن الواقعة عليه/ ولم يعد أحد من السكّان يسأل/ أين أبي؟ أين أمّي؟ أين زوجتي؟ أين ابني؟/ بل كل إنسان يبحث فقط عن خلاص نفسه ولا يجده/

ثم جاءت هبّات قوية من الرياح العاتية/ تدفع أمامها المياه العالية/ لتغمر الأرض حتى قمم الجبال/ حتى أن أرباب السماء خافوا هم أيضا من المياه/ فتركوا السماوات الأولى والثانية والثالثة/ واستأنفوا الصعود وصولا إلى السماء السابعة/ وهو آخر طوابق عمارة السماء/ حيث يكونون أبعد ما يمكن عن مياه الطوفان/ وقد غرقت الأرض كلها بعد سابع يوم مطير/ ثم توقّف المطر وبدأت مياه الطوفان في التراجع/ والانسحاب عائدة إلى المكان الذي جاءت منه/ نظر الناجيان حولهما فلم يجدا الا الأرض المنبسطة/ كأنها قد مسحت من عليها/ كل آثار الحياة السابقة/

وهكذا كان الجنس البشري كله قد عاد/ إلى الطين الذي سبق أن خلق منه/ وبحث الناجيان عن شاطئ/ يمكن لسفينتهما أن ترسو عليه/ حتى وجداه بالقرب من قمّة أحد الجبال/ ثم حدث في سابع يوم بعد رسوّ السفينة/ أن أخرج الناجيان يمامة/ وأطلقاها حرّة تطير كما تشاء/ فعادت في نهاية النهار اليهما/ وهكذا كل يوم يطلقانها صباحا/ فتعود في نهاية النهار اليهما/ حتى جاء اليوم الذي أطلقاها فيه فلم تعد/ فعرفا أنه يمكنهما في ذلك اليوم أن يغادرا السفينة/ فقرّرا أن يطلقا أولا سراح/ كل أزواج الكائنات الحيوانية/ التي كانت معهما على ظهر السفينة/ ثم يرحلان هما كذلك).

هذه هي طبق الأصل، نفس الصورة الموجودة في نصوص التوراة، في الاصحاح ٨ من سفر التكوين (١- أرسل الربّ ريحا على الأرض فتقلّصت المياه،٢- ثم انسدّت ينابيع اللُجَج وميازيب السماء، فاحتبس المطر. ٣- وتراجعت المياه عن الأرض تدريجيا. ٤- واستقر الفلك على جبال أرارات. ٦- ففتح نوح نافذة وأطلق غرابًا. ٧- فظلّ يحوم متردّدًا عائدًا إلى الفلك. ٨- ثم أطلق نوح حمامة لم تجد موضعا تستقر عليه فرجعت. ١٠- ثم بعد سبعة أيام عاد فأطلقها من جديد. ١١- فعادت اليه في المساء تحمل في

منقارها ورقة زيتون خضراء. ١٢- فمكث سبعة أيام أخرى ثم أطلق الحمامة، فلم ترجع اليه أبدا هذه المرّة).

حتى الاعتقاد في أن الأرباب، لن تعود إلى الانتقام من البشر، بمثل هذه الطريقة، ورد في السطور الأخيرة، من نصوص هذا الجزء من الملحمة، على لسان الربّة عشتار، التي كانت هي المندوبة الشرعية عن بقية أرباب السماء، وقالت هذا الكلام، أمام حشد من البشر. وهو نفس ما جاء في الاصحاح ٩ من سفر التكوين (٨- وخاطب الربّ نوحا وأبناءه قائلًا: ٩- ها أنا أبرم ميثاقي معكم ومع ذرّيتكم، ومع جميع المخلوقات الحيّة التي معكم، ١١- أبرم ميثاقي معكم، بأن لا يبيد الطوفان كل ذي جسد بعد. وأن لا يكون هناك طوفان بعد، يقضي على الحياة في الأرض).

دون الدخول في مزيد من التفاصيل، المتعلقة باستمرار جهود جلجامش في البحث عن الأبدية، ثم في البحث في قاع البحر عن النبات الذي يعيد الشباب، تنتهي نصوص الملحمة بالحكمة الفلسفية والأخلاقية، التي تنصح الإنسان بأن يكون راضيا، عن وضعه الأرضي المؤقّت، مذكّرة إيّاه بما يمكنه أن يستمتع به، في هذه الحياة الأرضية القصيرة، على ألا يسمح للطموحات العابثة غير المجدية، بالتحكّم في تفكيره، وبالسيطرة على عقله، وبصرفه عن واجباته والتزاماته، تجاه نفسه وتجاه مجتمعه.

هذا الكلام يتطابق تمام المطابقة، مع ما سيعود الملك والنبي سليمان الحكيم إلى ذكره، في أحد أسفار التوراة التي حملت اسمه، وهو سفر الجامعة **Ecclesiastics**، بعد حوالي ١٥٠٠ سنة من التاريخ المتّفق عليه حاليا، بخصوص نصوص ملحمة جلجامش، التي تؤرّخ بالقرن ٢٥ ق م، في حين يؤرّخ نصّ الملك سليمان بالقرن ١٠ ق م. في الاصحاح ٩ من سفر الجامعة

(٧- فامضِ أيها الإنسان وتمتّع بأكل طعامك. واشرب خمرك بقلب منشرح، لأن الربّ قد رضِى الآن عن أعمالك. ٨- لتكن ثيابك دائما بيضاء، ولا يعوزّن رأسك الأطياب. ٩- تمتّع طوال أيام حياتك الباطلة، التي أعطاك إيّاها الربّ تحت الشمس، مع

المرأة التي أحببتها، لأن ذلك هو حظّك من الحياة، ومن عناء تعبك الذي تكابده تحت الشمس. ١٠- وكل ما تحصل عليه من عمل، فاعمله بكل قوّتك، إذ إنك لن تجد في الهاوية التي أنت ذاهب اليها، أي عمل أو ابتكار أو معرفة أو حكمة).

الفصل التاسع
صورة الملك الأرضي

١- رحلة إيتانا إلى السماء

في كل حضارات الشرق القديم، يدور الملوك في فلك الأرباب، لذلك فالملك هو غالبا جزء من مادة الأساطير، وبالتالي من مادة الطقوس الدينية والعبادات. في الفقرات الأخيرة من ملحمة جلجامش، ورغم أن البطل هو ثلثا اله سماوي، الا أنه عندما أصبح ملكا أرضيا، كان دائما محاطا بهيئتين استشاريتين، الأولى تتكوّن من رجال من الحكماء كبار السن وكهّان المعابد، والثانية هي هيئة رجال الحرب. تروي الأسطورة أن هاتين الهيئتين، كانتا دائما على خلاف، فاحداهما تظلّ دائما ضد الأخرى. لهذا فإن وجود هاتين القوّتين المتضادتين، في جهاز الحكم البابلي، اتّخِذَ من قبل المؤرخّين، دليلا على وجود مبدأ من مبادئ الممارسة الديمقراطية الحديثة.

لكن رغم هذه الديمقراطية المزعومة، كانت هناك منطقة لا يمكن الاقتراب منها، هي منطقة (أقوال الأرباب)، ذلك أنه لا يجوز الاعتراض على ما تقوله الآلهة، إذ كان المبدأ السائد هو أن الحكم للأرباب، فهم الذين يضعون دستور المبادئ الأخلاقية والعملية، الذي تحكم بنوده كل أفراد الدولة، من حكّام ومواطنين، ومن سادة وعبيد، مهما اختلفت انتماءاتهم الطبقية. إذن كان العنصر الثابت في هذا الدستور، هو أن الربّ هو الذي يحكم،

في حين كان العنصر المتغيّر، هو أن أداة الربّ في الحكم هي شخصية الملك الأرضي، الذي يولد فيحكم لمدة طالت أو قصرت، ثم يموت فيحلّ محلّه وريثه على العرش، الذي كان في أغلب الأحوال أحد أبنائه.

هنا كانت قد ظهرت في تاريخ البشرية، أولى محاولات إضفاء الشرعية، بواسطة طبقة كهّان المعابد، على عملية انتقال السلطة بين شخصين أرضيين، بالقول إنها إرادة سماوية، أي أن الوريث قد حصل على حقّ الوراثة من الآلهة، أي أن هذه هي إرادة الله، فكيف يعترض البشر، وهو ما سيعرف لاحقا باسم الحقّ الإلهي في وراثة السلطة. طالما استغلّ كهنة الأديان المختلفة، عبر القرون الطويلة، هذه السلطة المطلقة التي كانت للأرباب، في فرض أمور على الشعوب، تكون غالبا في مصلحة الملوك، وبالتالي تكون هذه الأمور هي كذلك، في مصلحة كهّان المعابد.

يمكننا هنا أن نذكّر بأن مصر القديمة، قد عرفت نفس هذه الممارسات، في نفس تلك الفترات المبكّرة من التاريخ الإنساني، في حالة الفرعون أوسركاف من الأسرة الخامسة، من القرن ٢٥ ق م، الذي استعان بكهنة رعّ لإدّعاء مسألة حقّه الإلهي في وراثة كرسي العرش. كذلك في حالة الفرعون حورإمحبّ، في نهاية الأسرة ١٨ من القرن ١٤ ق م، الذي اتفق مع كهنة معابد آمون في الكرنك، على أن يقف تمثال آمون أمامه، ولا يتحرّك مهما حاولوا، أثناء طقوس جولة آمون اليومية داخل معبده، على أن يقال للناس لاحقا، إن هذا التصرّف من آمون، هو دلالة أكيدة على أن آمون، قد اختار حورإمحبّ لكرسي عرش البلاد، ذلك بعد أن كان نزاع قد قام على السلطة، بسبب مقتل الفرعون الصغير توت عنخ آمون.

يظهر اسم الملك إيتانا، في قائمة أسماء ملوك بابل، في المرحلة التالية على مرحلة الطوفان، ثم يظهر نفس الاسم مرات عديدة، في نصوص مختلفة تعود إلى فترات زمنية مختلفة، تمّ العثور عليها في أماكن متفرّقة، من أرض منطقة الشرق الأدنى، في الشام والعراق الحاليين. وصلت الينا بعض هذه النصوص، مكتوبة باللغة الأكّادية، وتقول (إن

الرجال ذوي الرؤوس السوداء/ لم يكونوا قد اختاروا ملكا لهم بعد/ في الزمن الذي لم تكن قد ظهرت فيه/ هيئات استشارية بعد/ تقوم بمعاونة أهل الأرض على اختيار ملوكهم).

ولأن النصوص مهشّمة في الألواح المختلفة، فبتجميع المعلومات من مصادر مختلفة، نجد أن العبارات السابقة تلحق بها عادة، هذه العبارة القاتلة القائلة (حتى تدخلت العناية الإلهية، وأرسل أهل السماء أوامرهم إلى أهل الأرض)، ثم يأتي في نفس السياق اسم الملك إيتانا، الذي يبدو أنه كانت قد ظهرت في زمنه مشكلة كبيرة، فيما يتعلق بمسألة وراثة كرسي العرش، بسبب عدم قدرة زوجته على الانجاب، مما جعل مسألة استعانته بأرباب السماء، أمرا لا مفرّ منه.

ثم تأتي هنا في سياق الحكي، فقرة اعتراضية قد تبدو خارج السياق، تتعلق بقصة الصداقة التي نشأت بين نسر وثعبان. ويبدو أن هذا النسر كان كبير الحجم جدا، حتى أنه قد يكون صورة من صور الحيوانات الخرافية، التي تجعله في ذهنية العقل الجمعي، قريب الشبه من طائر العنقاء، المرتبط بعوالم الأساطير. لكن هذه الصداقة الغريبة تنتهي فجأة، عندما يعلم الثعبان، أن النسر قد جعل من أحد صغار الثعبان وجبة له.

هنا تبدأ على التو مرحلة الصراع العنيف بينهما، الذي يؤدّي إلى نجاح الثعبان في الانتقام من النسر، بعد أن لدغه لدغة قاتلة. يعود النصّ إلى ذكر إيتانا، الذي تمكّن بعلمه ومعرفته، من علاج اللدغة، فأراد النسر أن يردّ له الجميل. الا أن بعض المصادر الأخرى تذكر، أن الثعبان قد احتال على النسر، ومن المعروف عن الثعابين الحيلة والدهاء، بأن أوقعه في فخّ جعله حبيسًا عاجزًا عن الطيران، وأن الذي أنقذ النسر من هذا الفخّ هو إيتانا. بعض المصادر تقول إن الحيّة الباكية النائحة، لجأت إلى عدالة السماء، فأرسل السمائيّون من ألقى القبض على النسر وسجنه في محبسه.

من العجيب أنه قبل زمن هذه الأسطورة السومرية البابلية، التي تدور أحداثها في بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد، كانت مصر القديمة قد اختارت هذين الحيوانين هما

نفسهما، ليكونا رمزين للحماية الإلهية، فالنسر كان معروفا باسم نخبت **Nekhbet** وهو حارس مملكة الجنوب، وفي التماثيل الملكية تجده ممثلا على جبهة ملك الجنوب، والثعبان باسم وادجيت **Ouadjet**، وهو حارس مملكة الشمال، وتجده ممثلا على جبهة تماثيل ملك الشمال، وكان صراع عنيف قد دار مرارا بين الشمال والجنوب، خلال تاريخ مصر الطويل، الا أن توحيد القطرين على يد الملك مينا/ نارمر، جعل جبهة الملك تتسع للحيوانين معا.

تمكن النسر من ردّ الجميل، بأن حمل إيتانا على ظهره، وطار به في اتجاه السماء الأولى، أي إلى الطابق الأول من عمارة السماء ذات السبعة طوابق. هذا هو ما يفسّر المنظر، الذي يمكن أن نجده منقوشا على الحجر في المعابد السومرية، حيث نرى إيتانا راكبا فوق ظهر نسر، يبدو طائرا وهو يفرد جناحية إلى مدى اتساعهما، فالرحلة إلى السماء شاقة عسيرة. هنا يمكننا الإشارة إلى أن الكثير من أنبياء التوراة، مثل إيليا وإليشع ودانيال، الذين بعد رحيلهم، ذكر كاتبو أسفارهم، أنهم في لحظة موتهم، انتقلوا إلى السماء طائرين، أو على ظهر عجلة حربية، كانت تشتعل فيها نيران آلهة السماء.

يقول الدكتور فرانكفورت، بأن النصوص تؤكّد على، وصول إيتانا إلى بوّابة السماء الأولى، حيث يعلن بصوت مرتفع، طاعته التامة العمياء، لكل ما ستمليه الأرباب عليه من أوامر سماوية، لكنه لم يجد هناك من يستقبله، وهو ما اضطرّه إلى استئناف الصعود، طابقا وراء آخر، حتى وصل إلى بوّابة السماء السابعة، لكنه لا يقابل الأرباب في أي مكان، فيقرّر يائسا أن يعود إلى الأرض، باستعمال نفس الطريقة، أي على ظهر النسر. السؤال هو لماذا تخلّت السماء عن إيتانا؟ احدى النسخ تقترح، أن يكون إيتانا قد حصل من عشتار، على النبات السحري، القادر على فعل المعجزات، المعروف لدى العامة والخاصة باسم نبات الانجاب، الذي لو أكلت منه زوجته، فإنها بعون الأرباب، ستتمكّن من الانجاب.

إن أحد المعاني الواضحة، التي يمكن إدراكها، من قصة ذهاب إيتانا إلى السماء وإيابه منها، هو أن ملوك بلاد الرافدين كانوا في درجة أقل من الدرجة التي كان عليها أرباب بلاد

الرافدين، وهو وضع مختلف عمّا كانت عليه أحوال ملوك مصر القديمة، الذين كانوا على نفس الدرجة من التقديس، مثلهم مثل أربابهم، حتى أن الملك في مصر القديمة كان يعتبر تجسيدا أو إعادة تجسيد **reincarnation** لأحد الأرباب.

هكذا فإن ملك بلاد الرافدين الوحيد، الذي اختلف عن كل أسلافه من الملوك السابقين عليه، الذي ادّعى الألوهية، وطلب من كهنته مساواته بالأرباب، هو (نارام سين **Naram - sin**) الذي حكم حوالي سنة ٢٢٠٠ ق م، ويظهر الفرق بينه وبين من سبقه من ملوك بلاده، في اللوحات المنقوشة على الشواهد الحجرية، التي تكرّس لانتصاراته العسكرية، التي تصوّره وقد بدا مئة مرة، أكبر في الحجم من جنوده الواقفين حوله، بنفس الطريقة التي سيصوّر ملوك مصر القديمة، من كبار رجال الحرب، أمثال تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني، أنفسهم بها.

٢- الوريث الشرعي

من الملفت للانتباه كذلك، أن أغلب النصوص التي وصلت الينا، في حالة تسمح بالقراءة والفهم، والمتعلّقة بتنصيب ملوك بلاد الرافدين القديمة، تتضمّن عبارتين كانتا تتكرّران دائما، كلتيهما معا أو احداهما فقط، في وصف الطريقة التي تتمّ بها عملية اختيار الملك الجديد، سواء أكان هو الوريث الشرعي للملك المتوفّى، كأن يكون أخاه أو ابنه أو حفيده، أو لم يكن، هما عبارة (ظهر في رؤيا)، أو (ظهر في وحي الهي)، والرؤيا هي طبعا وحي الهي، وعبارة (تمّت دعوته بالاسم)، وفي كل منهما الإيحاء بأن الاختيار كان قد جاء من السماء، وأنه لا يد فيه لأي فرد أو مجموعة أفراد، من أعضاء الهيئات الاستشارية، إذ إنه أمر الهي بحت.

يمكننا هنا الاشارة كذلك، إلى تكرار نفس هاتين العبارتين، في النصوص المتعلّقة بنفس الأمور، في الحضارات المحيطة بحضارة بلاد الرافدين، والمعاصرة لها، في فارس وفي كنعان، وصولا إلى نصوص التوراة، المتعلّقة بمملكة يهوذا في إسرائيل. لقد فهم كل الملوك والكهنة، مبكّرا جدًّا في كل تلك البلاد، أنه يمكنهم تمرير أي شيء يريدونه،

أي شيء على الاطلاق، فقط لو قالوا إنها إرادة الهية. هذه كانت هي البداية لسلسلة لا نهاية لها من الأكاذيب، المستمرّة في أغلب بلاد تلك المنطقة من العالم حتى الآن، حيث يمكنك تمرير أي شيء بالقول (هذه هي إرادة الله، فكيف للمؤمنين الحقيقيين أن يعترضوا؟).

من بين أهم نماذج تلك النصوص، هناك النصّ الشهير المعروف باسم قانون حامورابي، ويعود إلى حوالي سنة ١٧٠٠ ق م، وهو قبل أن يصل إلى شرح تفاصيل لائحته القانونية، ينصّ أولا على أن الملك حامورابي قد تمّت دعوته بالاسم، في رؤيا خاصة جاءت من السماء، ظهر فيها ربّ الشمس، وهو يدعو حامورابي باسمه، إلى أن يكون ملكا، ويحثّه بعد تنصيبه ملكا، على (إقامة العدل في مملكته)، وهذه العبارة الأخيرة هي التي ستتكرّر في نصوص القانون.

من بين أهم النماذج الأخرى، المتعلّقة بمسألة الوحي الإلهي في اختيار الملوك، النصّ الخاص بالملك آشور أخادين (أوسر حدون)، حوالي سنة ٦٨٠ ق م، الذي رغم أنه لم يكن الابن الأكبر، لسلفه الملك سينا خريب، الا أن الوحي الإلهي هو الذي قرّر اختياره ملكا. من بين النماذج الأخرى، لموضوع الوحي الإلهي في اختيار الملوك، لدينا قصّة تعود إلى سنة ٧٢٠ ق م، وهي قصة اختيار الملك (آحاز) لابنه بالتبنّي المدعو (حزقيا)، وهو الابن الذي جعله حزقيا في حياته، يحصل منه أولا على لقب وريثه الشرعي، وثانيا على منصب شريكه في كرسي عرش مملكة يهوذا، قائلا إنه قد جاءته نبوءة أوحي اليه بها من ربّ السماء بهذا الاختيار.

وفقا للاصحاح ٩ من سفر إشعياء، جاءت كلمات هذه النبوءة بالعبارات التالية (٦- لأنه يولد لنا ولدٌ ويعطى لنا ابنٌ، يحمل الرئاسة على كتفيه، ويدعى اسمه عجيبا، مشيرا، الها قديرا، أبا أبديا، رئيس السلام. ٧- ولا تكون نهاية لنمو رئاسته، ولا للسلام الذي سيسود على عرش داود ومملكته، ليثبّتها وليعضّدها بالحق والبرّ، من الآن والى الأبد. ٨- لقد أصدر الربّ قضاءه على إسرائيل، ٩- فيعلم الشعب كله). هذه الكلمات كانت

أكبر بكثير من حجم حزقيا، مما جعل شرّاح الإنجيل يستعملونها لاحقا، على أنها نبوءة لا تتعلّق بحكم حزقيا، بل بحكم يسوع المسيح نفسه.

فيما يتعلّق بالوراثة الشرعية لعرش المملكة، كانت حضارة بلاد الرافدين، من أولى الحضارات التي استعملت عبارة (الوريث الشرعي)، الذي كان غالبا هو الابن الأكبر للملك الجالس على العرش، وكانت هي أيضا من أولى الحضارات، التي ابتكرت نظام (الشريك في كرسي العرش co-regent)، وهو النظام الذي يمكّن الوريث الشرعي، من حكم البلاد جزئيا في حياة أبيه، بالجلوس معه على كرسي العرش، وهو ما يسهّل عليه لاحقا شغل كرسي العرش كله بعد وفاة الأبّ.

كان هذا هو الحل العملي، لمواجهة مشكلة تعدّد الزوجات، في العائلات الملكية في ذلك الزمن، الذي كان الملك فيه يقتني عددا لا حصر له من النساء في (حريم السلطان)، وبالتالي لم يكن يعرف على وجد الدقّة أسماءهنّ، ولا أسماء أولاده الذكور منهنّ، بما كان يفتح الباب على مصراعيه لكل أنواع المؤامرات، في محاولة كل زوجة أو محظيّة، أن تحصل لابنها هي لا لأبناء الآخرين، على منصب الوريث الشرعي. في ذلك الوقت كانت كثرة أبناء الملك، هي المقياس الذي يعترف به الجميع، دليلا على فحولة الملك الجنسية، التي كانت كذلك ذات دلالة على قدراته العسكرية والقتالية.

كانت هذه هي حالة كل ملوك مصر القديمة، وأفضل نموذج مصري لهذه الحالة، هو الملك رمسيس الثاني، الذي قيل إنه كان لديه أكثر من مئة ابن ذكر. كانت هذه هي أيضا حالة ملوك بني إسرائيل، وأفضل نموذج لها هو الملك والنبي سليمان الحكيم، ابن الملك والنبي داود. يمكننا أن نجد القصّة الكاملة، للكيفية التي وصل بها سليمان إلى عرش إسرائيل، قبيل وفاة أبيه داود، في الاصحاح الأول من سفر الملوك الأول، أحد أهم أسفار التوراة، الذي يروي فقرات من تاريخ ملوك إسرائيل في عصرهم الأول، أي خلال القرون الأولي قبل السبي البابلي.

سأورد هنا أهم أجزاء هذا الاصحاح الطويل نسبيا، التي يمكنها أن تلخّص لنا أهم

التفاصيل المتعلّقة بهذه القصّة، دون أن يكون هناك اخلال بالمعنى العام، والنصّ الكامل متاح

(١- شاخ الملك داود جدًّا وطعن في السن، فكانوا يدثّرونه بالأغطية فلا يشعر بالدفء. ٢- وعظّم (أدونيا) ابنه من زوجته (حجيت) نفسه قائلًا: أنا أملك. وجهّز لنفسه مركبات وفرسانا، واستأجر خمسين رجلا يجرون أمام موكبه. ٦- ولم يغضبه أبوه بسؤاله: لماذا فعلت هكذا؟ ٩- ذبح أدونيا غنما وبقرا ومسمّنات، ودعا أدونيا جميع أخوته أبناء الملك داود، وجميع رجال يهوذا من حاشية داود، ١٠- ولكنه لم يدعُ (ناثان) النبي ولا (سليمان) أخاه.

١١- فأقبل ناثان النبي إلى (بتشبع) أم سليمان قائلًا: ألم تعلمي أن أدونيا ابن حجيت قد ملك، وسيدنا داود لم يعرف بالأمر بعد؟ ١٢- فالآن تعالَيْ أشير عليكِ بما ينقذك وينقذ ابنك سليمان. ١٣- امضي وادخلي إلى الملك داود وقولي له: ألم تحلف يا سيدي الملك لجاريتك أن ابني سليمان يكون الملك من بعدي وهو يجلس على عرشي؟ فلماذا ملك أدونيا إذن؟ ١٤- وفيما أنتِ تخاطبين الملك، أدخل وراءك وأؤيّد كلامك.

٢٠- بعد أن حكت بتشبع لداود القصّة، قالت بتشبع له: إن جميع أعين شعب إسرائيل، يا سيدي الملك، تتجه نحوك في انتظار إعلانك، من سيخلف سيدي الملك على عرشه. ٢٢- وفيما هي تخاطب الملك جاء ناثان النبيّ، ٢٤- وتساءل ناثان: هل قلت يا سيدي الملك إن أدونيا يملك من بعدي، ٢٧- هل صدر هذا الأمر عن سيدي الملك؟ ٢٨- فأجاب الملك: استدعِ لي بتشبع، فمثلت أمام الملك. ٢٩- فحلف الملك قائلًا: حيّ هو الرب الذي أنقذني من كل ضيق.

٣٠- كما أقسمت لكِ من قبل بالربّ اله إسرائيل، إن ابنك سليمان يملك بعدي ويخلفني على عرشي، هكذا أفعل هذا اليوم. ٣٢- طلب داود استدعاء صادوق الكاهن وناثان النبيّ مع آخرين، فدخلوا إلى حضرة الملك. ٣٣- فقال لهم: خذوا معكم رجال حاشية سيدكم، وأركبوا سليمان ابني على بغلتي الخاصة، وانطلقوا به إلى جيحون، ٣٤-

ليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبي ملكا على إسرائيل، وانفخوا بالبوق هاتفين: ليحيَ الملك سليمان.

٣٥- ثم اصعدوا وراءه، حتى يأتي فيجلس على عرشي، فهو الذي اخترته ليخلفني على عرش إسرائيل، ٤٠- وصعد جميع الشعب وراء سليمان، وهم يعزفون على الناي هاتفين فرحا. ٤١- وسمع أدونيا ومدعووه جميعا أصوات الهتاف، فتساءل: ما معنى هذا الضجيج في المدينة؟ ٤٣- فأجابه يوناثان: إن سيدنا الملك داود قد نصّب سليمان ملكا، ٤٦- وقد جلس سليمان على كرسي المملكة. ٤٩- فاعترت الرعدة جميع مدعوّي أدونيا، فقاموا وتفرّقوا كل في سبيله.

٥٠- وملأ الخوف أدونيا من سليمان، فانطلق مسرعا إلى مذبح هيكل المعبد. ٥١- قيل لسليمان: ها هو أدونيا قد ملأه الخوف منك، ويقول: ليحلف لي اليوم سليمان أنه لا يقتل عبده أدونيا بالسيف. ٥٢- فقال سليمان: إن أثبت صدق ولائه، فإن شعرة واحدة من رأسه لن تسقط على الأرض، ولكن إن أضمر الخيانة والشرّ، فإنّه حتما يموت. ٥٣- فأرسل الملك سليمان من أحضره من عند المذبح، فأتى وسجد للملك سليمان، فقال له سليمان: اذهب إلى بيتك).

٣- الملك سرجون هو النبي موسى

تزداد حدّة مشكلة وراثة العرش، في حالة مجيء قادم جديد، من خارج البلاط الملكي. ويحدث أن يكون مجيئه على استعجال لإنقاذ موقف متأزّم، أو أن يكون مجيء القادم الجديد متمهّلا وعلى مراحل، بفضل طموحه وعزيمته ومواهبه الشخصية القيادية والعسكرية، فيرتفع شأنه في المملكة بالتدريج. في حالة القادم الجديد، كان على الكهنة أن يقوموا بإقناع الشعب، بمسألة وقوع الاختيار الإلهي عليه، رغم أنه قد يكون ذا أصول مجهولة.

إن أفضل نموذج لهذا الأسلوب، هو ما فعله سرجون الأكادي، وهو الذي ربّما يكون أحد أول الملوك المستبدّين، في تاريخ الجنس البشري، إذ يدّعي سرجون أنه

الابن المولود لسيّدة، من أولئك النساء المكرّسات للخدمة في المعابد، وهنّ الفتيات أو السيّدات اللائي، كنّ يعتبرن زوجات للرب أو عرائس للسماء، وكنّ يُقِمْنَ تقريبا بصفة دائمة في هذه المعابد، وكنّ ممنوعات عن ممارسة أية علاقة جنسية، مع الرجال من العامة، غير المنتمين لطبقة الكهنوت، ويقدمن خدماتهنّ الجنسية فقط لرجال الدين.

ولم يكن يتمّ الربط بين المولود، لواحدة من هؤلاء النساء المقدّسات، وبين أبيه من الكهنة، بل إن كل الأولاد المولودين في المعبد، كانوا يعتبرون أبناءً، لكل الرجال من كهنة المعبد، وهو نوع من الارتباط كانوا يسمّونه الزواج المقدّس، لاعتقاد العامة من الناس، بأن هؤلاء النساء من البشر، اللائي يعتبرن نساء مقدّسات، يرتبطن في الحقيقة لا بكهنة المعبد، بل بزيجات مع أرباب من السماء، وينتج عن هذه الزيجات رجال من أنصاف الآلهة. في زمن سرجون حوالي ٢٢٠٠ ق م، كان هناك في معبد عشتار بضعة عشرات من هؤلاء النساء المقدّسات. لهذا لم يكن سرجون يعرف أباه.

أنظروا إلى جزء من نصّ هذه الأسطورة (حملت بي أمّي سرّا/ ووضعتني سرّا/ ثم نقلتني إلى سلّة مصنوعة من عيدان نبات الأَسَل/ وغطّت الأسل بطبقة من القار/ ثم وضعت السلّة فوق مياه النهر/ الذي لم ترتفع أمواجه أبدا لتبتلعني/ ولكن حملني النهر حملا رقيقا/ ودفعني بلطف إلى حيث ألقى مصيري/ المكتوب لي منذ قبل أن أولد/ وعندما سحب أحدهم الماء بدلوه/

وجدت نفسي وقد انتشلت من النهر/ وقد أخذني من رفعني وربّاني كابن له/ وعلّمني فيما بعد حرفة البستنة/ وفي حديقة أحد المعابد/ حين كنت شابا فتيّا/ قابلت عشتار/ التي منحتني قطفة من نعيم عشقها/ وهكذا اختارتني هي لأصبح ملكا/ وبالتالي تمّ تنصيبي ملكا/ ومن ثمّ حكمت على الرجال من ذوي الرؤوس السوداء).

طبعا لسنا في حاجة إلى مقارنة هذا النصّ، بنصّ التوراة الذي يحكي قصّة ملابسات مولد النبي موسى، فالتشابه بين القصّتين شديد الوضوح، فالطفل الرضيع يوضع في سلّة، مصنوعة من أعشاب نباتية، تركتها الأقدار طافية فوق مياه نهر النيل، حتى تمّ إنقاذ الرضيع،

بواسطة أميرة من بنات الفرعون ملك مصر، التي أخذته وربّته في البلاط الملكي كأحد أمراء الأسرة الحاكمة، فحصل بالتالي على أفضل تربية ممكنة، أعدّته للمهام الجسام التي كانت موكلة اليه، وفقا للمصير الحتوم المكتوب له منذ قبل أن يولد.

أما قصة اللقاء بالربّة عشتار، فهي القصّة التي اخترعها كهنة المعبد لسرجون، حتى يبرّروا أمام الناس، السبب الذي من أجله تمكن سرجون، ولا أحد غيره، من الحصول على كرسي العرش.

٤- المسؤولية الاجتماعية للملك

عندما يتمّ استقرار الأوضاع للملك الجديد، عليه ألا ينسى أبدا في زخم الملكية، أنه فقط شخص مكلّف من قِبَل الربّ بمهمّة مقدّسة، ففي الطقوس السنوية لأعياد العام الجيد، ومقدم فصل الربيع، كان على الملك كل عام، أن يتخلّى عن منصبه الملكي، في معبد الربّ مردوخ بمدينة بابل، على أن يستردّه مباشرة بعد ذلك، وتتمّ طقوس أو مراسم التخلّي والاسترداد السنوية، من خلال ممارسات كهنوتية في المعبد الرئيسي للربّ مردوخ، هدفها أن يشعر الملك بالمذلّة والمهانة أمام الربّ، الذي أقامه في منصبه، ويقدر على أن يزيحه منه، وبالتلي يتأكّد الملك من أن كل زهو الملكية ومجدها، هو هشّ وإلى زوال.

عرفت تلك المناسبات كذلك طقسا آخر، يعرف باسم طقس الاعتراف السلبي، أو الاعتراف الإنكاري، يقوم الملك خلاله، بإنكار ارتكابه عدد من الذنوب، باستعمال أدوات النفي في اللغة السومرية، مثل (لم) و(لن) و(لا). من الغريب أن هذا الطقس يتشابه تماما مع طقس آخر، كان كل متوفى في مصر القديمة، يمارسه يوم الحساب الأخير، أمام قضاة العالم الآخر، الذين يكرّر أمامهم عشرات العبارات، التي تبدأ كلها بأداة النفي (لم)، حيث يقول (لم أسرق/ لم أكذب/ لم أنظر باشتهاء إلى امرأة جاري/ لم أتبوّل في مياه النيل) وهكذا.

في مقدّمة نصوص شرائع حامورابي، هناك فقرة يقرّ فيها بمهمّته المقدّسة، في الحفاظ

على العدالة الاجتماعية، وفي حماية استقرار المجتمع البشري، الذي تركته الآلهة أمانة في يديه، بصفته المزدوجة، فهو مندوب عن مجموع البشر أمام الأرباب، وفي نفس الوقت، هو مندوب عن الأرباب أمام مجموع البشر. هذا العبء الضخم، كان الملوك يأخذونه على عواتقهم، بشكل تام الجدّية، ويعتبرونه أمرا مقدّرا عليهم، لذلك كان على الملك أن يؤكّد دائما، أنه نجح في الحفاظ على استقرار مجتمعه، وفي تأمين مصالح وحقوق، كل الطبقات، بل كل الأفراد. هكذا فقط يتحقق السلام الاجتماعي، بتحقيق العدالة للجميع.

أنظروا إلى ما يقوله الملك آشور باني بال في هذه الأنشودة (بعد أن أقرّت الأرباب/ بضرورة حصولي على موقعي/ فوق كرسي عرش البلاد/ خلفا للملك أبي الذي أنجبني/ أرسل الأرباب الأمطار بغزارة/ فنمت النباتات في الحقول/ إلى ارتفاع لم تصل اليه النباتات من قبل/ وهو ارتفاع خمسة أذرع/ وهكذا ازدهرت المحاصيل/ فكان الحصاد وفيرا جدا/ وأنجبت قطعان الماشية صغارها/ وبالتالي كانت فترة وجودي على عرش البلاد/ هي الفترة التي امتلأت خلالها/ مخازن الغلال عن آخرها/ حتى فاضت على جوانبها/ بما كان فيها من مخزون).

هذه الأفكار عن ارتباط العدالة الاجتماعية وفقا لشريعة الربّ، بالوفرة في انتاج المحاصيل الزراعية، وبالرخاء لجميع أفراد المجتمع، كانت مألوفة في التصوير العبراني، للدور الذي يلعبه ملوك إسرائيل، وأفضل نموذج يمكن استعماله هنا، للتدليل على هذه الفكرة، هو نصّ مزمور ٧٢، الذي وضعه الملك سليمان في القرن العاشر ق م، الذي يقول

(١- اللهم اعط أحكامك العادلة للملك. ٢- فيقضي لشعبك بالعدل ولمساكينك بالانصاف. ٤- ليحكم الملك بالحق للمساكين، ويحطّم الظالم. ٦- ليكن الملك كالمطر المنهمر على المراعي، كالغيوث التي تسقي الأرض. ١٦- لتتكاثر الغلال في الأرض وعلى رؤوس الجبال، وتتماوج مثل أرز لبنان، ويُزْهِر أهل المدينة كعشب

الأرض. ١٨- تبارك الربّ اله إسرائيل، فهو وحده صانع العجائب. ١٩- ولتمتلئ الأرض كلها من مجده).

طبعا كانت المبالغة واضحة في نصّ آشور باني بال، مثل ارتفاع النباتات إلى خمسة أذرع، الا أن أسلوب استعمال هذه الأوصاف المبالغ فيها، هو الأسلوب الذي يعود أنبياء العبرانيين أو كاتبو أسفارهم، إلى استعماله مرارا وتكرارا في أسفار التوراة، وهو الأسلوب المستعمل خلال عشرة قرون، بين القرن العاشر ق م، زمن الملك سليمان، والقرن الأول قبل مجيء المسيح. أنظروا مثلا إلى ما كتبه أحد حاخامات اليهود سنة ٦٧ ق م، وهو الحاخام سمعان ابن شيتاش، خلال فترة حكم الملكة سالومة (سنابل القمح في حجم الكلية/ وحبّات الشعير في حجم الزيتونة/ وحبّات العدس في حجم الدينار الذهبي).

وهكذا فإن أسلوب مدح وتقريظ، ملوك بلاد الرافدين في الفترة السومرية، يعود إلى حقيقة اعتبار الملك، هو الضامن المؤقّت للنظام المفروض من قبل الأرباب، والمدير التنفيذي للأحكام السمائية. أنظروا إلى ما يقوله إشعياء النبي، عن ملوك إسرائيل من ذرّية الملك داود ابن يسّى، في الاصحاح ١١ من السفر الذي يحمل اسمه في التوراة

(١- يفرخ برعم من جذع يسّى، وينبت غصن من جذوره. ٢- يستقر عليه روح الربّ، روح الحكمة والفطنة، روح المشورة والقوة، روح معرفة الربّ ومخافته. ٣- تكون مسرّته في تقوى الربّ، ولا يقضي بحسب ما تشهد عيناه، ولا يحكم بمقتضى ما تسمع أذناه، ٤- إنما يقضي بعدل للمساكين، ويحكم بإنصاف لبائسي الأرض، ويميت المنافق بنفخة شفتيه. ٥- لأنه سيرتدي البرّ ويتمنطق بالأمانة. ١٠- في ذلك اليوم ينتصب أصل يسّى راية للأمم، وإليه تسعى جميع الشعوب، ويكون مسكنه مجيدا).

الفصل العاشر
الأساطير الكنعانية

١- أسطورة بعل وعنّات

تم العثور على نصوص هذه الأسطورة، في موقع حفائر مدينة رأس شمرة على الساحل السوري، في منزل لأحد كهنة الإله بعل، كان ملحقا بمعبد بعل في المدينة. كانت هذه الأسطورة مكتوبة على عشرة ألواح حجرية، الا أنها قد عثر عليها غير مرتّبة، مما جعل مسألة ترتيب أحداث الأسطورة، مشكلة صعبة الحل، إذ تساءل العلماء إن كانت هذه الألواح، تروي قصّة واحدة أم عدّة قصص.

تروي نصوص الألواح الثلاثة الأولى، أحداث الصراع الذي دار، في المواجهة التي حدثت، بين بعل من ناحية، بصفته الشخصية، وبالنيابة عن غيره من الأرباب الأخيار، وبين الأرباب الأشرار، من ناحية أخرى، وهم غالبا كانوا إمّا تيّارات مياه البحار والمحيطات، التي تبتلع في طريقها كل شيء، أو عواصف الصحراء الساخنة الملتهبة المحمّلة بالأتربة، بكل ما كان لهذه أو تلك من زهو وخيلاء، وهي القوى التي تمثّل التخريب والتدمير والفوضى في الطبيعة. هذا هو بالضبط نفس ما قابلناه في الأساطير السومرية، حيث كان ربّ الخير مردوخ، دائم التأكيد على سلطاته، في مواجهة قوى التخريب والتدمير والفوضى في الطبيعة.

يحدث كذلك أن تنقلب صور بعل وتتعاقب، وفقا لمواسم الزراعة في إقليم سوريا، فهو في الشتاء ربّ الخير، الذي يحمل الأمطار إلى الأرض الزراعية ليسقيها، فتنمو نباتات الحقول وتزهر وتثمر، ثم هو في الصيف، في موسم القيظ والجفاف وعقم الأرض، يمرّ بمرحلة موات مؤقّت، عندما يتغلّب عليه (موت **Mot**) ربّ الموت والعقم. هنا يتشابه تماما بعل الكنعاني مع تمّوز البابلي، الذي يموت هو الآخر كل عام، في موسم القيظ الصيفي وجفاف الأرض. بل إن تمّوز كما تتذكّرون يذهب إلى العالم الآخر، ليسكن مع الموتى، حتى الموسم التالي لعودة الأرض إلى الحياة.

الا أن ألواح رأس شمرة، تعالج بعض الموضوعات الجديدة تماما، على عالم الأساطير البابلية، مثل أن تكون لبعل أخت شقيقة، تحلّ محلّه أثناء غيابه السنوي، خلال موسم الجفاف، وهي الربّة (عنّات) المدافعة عن بعل على طول الخط. في أنشودة تحمل اسمها، تقوم (عنّات) بتحية منتجات الحقول، من كروم الأنبذة وغيرها من محاصيل الحقول، ثم تقوم بإلقاء الأسئلة، التي لا نعرف على وجه الدقّة إلى من توجّهها.

(ما هي القوّة التي تستطيع أن تقف في وجه بعل؟/ بعل القادم فوق السحاب ما هي القوّة التي تستطيع مواجهته؟/ ألم يحطّم بعل قوى أمواج البحر؟/ ألم يزح تيّارت المحيط من الوجود؟/ ألم يضرب الثعبان المتلوّي على رؤوسه السبعة؟/ ألم يضرب أنصار ربّ الموت في العالم الآخر؟/ ألم يضع نهاية لحيواناته المتوحّشة؟/ ألم يضع نهاية لحياة نيران أرباب الشرّ؟/ ولكل الشعلات النارية المنبثقة منها؟).

تأتي في النصّ بعد ذلك، تفاصيل الصراع المفتوح، الذي دار بين بعل وأعدائه، الذين أرادوا أن يوقعوا به في الأسر، فيضع بعل نفسه في حالة الاستعداد القصوى، من الحماس وقوّة الاحتمال، ويقفز أمام أعدائه ممسكا في يده اليمنى بسكّين قتال، وهو يطرد من أمامه، رسل ربّ التيارات البحرية، وهو يضربهم بالسياط على مؤخّراتهم. يقول النص إن بعض رجال الحرف كانوا يساعدون بعل، ومنهم بعض الموسيقيين من عازفي الآلات الموسيقية، الذين ترنّموا بأناشيد النصر، وبعض الحدّادين من صانعي الآلات الحديدية،

ومن بينها سكاكين القتال. أنظروا إلى مزمور ٩٢ (٣- وعلى أنغام الآلات الموسيقية الوترية، وعلى الرباب وألحان العود العذبة، ٤ - سأشيد بكل ما عملته يداك).

كان اله الصواعق في كنعان يسمّى حدّاد **Haddad**، وهو الاسم الذي يطلق حاليا في اللغتين العبرية والعربية، على صانع الأدوات الحديدية، التي كانت في الأزمنة القديمة، عبارة عن تروس ومقامع ودبابيس قتال وسيوف ورماح، وعجلات حربية، وهو نفسه الذي كان يتجسّد في صورة رجال من أصحاب مهنة الحدادة، يقوم واحد منهم بصناعة حزمة من الصواعق لبعل، ليستعملها في صراعه مع أعدائه.

وفي حالة القتال المحتدم بين بعل وربّ البحر، كان بعل مضطرّا إلى استعمال الصواعق كلها، واحدة بعد أخرى، فأصابت واحدة من هذه الصواعق، اله البحر في جبهته بين عينيه، وهي وفقا للتقاليد الكنعانية تعتبر رمزا للاصابات الماحقة، التي تقتل العدو في لحظة واحدة. والصواعق في اللغة العبرية تسمى (باراك **Barak**) وهي كذلك قريبة جدًّا من العربية (برق).

تظهر هنا في ألواح رأس شمرة، الربّة الأنثى التي تدعو إلى الاحتفال بالانتصار، ووجود الأنثى يصبح ضروريا جدًّا في مثل هذه الاحتفالات. ففي حالة مردوخ السومري هي عشتار، وفي حالة بعل الكنعاني هي عنّات **Annat**، وفي حالة ملوك التوراة من اليهود العبرانيين هي ديبورا **Deborah**. أنظروا إلى ما يقوله الاصحاح ٤ من سفر القضاة عنها (٤- وكانت دبّورة امرأة نبيّة وقاضية لإسرائيل، ٥- وكانت تعقد مجلس قضائها تحت نخلة بين الرامة وبيت إيل).

أما في حالة الجنود المنتصرين، فمثلما كان يحدث في كل حروب العالم حتى القرن العشرين، تكون هناك فتاة واحدة أو اثنتين، من فتيات الأعداء، من نصيب كل مقاتل منتصر. أنظروا إلى ما يقوله سفر القضاة التوراتي، في اصحاحه الخامس، بخصوص هذا الموضوع، إذ كانت الاناث من بين غنائم القتال (٣٠- عندما يجدون الغنيمة يقتسمونها، فتاة أو فتاتين لكل رجل، وغنيمة ثياب مصبوغة ومطرّزة، لتلفّ بها النساء أعناقها).

إن النصوص التي تعالج موضوع علاقة عنّات بالشعب الكنعاني، تشير إلى الاعتقاد بأنها كانت قادرة، على جذب العديد من الشباب إلى معابدها، لدعوتهم لاحقا إلى الانضمام إلى الشباب الآخرين من المقاتلين الأبطال. يقول النصّ (هي تعدّ الأماكن للمحاربين/ وتعدّ موائد الطعام للجنود/ وقلبها وكبدها يمتلآن فرحا بالانتصارات/ ثم تغتسل بندى السماء/ وتستحم بالمطر المتساقط من النجوم/ وتجمّل نفسها بالمساحيق).

لكن في الحقيقة فإن هناك مجالا كبيرا للتساؤل، حول كيف أن صورة البحر في التراث الكنعاني، هي صورة تغلب عليها الجوانب السلبية، في حين أن أهل مدينة رأس شمرة/ أوغاريت، التي تقع بالقرب من ساحل البحر، وتتمتّع بالكثير من مزايا الوقوع على ساحل بحر عظيم، مثل البحر المتوسّط، بما تمتلكه المدينة من ميناء ضخم، لاستقبال السفن القادمة بكل أشكال البضائع، من بلاد العالم القديم، وبما تقدّمه لهم مياه البحر من أسماك مختلفة الأنواع، يستعملونها في طعامهم اليومي، من الصعب الاعتقاد في أنهم كانوا يعتبرون البحر هو فقط اله شرير، أو هو فقط مصدر شرّ كبير، لا تأتي من ورائه الا المصائب والكوارث.

٢- بناء بيت الربّ

عندما تدلّنا النصوص الكنعانية، على وجود رسائل متبادلة بين بعل وعنّات، يكون موضوع الحوار بينهما، هو تصوّر البيت الذي سيسكنان فيه معا، ويأتي هذا النصّ بنفس الأسلوب الملحمي، الذي ينشده المنشدون الدينيون، فيكرّرون نفس العبارات، ولكن في كل مرّة جديدة، يغيّرون في العبارة كلمة واحدة فقط لا غير، وكل النصّ يتعلّق بوصف خطوات بناء المنزل، والشكل النهائي الذي سيكون عليه.

إن كل من قرأ الأسفار الأولى من التوراة، يعرف أن هذا هو نفس أسلوب التوراة في الحكي، ويعرف كذلك أن موضوع بناء بيت الربّ، هو من الموضوعات الأثيرة لدى كتبة الأسفار الأولى من التوراة، منذ زمن إقامة خيمة الاجتماع في برّية سيناء، على يد النبي موسى وأخيه هارون، على أي قطعة أرض جرداء من برّية سيناء، فتتقدّس الأرض

ويتقدّس موقعها، بمجرد البدء في عملية تشييد خيمة الاجتماع فيها، حتى زمن تشييد هيكل الملك والنبي سليمان الحكيم في أورشليم.

إن إتمام بناء بيت الربّ بعل، الذي ستشاركه الإقامة فيه الربّة عنّات، فوق قمّة جبل، أو فوق قمّة تلّ مرتفع عن الأرض، يمثّل مرحلة الانتصار النهائي لبعل على كل أعدائه، الذي تصفه الأبيات الشعرية، بأنه (أي بعل) هو نفسه كالملك في قصره، أو في قلعته الحصينة. إن وجود بيت الربّ، أو قصر الملك وقلعته الحصينة، في موقع مرتفع من الأرض، يزيد من حصانة الموقع، ويقلّل من قدرة الأعداء على الوصول اليه.

في الأجزاء التالية من نصوص التوراة، يظهر بوضوح الخلط التام، بين شخصيتي الربّ والملك، أو بين شخصيتي الربّ والنبي الذي يتحدّث باسم الربّ، وهو في حالة النصوص التالية، النبي يعقوب إبن اسحق وحفيد إبراهيم، وهو كذلك والد النبي يوسف، فالنصوص تجعلهما، أي يعقوب والربّ، تقريبا شخصا واحدا، فالحديث عن أحدهما هو كأنه حديث عن الآخر، فهما يمتزجان معا دون تفريق بينهما، فإرادة الملك أو النبي هي من إرادة الربّ.

في الاصحاح ٤ من سفر النبي ميخا يقول (١- إن جبل هيكل الربّ هو أشهر الجبال، ويعلو فوق كل التلال. فتتقاطر اليه شعوب عديدة. ٢- وتقبل اليه أمم كثيرة قائلة: تعالوا نصعد إلى جبل الربّ، إلى هيكل يعقوب، ليعلّمنا طرقه فنسلك في سبله). ثم في الاصحاح ٢ من سفر النبي إشعياء (٢- إن جبل هيكل الربّ، يصبح أسمى من كل الجبال، ويعلو فوق كل التلال، فتتوافد اليه جميع الأمم. ٥- يا بيت يعقوب هيّا لنسلُك في نور الربّ).

إنّ من عناصر التشابه الواضحة، بين وصف خيمة الربّ في صحراء سيناء، أو هيكل سليمان في أورشليم، وبين البيت الذي يبنيه بعل لنفسه ولعنّات، هو وجود أسقف متحرّكة، فالبيت المبني بالأحجار فوق قمم الجبال، له أسقف خشبية متحرّكة، والخيمة المبنية من القماش، فوق هيكل من جذوع الأشجار، هي الأخرى لها سقف متحرّك. الغرض من

هذه الأسقف، هو أنها بفتحها، تصبح الأبهاء الداخلية من البناء معرّضة للسماء، وبالتالي يسهل التواصل مباشرة بين الأرض والسماء، وفقا لطرق التفكير البشري، في ذلك العصر المبكّر من تاريخ البشرية.

إن فتح أسقف المنزل على السماء، يجعل كذلك كل ما بداخل المنزل، يتعرّض لقطرات المطر المتساقطة من السماء، وهو ما يعتبر في أعراف كل الحضارات القديمة، مباركة الهية لمحتويات المنزل، وهو الاعتقاد المستمر حتى الآن، مثلا لدى مسيحيي الشرق، عندما يزور الكاهن المنزل، المنتهي حديثا من البناء، وقبل أن يسكنه سكّانه، فيلفّ في أرجائه، ليرشّها بالماء المصلّى عليه، كنوع من المباركة الإلهية.

يقول النصّ الكنعاني (إن صوت الرعد المسموع داخل القصر/ هو نفسه صوت بعل المنطوق به في أعالي السماوات/ وهو نفسه صوت مليكنا المحبوب المنطوق به من داخل قصره/ يا أعداء بعل/ يا أعداء حدّاد/ كم أنتم بؤساء/ لأن الهنا في قوّته/ وعند اكتمال بهائه/ لا يأبه بكم/ فعندما تنطلق الرماح المصنوعة من خشب الأرز/ حاملة في أطرافها الأجزاء المعدنية المسنونة/ تخترق أجسادكم أينما كنتم/ فكيف لأي عدوّ أن يعتقد/ أنه يمكنه منافسه بعل/ ليسرق منه نفوذه على الأرض).

يصف النصّ الكنعاني كذلك، ذهاب البنّائين إلى لبنان، لإحضار جذوع أشجار الأرز من هناك، ثم يصف إشعالهم النار، التي يستخدمونها في إعادة سبك الفضّة والذهب، وفقا لمقتضيات عمليّات تزيين وزخرفة، حِلْيات الأبهاء الداخلية من القصر، فيعاد سبك الذهب، في كتل كروية متساوية الأحجام، ويعاد سبك الفضّة، في ألواح سطحية متساوية الأبعاد. كل هذا بغرض أن يتمكّن بعل من أن يقول (لقد بنيت بيتي وزيّنته بالذهب والفضّة).

عند تكريس المعابد، أي عند إعلان تخصيصها لعبادة الربّ، اعتاد الشعب العبري على تقديم ذبائح من مئة ثور، ويستخدم هذا المصطلح في وصفها بالإنجليزية **hecatomb**، وقد انتقل هذا الطقس لاحقا إلى الحضارتين الاغريقية والرومانية. هذا هو نفس ما تشير

اليه الأنشودة الكنعانية، خين تقول (يكرّس الملك بعل/ بيته لعبادة الربّ/ يكرّس الملك حدّاد/ بيته بذبائح الثيران/ وبذبائح من قطعان الماشية/ من النعاج والخراف).

في جزء آخر من النصّ، يتحدّى الربّ بعل، أخد أهم أعدائه، وهو كذلك أحد أهم أرباب العالم الآخر، وهو ربّ الموت والعقم المسمّى (موت) Mot، الذي تصف الأنشودة مكان إقامته في العالم الآخر قائلة (مدينته مدمّرة/ وكرسي عرشه محطّم/ والأرض التي يمشي عليها/ كريهة الرائحة تعافها النفس). فيردّ (موت) متحدّيا قائلا (رغم أنك يا بعل/ هشّمت رؤوس التنانين والثعابين/ وأهمهم لوتان الثعبان/ ذي السبعة رؤوس/ لكن أرضك هي الأخرى ستظل خرابا يباباً/ وسأعمل بنفسي على أن أجعلها كذلك/ حتى أنك لن تحتمل الوضع على الأرض/ وستفضّل أن تذهب بنفسك إلى العالم الآخر).

كل هذه الصور انتقلت من الأساطير الكنعانية، إلى نصوص أسفار التوراة، مثل التنّين الذي يعيش تحت مياه البحر، والثعبان الملتوي ذي السبعة رؤوس، التي كانت في الأساطير، تمثّل قوى الخراب والفوضى الكونية، فعادت إلى الظهور في التوراة، لتمثّل كذلك نفس القوى الشرّيرة المدمّرة. أنظروا إلى الاصحاح ٢٦ من سفر النبي أيّوب، في مجال تأكيد أيّوب على عظمة الله (٥- أمامه ترتعد الأشباح من تحت المياه. ٦- الهاوية مكشوفة أمامه. ٧- يعلّق الأرض على لا شيء. ٩- يحجب وجه عرشه بالغيوم التي يبسطها فوقه. ١١- من زجره ترتعش أعمدة السماء. ١٢- بقوّته يهدّئ هيجان البحر. ١٣- يداه اخترقتا الحيّة الهاربة).

أنظروا كذلك في الآية الأولى من الاصحاح ٢٧ من سفر إشعياء (١- في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم المتين، لوياثان الحيّة الهاربة الملتوية، ويقتل التنّين الذي في البحر). وفي المزمور ٧٤ (١٢- إنما الله هو ملكي منذ الزمن القديم، هو صانع الخلاص في وسط الأرض، ١٣- أنت يا الله من فلقت البحر بقوّتك، وحطّمت رؤوس التنانين. ١٤- أنت مزّقت رؤوس فرعون وجيشه، وجعلته قوتا للحيوانات المتوحّشة).

طبعا عبارة (فلقت البحر) تشير إلى حادثة عبور شعب إسرائيل، مياه البحر عند خليج السويس، وعبارة (فرعون وجيشه) هي إشارة إلى فرعون مصر، على زمن خروج شعب إسرائيل من مصر. وبمناسبة الحديث عن الفرعون الذي كان على عرش مصر، في زمن النبي موسى، فإنّ الاحتمالات تشير حاليا، إلى أنه مرنبتاح ابن رمسيس الثاني، الذي لا يرد ذكر اسم شعب إسرائيل في نصوصه الملكية الا مرّة واحدة، على اللوحة المعروفة باسم لوحة انتصارات مرنبتاح، الموجودة في المتحف المصري بالقاهرة، التي تضع اسم شعب إسرائيل، بين أسماء العديد من الشعوب والقبائل، التي واجهها جيش مرنبتاح وانتصر عليها.

وليس هناك أي ذكر على الاطلاق، في أيّ نصّ مصري قديم، لموضوع عبور الماء في خليج السويس، وحادثة غرق الفرعون وجيشه وعتاده، رغم ما يمكن أن يكون لهذا الحادث الجلل، من وقع شديد على الحياة المصرية، لو أنه حدث حقيقي، وهو ما تصر عليه نصوص التوراة، وتكرره مئات المرات، على لسان أنبيائها المختلفين، في أسفارهم التوراتية المختلفة، دون أي دليل مادي واحد يمكن العثور عليه، في حقول حفائر المواقع الأثرية، أو في النصوص القادمة من حضارات معاصرة لتلك الفترة الزمنية، وإنما هي أسطورة من بين الأساطير التوراتية، التي دأب أنبياء اليهود على اختلاقها. هكذا تلاعبت نصوص التوراة بحقائق التاريخ.

٣- الذهاب إلى العالم تحت الأرضي

في بعض النسخ من النصوص نجد أن بعل قد خسر معركته مع (موت)، ولذلك يضطر إلى الذهاب إلى العالم الآخر مهزوما فاقدا للحياة. إن انتصار (موت) على بعل، هو ما يبرّر البجاحة والوقاحة والتعالي، في الطريقة التي يتحدّث بها (موت) إلى بعل، عندما يحدّثه قائلا (خذ معك سحبك ورياحك وأمطارك وبرقك ورعدك/ خذ معك صيّادي خنازيرك البرّيّة/ وانزل معهم إلى العالم التحت أرضي/ إلى مكان الاعتزال والتجرّد/ حيث ستصبح واحدا من أولئك الذين يعيشون في العالم الآخر/ وستعرف أنت أيضا

الفناء والعدم/ اللذين يعرفهما كل الموتى).

قد تكون الإشارة هنا إلى صائدي الخنازير البرّيّة، هي إحالة إلى قصّة مقتل (أدونيس)، وهو الاسم الذي أطلقه الاغريق، على نظير بعل في الأساطير الفينيقية، في معابد مدينة بيبلوس، الذي كان الها للشباب والخصوبة، الذي قتل بسبب هجوم خنزير برّي عليه، وقد تكون هذه الواقعة هي البداية الحقيقية، للاعتقاد السائد بشأن الخنازير، وهي مسألة أن الخنزير حيوان نجس، وقد تكون هذه الواقعة هي كذلك السبب، في الكراهية الشديدة التي تكنّها الديانة اليهودية، بل في الحقيقة تقريبا كل ديانات هذه المنطقة من العالم، للخنازير.

كما قد تكون الإشارة هنا إلى العالم تحت الأرضي، هي إشارة إلى المعتقدات السائدة، في الديانات القديمة، لحضارات تلك المنطقة من العالم، إذ كانت مصر القديمة خلال الأسرات من الأولى إلى السادسة، تقصر حقّ الوصول إلى العالم الآخر، أي إلى عالم البقاء والخلود، على الملك وأفراد أسرته، وبعض رجال البلاط، أمّا باقي الشعب فلم يكن له أي حقّ في الذهاب إلى عالم الخلود. في تلك المرحلة اعتقد المصريون القدماء، أن العالم الآخر هو في السماء، لذلك بنوا الأهرامات حتى يتمكّن الملوك من الصعود عليها للوصول إلى السماء.

ثم قام الشعب المصري في نهاية الأسرة السادسة، بثورة على الملكية، أصبح من حق أفراده بعدها، الوصول إلى العالم الآخر. ولكن حيث إنه ليس من الممكن، بناء أهرامات لكل الشعب، أصبح أفراد الشعب يدفنون تحت الأرض، وأصبح جزء من العالم الآخر موجودا تحت الأرض. ثم استقرّ في الضمير العام، لفترة طويلة في تاريخ البشرية، أن الجنّة المخصّصة لمن يرضى عنهم الأرباب، تقع في السماء، في حين أن جهنّم المخصّصة للمغضوب عليهم من الأرباب، تقع تحت الأرض. أنظروا إلى ما يقوله المزمور ٨٨ (٤- حُسِبْتُ في عداد الهابطين إلى قعر هوّة الموت. ٦- لقد طرحتني يا ربّ، في الهوّة السفلى من الأماكن المظلمة العميقة، ٧- إذ استقرّ عليّ غضبك. ٨- لقد حُبِسْتُ فلا نجاة لي).

إن موت بعل يرتبط، كما سبق وحدث لنظيره السومري البابلي، بمقدم فصل الصيف، بما فيه من قيظ وجفاف، إذ تأتي رياح الصيف الجافة الحارة، بالموت الموسمي المؤقّت للأرض الزراعية. هنا تأتي في هذا النصّ، أولا مجموعة مرثيّات على لسان كبير أرباب كنعان، الإله العليّ القدير، الذي تسمّيه نصوص كنعان (إيل) (El)، والذي قد يكون اسمه هو الأصل الاشتقاقي، لاسم الربّ (إيل) في اللغة العبرية، وكذلك لاسم الربّ (الله) في اللغة العربية، وكذلك لصفته الواردة في العديد من الديانات ك(عليّ) قدير.

بعد مراثي (إيل)، ينسحب هو من المشهد، ويذهب إلى حيث لا يستطيع أحد غيره من الأرباب أن يصل، في معتزله السماوي، فتأتي هنا في النصّ المراثي التي تلقيها إنشادا، مجموعة الباكيات النائحات، الشبيهات بالساقيات في مسرحيات يوربيديس، قائلات (وقع بعل على الأرض/ أصبح بعل القوي ميّتا/ زال ملك الأرض من على الأرض/ أتى العليّ القدير لرثائه/ العلي نثر تراب الأرض على رأسه دلالة على شدّة حزنه/ ثم حلق العلي له شعر مقدّمة رأسه وذقنه وشاربيه/ مستعملا في ذلك شقفة من حجر صوّان مسنّن/ استعملها كذلك في حكّ قروح جسد بعل/ الناتجة عن معركته مع موت/ ثم رفع القدير صوته قائلًا: بعل قد مات/ ماذا سيحدث بعد للبشر).

لاحظوا مسألة (نثر تراب الأرض على الرأس دلالة على شدّة الحزن)، وهي ممارسة لا تزال تحدث في دول المنطقة، عند سماع خبر وفاة عزيز. تأتي بعد هذه الأناشيد، مجموعة أخرى من المراسم الجنائزية، تتبعها فترة الحداد، فتتوقّف بالتالي أنشطة الحياة الطبيعية اليومية، لفترة تطول أن تقصر، وهو ما يحدث حتى الآن، لدى شعوب هذه المنطقة، ذوي الأصول السامية، لشدّة ولع هذه الشعوب بالمسائل الروحانية، ولخضوع هذه الشعوب لقادتها الروحيين. سأختار لكم الآن عدة نصوص توراتية، من أسفار توراتية مختلفة، تعتبر كلها أدلة على مدى تأثّرها بمأساة وفاة بعل.

في الاصحاح ٢ من سفر أيوّب (٨- جلس أيّوب وسط الرماد، وتناول شقفة حجرية يحكّ بها قروحه). وفي الاصحاح ١٤ من سفر التثنية (١- أنتم أبناء الربّ لا تجرح

أجسادكم. ولا تحلق مقدّمة رؤوسكم حزنا على ميّت، ٢- لأنكم شعب مقدّس للربّ، وقد اختاركم من بين كل شعوب الأرض، لتكونوا له شعبا خاصا). وفي الاصحاح ١٢ من سفر زكريا (١١- في ذلك اليوم يكون النواح في أورشليم مساويا للنواح في هرماجدون. ١٢- فيشيع النحيب بين أهل البلاد، وتنوح كل عشيرة على حدة). وفي الاصحاح ٨ من سفر حزقيال (١٤- ثم أحضرني إلى المدخل الشمالي لبوّابة هيكل سليمان، فإذا هناك نساء يندبن تمّوز اله الخصب).

ثم تأتي في بعض نسخ هذه الأسطورة، مرثيّات ينشدها بعل في تمجيد عنّات، التي يبدو أنها ماتت هي الأخرى، فكل منهما يرثي الآخر، لكن الغريب هنا، هو أن النصّ يجعلنا نعتقد، أن عنّات كانت قد قدّمت نفسها ذبيحة على المحرقة، أمام الأرباب الآخرين، في محاولة منها لفداء بعل، بتقديم نفسها قربانا إلى الأرباب، لعلّهم يعفون عن بعل. الأغرب في الموضوع هو معرفة أن اللقب المستعمل مع اسم عنات، هو لقب (دائمة العذرية)، أي أنها كانت عذراء، وستظلّ عذراء، فهل هذا معناه أنها لو فقدت عذريتها يمكنها أن تجدّدها؟ ثم في الحقيقة، فإن أي أنثى تلقّب بالعذراء، ستحيلنا حتما إلى اللقب المستعمل، مع السيدة مريم والدة المسيح بالجسد، كما أن هذه القصّة تحيلنا كذلك، إلى قصّة الفداء، التي هي جوهر رسالة يسوع المسيح.

وجدت تفاصيل تقديم عنّات إلى المحرقة، صداها في أحد أسفار التوراة، فانظروا مثلا إلى القصّة التي يرويها الاصحاح ١١ من سفر القضاة (٣٤- رجع يفتاح إلى بيته، فخرجت ابنته الوحيدة للقائه، ٣٥- فلمّا رآها ولول قائلًا: نذرتك نذرا للربّ ولا سبيل إلى الرجوع عنه. ٣٦- فأجابته: فافعل بي كما نذرت، ولا سيّما أن الربّ قد انتقم لك من أعدائك. ٣٧- لكن حقّق لي هذا الطلب، أمهلني شهرين أتجوّل فيهما في الجبال، واندب عذراويّتي مع صاحباتي. ٣٩- ثم رجعت في نهاية الشهرين إلى أبيها، فأصعدها محرقة إلى الله وفاءً لنذره، فماتت عذراء. ٤- فصار من عادة الاسرائيليات أن يذهبن إلى الجبال، أربعة أيام في السنة، للنواح على ابنة يفتاح الجلعادي).

معجم مختصر لبعض مفردات الكتاب

(من عمل المترجم)

إبراهيم

عاش الجزء الأول من حياته في أور الكلدانية، مع أبيه وأخوته، حيث تزوّج من سارة، التي كانت أخته غير الشقيقة، فهي أخته من أبيه فقط، وقد أتى ذكر هذه المعلومات في سفر التكوين الاصحاح ٢٠ العدد ١٢. وبعد موت أخيه هاران، رحل هو وزوجته وأبوه ولوط ابن أخيه إلى أرض كنعان، بناءً على أمر من الربّ ورد في الاصحاح ١١ من سفر التكوين. في حاران مات أبيه فدفنه هناك. ويحتمل أنهم في الطريق إلى أرض كنعان قد مرّوا بدمشق، لأن اليعازر الذي اتخذه إبراهيم خادما له كان معروفا باسم الدمشقي. حين حدث جوع في أرض كنعان رحل إبراهيم إلى مصر. وهناك خوفا على حياته، ذكر إبراهيم إن سارة هي أخته، ولم يذكر إنها زوجته.

عاد ابرهيم إلى أرض كنعان حيث أقام بالقرب من بيت إيل، لمدة سنوات عديدة. هناك تدور بين قبيلة إبراهيم، وبعض قبائل الأموريين، مناوشات مستمرّة. في ذلك التوقيت جاءته رؤيا من الربّ، وعده فيها بأن تكون أرض كنعان له ولنسله من بعده إلى يوم الدينونة. هذا ما يقوله الاصحاح ١٥ من سفر التكوين (١- قال الربّ لإبرام في الرؤيا: لا تخف يا إبرام فأنا درع لك، وأجرك عظيم جدا. ٣- فقال إبرام: ولكنك لم تعطني نسلا. ٥- فأخرجه الربّ من الخيمة وقال له: أنظر إلى السماء، وعدّ النجوم إن استطعت. هكذا

يكون نسلك. ٧- ثم قال له الربّ: لقد أخرجتك من أرض أور، وجئت بك إلى أرض كنعان، لأعطيها لك وميراثا لنسلك من بعدك).

إبليس

أصل الاسم من اللغة اليونانية ديابولوس **Diabolos**، ومعناها المشتكي زورا، أو الآخذ ما ليس من حقه أو الثالب. وفي الترجمة العربية من الأصل اليوناني للكتاب المقدّس، كانت الكلمة في أغلب الحالات تترجم بكلمة إبليس، وفي حالات قليلة بكلمة شيطان. ويصفه سفر رؤيا يوحنا الإنجيلي بأنه أكثر الأرواح الساقطة شرّا (الاصحاح ١٢ العدد ٩).

أبوكريفا Apocrypha

كلمة يونانية معناها المخفي أو المخبّأ أو السرّي، وقد أطلقت في القرون الأولى من المسيحية، على بعض الكتب غير القانونية في العهد القديم، التي يكن اليهود يضعونها ضمن أسفار التوراة، بدعوى أنها لم تكتب بواسطة من يدّعون كتابتها، ولأنها لم تكتب بالعبرية بل باليونانية. من بين هذه الأسفار: المكابيين، وباروخ وطوبيت ويهوديت، وسفر حكمة يشوع ابن سيراخ، وبقية سفر أستير، ورسالة إرميا، وبعض إضافات إلى سفر النبي دانيال، مثل نشيد الفتية الثلاث، وتاريخ سوسنة. أغلب هذه الأسفار مكتوب بين ٢٠٠ ق م، و١٠٠ ميلادية، بالنظر إلى الأسلوب اللغوي والمفردات اليونانية المستعملة، التي لم تكن معروفة قبل تلك الفترة الزمنية.

أخنوخ

من أغرب شخصيات التوراة، ويعتقد أنه من الجيل السابع بعد آدم أبي البشر، وعنى اسمه (المكرّس لخدمة الربّ)، وتخبرنا التوراة أنه عاش في طاعة الله ٣٦٥ عاما، ثم اختفى فجأة ولم يحضر أحد وفاته، لأن الله قرّر تجنيبه الموت فرفعه اليه في السماء، وهذا هو نصّ ما جاء في الاصحاح الخامس من سفر التكوين (٢٤- سار أخنوخ مع الله، ثم توارى من الوجود، لأن الله نقله اليه).

آرام

هو اسم أحد أبناء سام ابن نوح، ونسله الآراميون الذين سكنوا الأرض التي كانت تمتدّ من جبال لبنان في الغرب، إلى ماوراء نهر الفرات في الشرق، ومن جبال طوروس في الشمال، إلى مدينة دمشق في الجنوب. ومنذ الترجمة السبعينية للتوراة، في القرن الأول للميلاد، أطلق على هذا الإقليم الجغرافي اسم سوريا.

الآرامية

هي احدى أهم لغات منطقة الحضارة الكنعانية، في الشرق الأدنى القديم، خلال الألف الأخيرة قبل الميلاد، إلى جانب اللغة الأكّادية. وأقدم النصوص باللغة الآرامية التي تمّ العثور عليها، في سوريا وآسيا الصغرى، تعود إلى العام ٨٠٠ ق م. وكذلك وجدت نقوش باللغة الآرامية على قطع نقود في بابل وآشور. وتختلف الآرامية التي استعملت في بعض الكتابات التوراتية، عن السريانية التي تعتبر احدى لهجات الآرامية، وستستعمل السيريانية لاحقا كلغة طقوس في الكنائس السورية.

الأُرْدُنّ

هو اسم عبري قديم معناه (الوارد المنحدر)، وهو أهم أنهار فلسطين، وله أربعة منابع، المنبع الشرقي في بانياس، التي هي قيصرية فيليبّس قديما، وينبع من كهف في صخرة عالية، وأكبر المنابع هو ذلك الذي يقع في تلّ القاضي، أما المنبع الأكثر ارتفاعا عن البحر، بحوالي ٥٠٠ كتر فوق سطح البحر، فهو ذلك الذي ينبع من حاصبيا ويتكوّن منه نهر الحاصباني. يتكون من هذه النهيرات نهران، يمتزجان معا ليكوّنا نهرا واحدا هو الأردنّ. يرد ذكر اسم هذا النهر في التوراة عشرات المرّات، كانت أول مرّة هي حين سكن لوط، وهو ابن أخ إبراهيم، سهل الأردنّ، ثم ذكرت التوراة أن يعقوب حفيد إبراهيم عبره، كما ذكر الاصحاح ٧ من سفر القضاة، أن بني إسرائيل عبروه في أيام يشوع، أثناء مطاردتهم للمديانيين.

أرز

اسم سامي قديم قد يكون معناه (ثابت)، وهو شجر لبنان الدائم الخضرة، وينتمي إلى الفصيلة الصنوبرية، وثمره يشبه ثمر الصنوبر، وقد ترتفع شجرة الأرز إلى أكثر من ٢٠ مترا. وقد ذكر في التوراة عشرات المرات، إذ جاء ذكره مثلا في الاصحاح ٥ من سفر الملوك الأول، عند الحديث عن مدى اتساع وتنوّع معارف الملك سليمان، وهو من القرن العاشر ق م، الذي وسعت معرفته كل شيء على الأرض، حتى أنه كان قادرا على أن يتكلّم في كل أنواع الأشجار، الموجودة على ظهر البسيطة. لكن معرفة العالم القديم بهذا الشجر قديمة جدا، وقد استخدم في بناء القصور وهياكل السفن وصواريها، حتى أن ملوك الدولة القديمة في مصر، من الأسرتين الرابعة والخامسة، أي في حوالي القرن ٢٥ ق م، كانوا يرسلون البعثات التجارية من مصر إلى لبنان، لشراء هذا الخشب، حين بدأوا في صناعة السفن، لندرة الأخشاب في مصر.

إرميا

أحد أهم أنبياء بني إسرائيل، في القرن السابع ق م، وقد دعاه الربّ لإعلان النبوّة، بعد أن كان إرميا قد بدأ في رؤية الربّ والحديث معه، في رؤى متعدّدة رواها إرميا، في سفره الذي يحمل اسمه في كتاب التوراة. أنظروا إلى ما يرويه إرميا عن الرؤيا الأولى، في الاصحاح الأول من سفره (٤- قال الربّ لي: لقد اخترتك حتى من قبل أن أصوّرك في رحم أمّك، ثم كرّستك وجعلتك نبيّا. ٧- كل ما آمرك به تقوله. ٩- ثم مدّ يده ولمس فمي وقال: ها أنا قد جعلت كلامي في فمك، ١٠- وأعطيتك اليوم سلطة على الأمم والممالك).

ذهب إرميا الشاب بهذه الرؤيا إلى أورشليم، كان ذلك في سنة ٦٢٦ ق م، على زمن حكم الملك يوشيّا، وظلّ إرميا لمدة أربعين عاما، قادرا على التنبّؤ بأهم أحداث تلك الفترة السياسية، وهي فترة من أكثر الفترات اضطرابا في تاريخ شعب إسرائيل، بحيث استطاع ملوك تلك الفترة، تدبير أمور المملكة لصالح شعب إسرائيل.

أسبوع

الكلمة العبرية هي شبوع وهي من جذر معناه سبعة، وقد استخدم العبرانيون تقسيم الوقت إلى أسابيع، منذ عصر مبكّر جدًّا في تاريخهم، فالخلق تمّ في أسبوع من سبعة أيام، وكذلك ورد ذكر الأسبوع كثيرا في قصة الطوفان، وكانت الحفلات سواء الزواج أو المآتم تستغرق سبعة أيام. وكان العبرانيون يقدّسون مدّة من الزمن تقسّم إلى سبعات من السنين، وتختتم بالسنة التي هي سبت السنين، وقد كان البابليون أيضا يستخدمون وحدة الأسبوع في حسابهم للزمن. أما المصريون القدماء فكانوا يحسبون الدورة عشرة أيام، وقد قسّم الاغريق كذلك الشهر إلى ثلاثة أقسام متساوية.

إسحق

هو ابن إبراهيم وسارة، وقد ولد في بئر سبع على الأرجح. أنظروا إلى ما جاء في الاصحاح ٢١ من سفر التكوين (٩- رأت سارة أن ابن هاجر المصرية يسخر من ابنها إسحق. ١٠- فقالت لابراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها. ١١- فقبح هذا القول في نفس إبراهيم من أجل ابنه. ١٢- فقال الله له: اسمع لكلام سارة لأنه بإسحق سيكون لك نسل. ١٣- وسأقيم من ابن الجارية أمّةً أيضا لأنه من ذرّيتك. ١٤- فنهض إبراهيم في الصباح الباكر، وأخذ خبزا وقربة ماء ودفعهما إلى هاجر، ثم صرفها مع الصبي، فهامت على وجهها في بريّة بئر سبع.

١٥- وعندما فرغ الماء من القربة، طرحت الصبي تحت احدى الأشجار، ١٦- ومضت وجلست مقابله، على بعد نحو مئة متر، لأنها قالت: لا أشهد موت الصبي. فجلست ورفعت صوتها وبكت. ١٧- وسمع الله بكاء الصبي، فنادى ملاك الله هاجر وقال لها: ما الذي يزعجك يا هاجر؟ لا تخافي، لأن الله سمع بكاء الصبي. ١٨- قومي واحملي الصبي وتشبّثي به، لأنني سأجعله أمّة عظيمة. ١٩- ثم فتحت عينيها فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة وسقت الصبي. ٢٠- وكان الله مع الصبي فكبر، وسكن في صحراء وادي فيران، ٢١- واتخذت له أمّه زوجة من مصر).

إسرائيل

هذا الاسم يعني بالعبرية (يجاهد مع الله)، وهو الاسم الذي أطلق على يعقوب ابن إسحق وحفيد إبراهيم، منذ العراك الذي وقع بينه وبين ملاك الربّ. أنظروا إلى الاصحاح ٣٢ من سفر التكوين (٢٢- قام يعقوب في تلك الليلة، وصحب معه زوجتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر. ٢٣- ولمّا عبر بهم كلّ الوادي ٢٤- بقي وحده، وصارعه إنسان حتى مطلع الفجر، ٢٥- فانخلع مفصل فخذ يعقوب في مصارعته معه. ٢٦- فقال له: اطلقني فقد طلع الفجر، فأجابه يعقوب: لا أطلقك حتى تباركني. ٢٧- فسأله: ما اسمك؟ فأجاب: يعقوب. ٢٨- فقال له الملاك: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله).

أطلق هذا الاسم لاحقا على نسل يعقوب جميعا، أي على كل الاثني عشر سبطا من أسباط يهوذا، فاستعمل كمرادف لبني إسرائيل، حتى منذ سنوات تيههم في بريّة سيناء. أمّا أول إشارة إلى شعب إسرائيل، خارج نصوص أسفار التوراة، حيث وجدت الكلمة مكتوبة بعلامات هيروغليفية، فهو ما ورد في لوحة انتصارات الفرعون مرنبتاح، ابن الملك رمسيس الثاني، الذي حكم مصر حوالي سنة ١٢٣٠ ق م، الموجودة ضمن مقتنيات المتحف المصري بالقاهرة، التي يذكر فيها أسماء الشعوب التي انتصر عليها الفرعون.

آشوريّون

هي الصفة التي تطلق على الشعب الأشوري، وتدلّ على انتماء هذا الشعب إلى نفس المكان، وهو شمال بلاد العراق الحالية، وكانت مدينتهم تسمّى آشور، والههم كذلك يسمّى آشور. تقع أطلال مدينة آشور على نهر دجلة، بين نقطتي التقائه مع رافديه الزاب الصغير والزاب الكبير، وفي نفس تلك المنطقة المحصورة بين دجلة والزاب الكبير، يمكننا أن نعثر على مدينتيهم العظميين الأخريين، وهما نينوى وأربيل.

حوالي سنة ٢٥٠٠ ق م، كان للأشوريين في شمال بلاد الرافدين، حضارة لا تقل أهمّية عن حضارة السومريين، في جنوب بلاد الرافدين. في العصر الأكّادي حوالي ٢٣٠٠ ق

م، سقطت آشور تحت سيطرة السومريين، ولم تستقل وتصبح دولة قوية الا سنة ١٨٠٠ ق م، ثم حوالي ١٤٠٠ ق م، أصبحت آشور احدى أهم القوى التي تغزو جيرانها، وتقيم امبراطورية على حسابهم.

بالتالي يرد ذكر الأشوريين مرّات عديدة في التوراة، كقوّة معادية للشعب العبري، بين ١٢٠٠ ق م، و٦٠٠ ق م، وهو التاريخ الذي اختفوا فيه من الوجود، بعد تدمير عاصمتهم (نينوى). يذكر في التوراة اسم ملكين على وجه الخصوص، هما الملك آشور ناصر بال ٨٨٣ ق م، الذي اشتهرت عنه قسوته البالغة في الانتقام من أعدائه، والملك سنا خريب ٧٠٤ ق م، الذي كان مكروها في الروايات التوراتية، حيث يطلق عليه فيها لقب (ذئب الحظيرة)، رغم أنه لدى شعبه كان محبوبا جدا، إذ كان مهندسا قادرا على حفر القنوات المائية اللازمة لزراعة الأرض.

تظهر في شخصية ملك آشور، فكرة الملك الربّ، الذي هو نصف إله، يحكم على الأرض باسم أرباب السماء، وهو قادر على الاتيان بالمعجزات، بصفته الممثل الشرعي للأرباب على الأرض، فهو الذي يسقط البرق على الأعداء أثناء القتال. لكنه هو أيضًا المسؤول أمام الأرباب، عن تحقيق العدالة الاجتماعية التامة لشعبه، فهو المسؤول عن أي حالة ظلم يحدث لأي فرد من شعبه. لأول مرة تصبح هذه المسؤولية الاجتماعية للملك تجاه شعبه بهذا الوضوح.

حفظت لنا كتابات الأشوريين بالخط المسماري **cuneiform**، على ألواح من الصلصال والطين المحروق، نصوصا عديدة تدلّ على مقدار التقدّم الذي أحرزوه في العلوم والفنون والآداب، ومقدار ثراء كتاباتهم الدينية والأسطورية، ويوجد في المتحف البريطاني بلندن، جزء كبير مما تمّ العثور عليه، من مكتبة الملك آشور باني بال، التي تعود إلى سنة ٦٦٨ ق م، بفضل أعمال التنقيب في الحفائر، التي قامت بها البعثات الأثرية الإنجليزية.

إشعياء

ومعنى الاسم (الربّ يخلّص)، وهو أحد أهم أنبياء شعب إسرائيل، وقد مارس أعماله التنبّؤية خلال ما يقرب من ستّين عاما، ويدلّ تاريخه على أنه كان يقطن أورشليم، وأنه كان ذا ثقافة عالية، وكان كثير التردّد على هيكل النبي سليمان في المدينة، حيث جاءته أول رؤيا وهو في العشرين من العمر، حوالي سنة ٧٤٠ ق م، حين سمع دعوة الله له للعمل النبوي. في الاصحاح ٦ من سفر إشعياء يقول (١- شاهدت السيد جالسا على العرش. ٢- وأحاطت به الملائكة، لكل واحد منهم ستّة أجنحة. ٥- فقلت في نفسي: ويلٌ لي، فإن عيني قد أبصرتا الملك الربّ القدير، وأنا إنسان نجس الشفتين. ٦- فطار أحد الملائكة اليّ، وبيده جمرة أخذها من المذبح، ٧- ومسّ بها فمي قائلًا: انظر ها إن هذه الجمرة قد مسّت شفتيك، فانتزع منك إثمك، وتمّ التكفير عن خطاياك).

أكّاديون

شعب سامي كان يقطن في شمال بلاد بابل، وسمّوا بهذا الاسم نسبة إلى مدينة أكّاد، التي أصبحت احدى أهم مدن الإمبراطورية البابلية، وكانت تقع على الجانب الأيسر لنهر الفرات، وأصبحت مقرّ حكم الملك سرجون الأول حوالي سنة ٢٨٠٠ ق م، الذي بسط سلطانه على كل بلاد بابل، وأخضع أيضا عيلام وشمال بلاد الرافدين، وغزا سوريا وفلسطين أربع مرّات. استخدمت كلمة أكّاد مرارا في النقوش المسمارية، لتدلّ على كل بابل، وحلت اللغة الأكّادية، محل اللغة السومرية، وانتشر استعمالها في جميع أنحاء ممالك الشرق الأوسط القديم، خاصة في المعاملات التجارية.

أموريّون

هم مجموعة من البدو الساميين، الذين كانوا يرتحلون من مكان لآخر، في وادي الهلال الخصيب، الذي يضمّ العراق وسوريا وفلسطين، بين ٢٢٠٠ ق م، و١٧٠٠ ق م، وقد كشفت أعمال التنقيب سنة ١٩٣٨ في موقع مدينة (ماري)، على الفرات الأوسط، ومكانها الحالي (تل الحرير) في العراق، عن عشرين ألف لويحة، تشهد بما وصلوا اليه من قدرات إدارية ومعمارية، وقد ابتلعهم تماما الحيثيّون القادمون من آسيا الصغرى. وقد

أطلق هذا الاسم في التوراة، على بعض سكّان فلسطين والأردن قبل العصر الإسرائيلي، كما في الاصحاح ١٤ من سفر التكوين (٧- ثم استداروا حتى أقبلوا على قادش، فهزموا بلاد العمالقة كلها، والأموريين الساكنين في حصونها).

بابل

تمتدّ أطلالها اليوم بطول خمسة كيلومترات، على الضفّة الشرقية لنهر الفرات، وعلى بعد ١١٣ كيلومتر إلى الجنوب من بغداد. تقع إلى جوارها مدينة (الحلّة) الحديثة، التي بنيت جزيئا بطوب قديم من بابل. وكانت بابل لقرون عديدة، عاصمة الأرض التي أطلق عليها اسما سومر وأكاد. الا أن سيادة بابل لم تتوطّد الا في القرن ١٨ ق م، تحت حكم حامورابي المشرّع المشهور. دخلت في منازعات كثيرة خاصة مع الأشوريين في الشمال.

كانت فترة حكم آخر أسرة بابلية، وتعرف باسم الأسرة الكلدانية، هي الفترة التي وصلت فيها بابل إلى قمّة الحضارة، خاصة في عهد نبوخذ نصّر الثاني حوالي بين ٦٠٤ ق م، و٥٦١ ق م، الذي كان واحدا من الملوك الذين ادّعوا أنهم أنصاف آلهة، وذلك لأنهم مولودين من لقاء غامض بين ربّ سمائي وأنثى أرضية. وقد جاء ذكره كثيرا في سفر النبي دانيا بالتوراة. سقطت المدينة سنة ٥٣٩ ق م، في يد الفرس وتمّ تدميرها جزئيا، لكنها ظلّت باقية حتى جاءها الاسكندر المقدوني، ومات فيها سنة ٣٢٣ ق م.

سفر التثنية

يقع هذا السفر في ٣٤ إصحاحا، ويعرض مجموعة من الخطب التي ألقاها موسى، في سهل موآب قبل الدخول إلى أرض كنعان، التي يلخّص فيها الأحداث التي وقعت لشعب إسرائيل، بالإضافة إلى مجموعة جديدة من التشريعات، ثم موضوع خلافة يشوع لموسى في قيادة شعب إسرائيل. وتأتي موضوعات إصحاحات هذا السفر بهذا الترتيب: خطاب موسى في عبر الأردن/ اختيار رؤساء الشعب/ هزيمة الإسرائيليين أمام الأموريين/ سنوات التيه في البرية/ توزيع الأرض/ توصيّات موسى الأخيرة/ موسى يذكّر الشعب بالوصايا العشر/ حظر صنع التماثيل وعباداتها/ عقوبة عبادة الأصنام/ ضرورة شرح الشريعة للأبناء/ التحذير من مخالطة الأمم لشعب الله المختار/ وعد الله بهزيمة شعب

إسرائيل لكل الأمم/ بفضل الربّ لا بفضل قوّة بني إسرائيل/

الأمر بقتل الأنبياء الكذبة وعابدي الأوثان/ البهائم الطاهرة والبهائم النجسة/ دفع العشور/ احترام السنة السابعة/ عتق رقاب العبيد من العبرانيين/ شريعة الحدود/ شريعة العين بالعين/ شرائع حصار وفتح المدن البعيدة/ عدم إتلاف أشجار المدن المحاصرة/ شريعة المرأة الأسيرة/ شرائع توريث الأبناء/ أحكام ضد الإساءة إلى شرف العروس/ أحكام في الزنى والاغتصاب/ أحكام في الزواج والطلاق/ أحكام لحماية الفقراء/ شرائع في الموازين والمكاييل/ بركات الطاعة ولعنات العصيان/ عقوبة المرتدّ عن الله/ مكافآت التوبة/ خلافة يشوع وتلاوته للشريعة/ نشيد موسى الأخير الذي يسمعه الشعب/ الربّ ينبىء موسى باقتراب موته/ موسى يبارك أسباط إسرائيل/ وفاة موسى ودفنه.

في الاصحاح ٧ يقول (٦- لأنكم شعب مقدّس للربّ، فإيّاكم قد اختار الربّ الهكم من بين جميع شعوب الأرض، لتكونوا شعبه الخاص. ٧- ولم يفضّلكم الربّ لأنكم أكثر عددا من بقيّة الشعوب، فأنتم أقلّ الأمم عددا، ٨- بل من محبّته، وحفاظا على القسم الذي أقسم به لآبائكم. ١٢- فإن استمعتم إلى أحكام الربّ وأطعتموها وعملتم بها، ١٣- فإن الربّ الهكم يباركم ويكثر عددكم، ويبارك ثمرة أحشائكم وغلّة أراضيكم، ويويد من إنتاج بقركم ونعاجكم. ١٤- وتكونون مباركين أكثر من جميع شعوب الأرض، فلا يوجد عقيم ولا عاقر فيكم، ولا في بهائمكم. ١٥- ويقيكم الربّ من كلّ علّة ولا يصيبكم بها، بل يجعلها على مبغضيكم. ١٦- وتستأصلون جميع الشعوب الذين يسلّمهم الربّ اليكم، فلا تشفقوا عليهم، ولا تعبدوا آلهتهم).

ومن الاصحاح ٢٢ (٢٣- فإذا التقى رجل بفتاة في المدينة وضاجعها. ٢٤- فأخرجوهما كليهما إلى ساحة بوّابة تلك المدينة، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا، لأن الفتاة لم تستغث وهي في المدينة. ٢٥- ولكن إن التقى ذلك الرجل بالفتاة في الحقل، وأمسكها وضاجعها، يرجم الرجل وحده ويموت، ٢٦- وأما الفتاة فلا ترجم، ٢٧- لأنه لابدّ أن تكون الفتاة قد استغاثت، في الخلاء حيث وجدها الرجل، فلم يأتِ من ينقذها. ٢٨- فإذا قالت الفتاة إنها كانت عذراء، ٢٩- يتزوّجها الرجل ولا يقدر أن يطلّقها مدى حياته).

سفر التكوين Genesis

هو أول أسفار التوراة، ويتكوّن من خمسين إصحاحا، والإصحاح هو الوحدة التي تنقسم اليها أسفار التوراة كلها، وكل إصحاح يروي قصة جديدة، كأنها فصول متصلة في رواية، فمثلا يأتي الاصحاح الأول وفيه وصف لبدء الخليقة/ والثاني سقوط الإنسان في الخطيئة وطرده من الجنّة/ وهكذا تتوالي الفصول: الأخوان قايين وهابيل/ الطوفان على زمن النبيّ نوح/ أبناء سام وحام ويافث وبناء برج بابل/ ذهاب إبراهيم إلى مصر/ قوم لوط في سادوم وعامورة/ زواج إبراهيم من هاجر/ مولد إسماعيل/

مولد اسحق/ طرد هاجر وإسماعيل إلى صحراء وادي فاران (فيران الحالية)/ زواج اسحق ورفقة/ مولد عيسو ويعقوب/ زواج يعقوب من راحيل/ أبناء يعقوب الاثني عشر/ حلم يوسف وحسد أخوته له/ يوسف يقاوم زوجة فوطيفار (بت إف رع)/ يوسف في السجن يفسّر حلم ساقي فرعون/ يوسف يفسّر أحلام فرعون/ يوسف يصبح وزيرا لفرعون/ بداية سبع سنوات الجوع/ ذهاب إخوة يوسف اليه في مصر/ يعقوب يرتحل إلى مصر/ استيطان اليهود في مصر/ يعقوب يبارك أبناءه/ وفاة يعقوب وتحنيط جثمانه ودفنه في أرض كنعان.

التوراة

هي كتاب اليهود المقدّس، وتتكوّن من ٣٩ كتابا يقال لها الأسفار القانونية، وهي بترتيب ورودها في التوراة: التكوين. الخروج. اللاويين. العدد. التثنية. يشوع. القضاة. راعوث. صموئيل الأول. صموئيل الثاني. الملوك الأول. الملوك الثاني. أخبار الأيام الأول. أخبار الأيام الثاني. عزرا. نحميا. أستير. أيوب. المزامير. الأمثال. الجامعة. نشيد الأنشاد. إشعياء. إرميا. مراثي إرميا. حزقيال. دانيال. هوشع. يوئيل. عاموس. عوبيديا. يونان. ميخا. ناحوم. حبقوق. صفنيا. حجّي. زكريا. ملاخي.

يطلق المسيحيون على كتاب التوراة تسمية (العهد القديم Old Testament)، أي العهد الذي كان بين الله وموسى، في مقابل (العهد الجديد New Testament)، الذي كان بين الله والمسيح، وهو الكتاب الذي يتكون من الأناجيل الأربعة، لمتى ومرقص ولوقا

ويوحنا، بالإضافة إلى بعض الرسائل التي أرسلها تلاميذ المسيح إلى شعوب الأرض، لدعوتهم إلى الايمان بالمسيح، ويطلق المسيحيون اسم (الكتاب المقدّس Bible) على الكتاب الذي يحتوي العهدين القديم والجديد معا. أما أسفار التوراة غير القانونية، فهي المعروفة باسم أبو كريفا.

أما تاريخ الاعتراف بالتوراة ككتاب مقدّس لليهود، فلم يبدأ الا في حوالي سنة ٤٠٠ ق م، في أيام عزرا، الذي أعاد إلى هيكل سليمان في أورشليم، بعض ما كان ملوك السبي البابلي قد نهبوه منه. وقام عزرا في أورشليم، بقراءة أسفار موسى أمام اليهود، وتفسيرها لهم مستعينا بالترجمة الآرامية للأصل العبري. هذا هو ما جعل اليهود المتأخّرين، يعتبرونه كاتبهم ومعلّمهم بل وزعيمهم الثاني، ومؤسّس نظم الديانة اليهودية المتأخّرة، بعد أن كان موسى هو معلّمهم وزعيمهم الأول. يعتقد اليهود الآن أنه هو الذي أضاف إلى التوراة، أسفار يشوع والقضاة، وأن الكتبة المعلّمين الذين جاؤوا بعده، أضافوا الأسفار حتى الأنبياء إشعياء وإرميا.

وهكذا نما كتاب التوراة حتى وصل إلى حجمه الحالي، الذي تنقسم فيه الأسفار إلى أربع مجموعات: الأولى هي مجموعة أسفار الشريعة، وهي أسفار النبي موسى الخمسة، التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية، والمجموعة الثانية هي أسفار الأنبياء من يشوع إلى الملوك الثاني إلى إشعياء وإرميا، والمجموعة الثالثة هي أسفار الحكمة للنبيّن داود وسليمان، مثل المزامير والجامعة والأمثال، والمجموعة الرابعة هي الأسفار الخاصة بتاريخ شعب إسرائيل، مثل سفري أخبار الأيّام الأول والثاني. ولم تستقر التوراة على شكلها الحالي الا في القرن الأول ق م.

جورج سميث (١٨٤٠- ١٨٧٦)

كان يعمل في صباه مساعدا لنحّات، في ورشة صناعة تماثيل في لندن، لكنه كان مولعا بالقراءة في موضوع، الاكتشافات التي تتمّ في المملكة الأشورية، وكان يقضي كل أوقات فراغه في أقسام الحضارات القديمة، في المتحف البريطاني. سنة ١٨٦١ تمّ تعيينه مرمّما بعقد مؤقت، للعمل في ترميم ألواح الكتابة المسمارية المحطّمة، المكتشفة حديثا في موقع حفائر نينوى، فاستعمل ذكاءه في إعادة تركيب الكلمات والنصوص

بحيث يصبح لها معنى، مستعينا بالمقارنة بين الكلمات الكاملة في بعض النصوص، والناقصة في بعضها الآخر. وصل إلى منصب رسمي في قسم الترميم، عندها قام بنشر أول نصوص أشورية نجح في ترميمها، ثم قام بعمل قوائم لعلامات الكتابة المسمارية. بلغ قمّة نجاحه عندما قام بفك شفرة نصّ آشوري عن قصّة الطوفان. سافر ضمن بعثة حفائر نينوى سنة ١٨٧٣، حيث تعرّض سنة ١٨٧٦ للموت، وهو في السادسة والثلاثين، بسبب الديسنتاريا، وقيظ حرارة الأراضي الصحراوية.

سفر الخروج Exodus

يتكوّن من أربعين إصحاحا تتكلم عن: موت يوسف/ استعباد شعب إسرائيل في مصر/ مولد موسى/ جريمة موسى وهو في الأربعين من العمر وهربه إلى صحراء سيناء/ ظهور الله لموسى/ وعد الله لموسى بتحرير بني إسرائيل/ وعد الربّ بمعاقبة فرعون/ الضربات العشر لشعب مصر/ تحويل مياه نهر النيل إلى دمّ/ أسراب البعوض والذباب/ إهلاك المواشي/ إصابة المصريين بالدمامل المتقيّحة/ أسراب الجراد تأكل محاصيل الحقول/ الضربة الأخيرة هي موت أبكار المصريين/ هروب بني إسرائيل ومطاردة فرعون لهم/ الاستغاثة بالرب وعبور خليج البحر الأحمر/ هلاك جيش فرعون غرقا/ المن والسلوى في الصحراء/

ظهور نبع ماء في الصخرة/ اختيار موسى لقضاة الشعب/ لقاء موسى مع الربّ فوق قمّة جبل التجلّي/ استلام ألواح الشريعة والوصايا العشر/ بناء أول مذبح للربّ/ أحكام الشريعة: المختصّة بالعبيد/ المختصّة بالقاتل المعتدي/ المختصّة بالمواشي/ المختصّة بالبيع والشراء وبالسرقة/ المختصّة بالعلاقات الزوجية/ المختصّة بالرحمة والعدل/ شرائع السبت والاحتفالات السنوية/ تأثيث المذبح المقدّس/ وصف مائدة قرابين الخبز/ وصف سقف المذبح/ وصف رداء الكهنة/ وصف أنواع الذبائح والقرابين/ وصف طريقة تركيب البخور/ .....).

رأس شمرا (أوغاريت القديمة)

يقع تلّ رأس الشمرا على سواحل سوريا، على مسافة قصيرة إلى الداخل، من المرفأ الطبيعي ميناء (البيضاء)، حوالي خمسة عشر كيلومترا إلى الشمال من مدينة اللاذقية. سنة ١٩٢٩ جاءت بعثة العالم الفرنسي شيفر، الذي كان أول من اكتشف أن هذا التلّ هو موقع المدينة القديمة (أوجاريت)، وقد استطاع أن يميّز في الموقع خمس طبقات متتالية، تدلّ على خمس مراحل تاريخية، مرّت بها هذه المدينة القديمة، وقد وضع لها الأرقام من واحد وهي أحدث الطبقات، إلى خمسة وهي أقدم الطبقات، من أعلى إلى أسفل.

وقد وجد شيفر أن الطبقة الثانية تدلّ على أن المدينة كانت قد اتسعت اتساعا كبيرا، وأصبحت مركزا تجاريا هاما، حين دخلت المدينة في علاقات تجارية مع مصر، في عصر الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة، حوالي بين سنة ١٩٠٠ ق م، وسنة ١٨٠٠ ق م، إذ إن شيفر وجد هناك بعض التماثيل المصرية لملوك هاتين الأسرتين، مثل سنوسرت الأول وأمنمحات الثالث. ثم تعرّضت المدينة للنهب والتدمير، لكنها حوالي سنة ١٤٥٠ ق م، استردّت قوّتها كاملة.

هذه هو الزمن الذي تعود اليه أغلب اكتشافات بعثة شيفر، مثل تحصينات المدينة، وكذلك القصر الملكي والمكتبة الملحقة به، التي وجدت بها الألواح المكتوبة بالكتابة المسمارية، ليس فقط عن اللغتين الأكّادية والحيثيّة، بل أيضا عن اللغتين الفينيقية والعبرية، وهو الأسلوب الذي نعرفه حديثا باسم **transliteration**، وهو أسلوب كتابة لغة منطوقة، بحروف لغة أخرى مكتوبة، أو نسخ الحروف ورسمها بنظام كتابة آخر، مثل أن تقول انترنت، فهي كلمة انجلزية مكتوبة بحروف عربية.

زيجّورات

هو اصطلاح يطلق على برج المعبد، الذي كان يبنى في كل المدن السومرية والبابلية والأشورية، خلال الألفية الثالثة ق م، وهو من الملامح المعمارية والدينية المميّزة لمدنيّتهم. هذا الشكل المكوّن من طبقات متتالية من الأحجار، في شكل مصاطب موضوعة بعضها فوق بعض، بحيث تقل أبعاد الطبقات (المصاطب) في الطول

والعرض، كلما ارتفع البناء، قريبة الشبه من الشكل البنائي، لهرم زوسر المدرّج في سقّارة بمصر، وقد يكون اسم سقّارة هو نفسه كلمة زيجّورة. كان الوصول إلى الطبقة العليا من الزيجّورة، يتمّ بواسطة سلّم يؤدّي مباشرة إلى المعبد المقام فوق القمّة. كان سبب اهتمام المستكشفين الأوائل بهذه الأرباج، هو التشابه القائم بين أطلالها، وبين برج بابل وفقا لصورته، المذكورة في الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين في التوراة.

السبي البابلي

هو سبي الشعب اليهودي إلى بابل، على يد الملك نبوخذ نصّر، وقد تمّ على عدّة مراحل خلال السنوات ٦٠٥ ق م، و٥٩٧ ق م، و٥٨٧ ق م، و٥٨٢ ق م. وقد جاءت تفاصيل هذه الغزوات البابلية للشعب اليهودي، في الاصحاح ٣٦ من الجزء الثاني من سفر أخبار الأيام، الذي يذكر أن الملك البابلي قد أخذ معه إلى بابل، عظماء مملكة إسرائيل، ومنهم كان في ذلك الوقت النبي دانيال وأتباعه، كما أخذ كل العمّال الفنّيّين اللازمين للبناء والتعمير في بلاده، وقبل أن يغادر أورشليم لآخر مرة، قام بنهب محتويات هيكل النبي سليمان، من مقتينات من الذهب والفضّة، ثم قام بتدميره. لم تبدأ عودة اليهود إلى أرض فلسطين، الا بعد سقوط بابل في يد الملك قورش الفارسي سنة ٥٣٩ ق م، الا أن بعض اليهود استمروا يعيشون في بابل، حتى القرن الرابع ق م.

سومريّون

كان سكّان سومر الأوائل، وهي المملكة الواقعة في جنوب بلاد الرافدين، وهي نفسها مملكة شنعار في التوراة، قد قدموا من مرتفعات الجبال الإيرانية، إلى منطقة بالقرب من ساحل الخليج الفارسي، عند مصبّ النهرين العظيمين، حوالي سنة ٤٠٠٠ ق م. في ذلك الوقت المبكّر كانوا يقتاتون، على أسماك البحر وصيد الحيوانات والطيور، وقد عرفوا صناعة القوارب، وصناعة المقلاع وعصيّ الصيد الخشبية ذات الرؤوس الحجرية. ثم عرفوا زراعة القمح، في منطقة شطّ العرب الحالية، وهي أرض خصبة بفضل تراكم طمي النهرين بها، وعرفوا بالتالي صناعة الفؤوس ذات الرؤوس الصوّانية اللازمة لعزق الأرض.

تعتبر (أوروك) أقدم مدينة سومرية، وقد قامت في نفس الموقع بالقرب من شطّ

العرب، في بداية الألفية الثالثة ق م، وقد يكون قد حدث بهذه المدينة اختلاط بين جنس السومريين الأوائل، مع جنس آخر من أقوام آخرين جاؤوا من الشمال، حتى هضبة الأناضول، بحثا عن ظروف حياتية أفضل. في تلك المرحلة عرف السومريون الكتابة المسمارية. كما عرفوا في تلك المرحلة، استعمال عجلة الفخراني، في صناعة الأواني الفخارية من الطين، ثم عرفوا كذلك أسلوب حرقها في أفران.

في كل المدوّنات التاريخية السومرية القديمة، يعتبر الحدث الأهم في تاريخ هذا الشعب، هو الطوفان الذي أغرق البلاد، فأصبحت قوائم الملوك تتكون من، أسماء بعضهم قبل الطوفان، وأسماء الآخرين بعد الطوفان. وقد أثبتت أعمال التنقيب في كل مواقع الحفائر، وكذلك ما زوّدتنا به الألواح الفخّارية، المكتشفة في المكتبات الملحقة بالقصور الملكية، صحّة وقوع هذا الحدث، بالشكل الذي يتشابه تماما، مع الشكل الذي وردت به نفس هذه القصة، في سفر التكوين من أسفار التوراة اليهودية.

عبرانيون Hebrews

هؤلاء هم أنفسهم القوم الذين أطلق عليهم اسم الإسرائيليين قديما، واسم اليهود حديثا. وهناك احتمالات عديدة لمنشأ هذا الاسم، فهناك نص في الاصحاح ١١ من سفر التكوين، يقول (١٠- هذا سجل مواليد سام ابن نوح، ١١- الذي ولد أرفكشاد بعد الطوفان بسنتين، ١٢- وولد أرفكشاد شالح. ١٤- ثم عندما كان شالح في الثلاثين من عمره ولد عابر). ثم تستمر قائمة الأجيال المتتالية من نسل سام ابن نوح، من عابر إلى فالج إلى رَعُو إلى سَروج إلى ناحور إلى تارح إلى ابراهام، المذكورة قصّته مع زوجتيه سارة وهاجر، ومع ابنيه إسماعيل واسحق، بالتفصيل في التوراة. وبهذه الطريقة ينسب العبرانيون إلى جدّهم الأعلى عابر ثم إلى أبيهم إبراهيم.

الا أن هناك رأيا آخر يقترح، أن يكون أصل هذا الاسم هو الكلمة المصرية القديمة (خابيرو) أو (عابيرو)، التي كانت تطلق خلال الألفية الثانية ق م، في مصر القديمة، على القبائل الأجنبية، التي كانت تتجوّل بين البلاد، وعرفت بأنها قبائل مشاغبة، بحثا عن المراعي الخصبة الصالحة لرعي قطعانهم من الماشية، مع الاستقرار لبعض الوقت، بالقرب من المدن الحضارية، للعمل كخدم أو كعمّال باليومية لدى أهل هذه المدن.

اضطرّتهم المجاعة حوالي سنة ١٨٠٠ ق م، إلى اللجوء إلى مصر، قد يكون هذا وفقا للتوراة في زمن يوسف ابن يعقوب، وهذا سيكون غالبا إما في زمن آخر ملوك مصر في الأسرة ١٣، أو في زمن أول الملوك الحيثيّين، الذين كانوا قد احتلّوا دلتا النيل، بعد انهيار الأسرة ١٣، حين مرّت مصر بما يسمّى فترة الانتقال (أو الانهيار) الثانية.

قد يكون العبرانيون قد استقرّوا في مصر، أربعة أو خمسة قرون، حتى زمن خروجهم مع موسى من مصر، حوالي سنة ١٢٢٠ ق م، على زمن الملك مرنبتاح ابن رمسيس الثاني، وهو أول فرعون من يذكر اسم إسرائيل، على لوحة انتصاراته، الموجودة في المتحف المصري بالقاهرة، من بين كل ملوك مصر خلال تلك الفترة. أمضى العبرانيون عشرات السنوات في التيه في برّية سيناء، ثم في أرض فلسطين، حيث تمكنوا في زمن لاحق غير محدّد بدقّة، من الاستيلاء على مدينة أريحا الفلسطينية، من الشعب الكلداني ساكن المدينة. لم يعرف العبرانيّون الاستقرار الا بدءا من سنة ١٠٠٠ ق م، حين أقام الملك والنبي داود ابن يسّى، مملكته في أرض فلسطين، وأقام عاصمتها في أورشليم.

سفر العدد

هذا هو رابع أسفار موسى بالتوراة، ويتكوّن من ٣٦ إصحاحا، وقد أطلق عليه هذا الاسم، لأنه يبدأ بإجراء الإحصاء العام للشعب اليهودي في برّية سيناء، الذين بلغ عددهم الإجمالي، وفقا للرقم الوارد في الاصحاح الثاني العدد ٣٢ (٦٠٣ ألفا). واليكم هنا ثبت بأهم المواضيع التي عالجها: أسباط إسرائيل وجملة أفراد كل سبط/ ترتيبات تعيين أماكن مخيّمات الأسباط حول خيمة الاجتماع/ إحصاء أبكار إسرائيل الذكور/ تعليمات بشأن النجاسة/ شريعة الشكّ بارتكاب الزنى/ امتحان المرأة المشكوك في زناها/ تدشين المذبح وقرابين رؤساء الأسباط/ السحابة الهادية تقف فوق تابوت العهد/ البوقان الفضّيان/ ترتيبات الارتحال/ إرسال المنّ والسلوى/

مريم بنت عمران تقاوم أخاها موسى فيصيبها الله بالبَرَص/ تقرير عن استكشاف أرض كنعان الموعود بها من الله للشعب اليهودي/ تشريع رجم ناقض السبت/ تفشّي الوباء بين الشعب/ ذبيحة البقرة الحمراء/ أصناف النجاسة والتطهير بالماء/ الحيّة النحاسية/ طريقة توزيع الأرض في كنعان على الأسباط/ الذبائح اليومية/ قربان السبت/ محرقة

رأس الشهر/ عيد الفطير/ عيد أبكار الغلاّت/ تقدمات يوم كيبور (عيد التكفير)/ قتل النساء الأسيرات/ توزيع غنائم الغزوات/ قرابين قادة الجيش/ التخطيط للاستيطان غربي نهر الأردن/ مراحل الرحلة إلى هناك/ عبور نهر الأردن/ حدود أرض كنعان/ خطط إنشاء المدن/ ميراث المرأة المتزوّجة/ ...

كنعانيون

كلمة كنعان باللغات السامية القديمة قد تعني لون (الأرجوان)، وهو نفس المعنى الذي تحمله كلمة (فينيقي) التي هي كذلك الأصل في كلمة أرجوان في اللغة الإنجليزية (**pink**)، وبالتالي فهذه الكلمة تطلق على الأقوام الذين تكلّموا بإحدى اللغات السامية، وعاشوا على الساحل الشرقي لحوض البحر المتوسّط، في المنطقة التي كانت تتوسّطها فينيقيا، وعاصمتها بيبلوس وهي بلدة (جبيل) الحالية في لبنان، في العصر البرونزي الوسيط والمتأخّر، أي ما يوازي حوالي بين ٢٠٠٠ ق م و١٢٠٠ ق م. وكان هؤلاء الأقوام قد اكتشفوا طريقة استخراج اللون الأرجواني، من أحد أنواع الأسماك الصدفية التي توجد في مناطق شرق المتوسّط.

حتى بداية عمليات التنقيب والحفائر، في ثلاثينات القرن العشرين، كانت المعلومات الوحيدة المتوفّرة عن هذه الشعوب، هي الموجودة في أسفار التوراة. لكن بفضل حفائر البعثات، التي قادها العالم الفرنسي شيفر في رأس شمرا، تمّ العثور على الكثير من الوثائق المكتوبة، بلغات سامية مختلفة منها الفينيقية والعبرية، ولكن بطريقة نسخ حروف اللغة المنطوقة، بحروف أخرى في الكتابة المسمارية، وهي طريقة نقل الحروف من لغة إلى لغة، المعروفة باسم **transliteration**، على ألواح من الطين المحروق، من القرن الرابع عشر ق م، مما أثرى معلوماتنا عن هذه الشعوب، ومنها الكثير من المادة الأسطورية حول شخصيّات أرباب الديانات الكنعانية. من المعروف الآن أن الكتابة الفينيقية، سينتج عنها لاحقا أول أبجدية في تاريخ الإنسانية.

قامت على نسق مدينة أوغاريت مدن أخرى مستقلّة، تكوّن كل منها وحدة سياسية مستقلّة، تعرف باسم المدينة الدولة **city state**، تحيط كل منها نفسها بأسوار وقلاع وتحصينات حربية، وقامت بينها وبين بعضها أحيانا انحيازات سياسية، أو معاهدات

صلح، أو عداوات معلنة، غالبًا بسبب الصراع على مناطق النفوذ.

الا أن هذه الوحدات السياسية المستقلّة، اضطرت إلى الاتحاد معا، في مواجهة خطرين كبيرين، برزا مع بداية الألفية الأولى ق م، وهما خطر شعوب البحر القادمين من جزر كريت، وغيرها من الجزر اليونانية، الذين هاجموا أرض كنعان من الشمال، ومملكة إسرائيل التي هاجمت أرض كنعان من الجنوب. استردّت فينيقيا عافيتها، حوالي منتصف الألفية الأولى ق م، وأسّست أهم مستعمراتها في غرب البحر المتوسّط، التي ستعرف لاحقا باسم قرطاج **Carthage**. لاحقا كان الاغريق هم الذين أطلقوا على هذا الشعب اسم فينيقيا.

سفر اللاويين

هو ثالث أسفار التوراة، وبه ٢٧ إصحاحا، ومن أهم الموضوعات التي يعالجها: أنواع الحيوانات الطاهرة والنجسة/ شرائع تطهير المرأة بعد الولادة/ تشخيص الأمراض الجلدية مثل البرص والبهاق والقروح/ نجاسات إفرازات الرجل الجسدية/ نجاسة طمث المرأة/ المحظورات الجنسية/ عقوبات الخطيئة/ قداسة رتبة الكهنوت/ العاهات المانعة لرتبة الكهنوت/ الاحتفال بأعياد الفصح والفطير/ عيد باكورة المحاصيل/ عيد الأبواق/ يوم الكفّارة/ عيد المظلّات/ حكم القاتل وشريعة العين بالعين/ عقاب المجدّف على الربّ/ البركات الناجمة عن طاعة الربّ/ عقوبات عصيان الربّ/ ...).

من فصل المحظورات الجنسية في الاصحاح ١٨ من سفر اللاويين: لا تتزوّج الفتاة من أبيها. ولا يتزوّج الابن من أمّه. لا تتزوّج امرأة أبيك. لا تتزوّج أختك ابنة أبيك. لا تتزوّج أختك ابنة أمّك. لا تتزوّج من ابنة ابنك. لا تتزوّج من ابنة ابنتك. لا تتزوّج من أخت أبيك. لا تتزوّج من أخت أمّك. لا تتزوّج من زوجة ابنك. لا تتزوّج من زوجة أخيك. لا تتزوّج من امرأة ومن ابنتها. لا تتزوّج من امرأة ومن ابنتها. لا تعاشر امرأة وهي في نجاسة حيضها. لا تضاجع ذكرا مضاجعة امرأة فهي نجاسة. لا تعاشر بهيمة فتتنجّس بها.

مدينة ماري

هي واحدة من المدن الدول أو دويلات المدن **city states**، التي اشتهرت جدًّا بين

سومر وكنعان، بسبب أنها تقع في منطقة متوسّطة بينهما، إذ إن موقعها الحالي هو تلّ الحريري، على الشاطئ الغربي لنهر الفرات، بالقرب من مدينة أبو كمال على الحدود السورية العراقية. وهي عاشر مدينة تمارس الحكم بعد الطوفان، حسب ما جاء في قائمة الملوك السومرية. وقد بيّنت الأواني الفخّارية المستخرجة من المجسّات في الموقع، تشابها مع المكتشفات في سومر (شنعار) ونينوى.

ازدانت المدينة بالمعابد المقامة فوق قمة الزيجّورات، للأرباب عشتار ونين هورساج وشماش. وقد تحطّمت حوالي سنة ٢٣٠٠ ق م على يد سرجون الأكّادي، لكنها عادت إلى الحياة على زمن نارام سين ٢٢٠٠ ق م. وكانت قد وصلت إلى قمّة ازدهارها اللاحق حوالي ١٧٠٠ ق م، على زمن حامورابي، الذي استولى عليها، وعندما ثارت عليه بعد سنتين من احتلالها أمر بتدميرها، دلّت الحفائر على أن القصر الملكي الذي سكنه آخر ملوك ماري، ويدعى زمري ليم، كان يحتوي ٢٦٠ حجرة، بالإضافة إلى الأجنحة الملكية وقاعات مختلفة الأغراض، من بينها قاعة مكتبة عثر فيها على آلاف الألواح الطينية المكتوبة.

مسماري cuneiform

هو أقدم أنواع الخطوط الذي استعمل منذ الألف الرابعة ق م، في كتابة عدد من اللغات المختلفة، في عدد من الحضارات القديمة، في سومر وبابل وآشور وكنعان، وقد أطلق عليه العلماء الذين اكتشفوا أسرار شفرته هذا الاسم، لأن حروفه مكوّنة من خطوط على شكل أوتاد أو مسامير.

موسى Moses

اسم مصري قد يكون (موزس)، ومعناه (ابن) أو (ولد)، وهو مشتق من نفس الأصل الذي جاءت منه كلمة مسس، الموجودة في أسماء الفراعنة من أمثال رمسيس أي رع مسس أي ابن (رع)، وتحوتمس أي تحوت مسس أي ابن (تحوت)، وقد تكون هذه الكلمة هي كذلك الأصل في اسم مسّايا **Messiah**، أو المسيح. كان موسى هو أصغر أولاد أبيه عمرام (أو عمران)، بعد مريم الكبيرة وهارون الأوسط.

توافق زمن مولده، وفقا لنصوص التوراة، مع إصدار الفرعون الأمر بقتل كل أطفال العبرانيين الرضّع، فحاولت أمه أن تنقذ حياته، بأن وضعته في سلّة مطلية بالزفت، وتركته طافيا فوق مياه النيل، وتصادف أن مرّت السلّة أمام قصر الفرعون، أثناء نزول ابنته للاستحمام في مياه النهر، فأخذت الطفل لها لأنها كانت عاقرا، وهكذا تربّى موسى كأمير، في بلاط فرعون مصر.

عندما بلغ سنّ الأربعين، كان قد حصّل الكثير من المعرفة في العلوم العامة، التي برع فيها المصريون، بالإضافة إلى علوم الكهنوت. وحدث ذات يوم أن رأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا، فقتل موسى الرجل المصري ودفنه في الرمال. الا أن الخبر انتشر، فاضطر موسى إلى هجرة مصر، والذهاب للاختباء في بريّة سيناء، التي عاش فيها أربعين عاما، حيث تزوّج وأنجب من زوجته. ثمّ ظهر له الربّ في شكل نار، في شجيرة علّيقة لا تحترق، ثمّ أتاه صوت قائلا له أن يعود إلى أرض مصر، لينقذ الشعب العبري من العبودية هناك، ووعده بأن يؤيّده بالعجائب والآيات، وهي المعروفة في نصوص سفر الخروج بالضربات العشر.

بعد معجزة عبور مياه خليج السويس، ظلّ الشعب العبري أربعين عاما تائها في بريّة سيناء، حتى أنهم تمرّدوا على موسى، طالبين منه أن يعيدهم إلى مصر، حيث كانوا يأكلون حتى الشبع، وينامون تحت أسقف منازلهم، وفي ذلك الموقف الصعب، أيّده الله بألواح الشريعة، ونصوص الأسفار الخمسة الأولى من كتاب التوراة، التي تحكي قصّة خلق العالم، وقصّة الطوفان على زمن النبيّ نوح، وقصّة خروج شعب إسرائيل من أرض مصر.

هذه هي الألواح والنصوص التي يعتقد الشعب اليهودي، أن الله سلّمها بنفسه إلى موسى، فوق قمّة جبل التجلّي في برّية سيناء، فتأكّد الشعب من نبوّة موسى، وأطاعوه فيما تلى ذلك من أحداث. قبيل موته أنذر موسى شعب إسرائيل، ألا يرتدّ أحد منهم، بعد موت موسى، عن العقيدة التي أوحى الله بها إلى موسى، ثم بارك أسباط إسرائيل الاثني عشر، وسجّل ذلك في سفر التثنية، واستعدّ للموت وهو في عامه العشرين بعد المئة.

نبوءات

يعتقد المسيحيون أن بعض أسفار التوراة، توجد بها بعض العبارات، التي تتنبّأ بمجيء المسيح وبموته وبقيامته، ففيما يتعلّق بمكان مولده، هناك نبوءة ميخا التي تقول في الاصحاح ٥ من سفره في العدد ٢ (أما أنتِ يا بيت لحم، مع أنك قرية صغيرة من بين ألوف القرى في مملكة يهوذا، الا أنه سيخرج منكِ من سيصبح ملكا على إسرائيل). وقد ولد المسيح في بيت لحم. أما النبوءة بأنه سيولد من عذراء، فقد جاءت في الاصحاح ٧ من سفر إشعياء العدد ١٤ (ها العذراء تحبل وتلد ابنا، ويكون اسمه عمّانوئيل وتفسيره الله معنا). أمّا قصّة هروب العائلة المقدّسة إلى مصر، فتأتي في نبوءة هوشع الاصحاح ١١ العدد الأول (من مصر دعوت ابني). حتى قصّة قيامته من بين الأموات، يمكن أن نجد نبوءة بها في المزمور ١٦ العدد ١٠ (لأنك لن تترك ابنك في هوّة الأموات، ولن تدع وحيدك القدّوس ينال منه الفساد). أمّا التنبّوء بصعوده إلى السماء، ففي المزمور ٦٨ العدد ١٨ نجد (يصعد اليك أيها العليّ الربّ الإله).

نجاسة

خصّصت أجزاء كبيرة من أسفار مختلفة في كتاب التوراة، لبيان موقف الشريعة اليهودية من النجاسة، وشرح أسبابها وطرق التخلّص منها. مثالا على ذلك الاصحاح ٥ من سفر اللاويين (٢- كل من يلمس شيئا نجسا، سواء أكان جثّة حيوان محرّم أكله، أم جثّة وحش أو حشرة محرّمة، يكون مذنبا ونجسا. ٣- كل من يمسّ احدى نجاسات الإنسان، عن غير علم منه، ثم نُبّه إلى الأمر، يصبح مذنبا. ٥- فكل من يكون مذنبا عليه الإقرار بما أخطأ به. ٦- ثم يحضر إلى الربّ ذبيحة إثم، نعجة أو عنزة، فيكفّر الكاهن له عن خطيئته).

يعتقد الآن أن الأصل اللغوي لهذه الكلمة (نجس)، الموجودة في العبرية والعربية، هي الكلمة المصرية القديمة، التي تنطق بنفس الطريقة، لنفس هذه الحروف السواكن الثلاثة، النون والجيم والسين، وتعني (غريب) أو (أجنبي)، وذلك لأن الأعراف في مصر القديمة، اتفقت على أن كل غريب أو أجنبي غير مصري، هو مصدر للنجاسة.

نينوى

هي عاصمة المملكة الأشورية في أزهى عصورها، وتأسّست حوالي القرن ١٨ ق م، حين كانت مركز حكم الملك شامشي حدّاد، الذي كان معاصرا للملك حامورابي، ثم جاء الملك سنخاريب اليها ليجعل منها عاصمة لامبراطوريته بين ٧٠٤ ق م و٦٨١ ق م، حين أصبحت منافسة لبابل في السيادة الإقليمية، وقد ورد ذكرها كثيرا في نصوص التوراة المكتوب بعض أجزائها، في أسفار أنبياء الشعب اليهودي في تلك الفترة، كما كان قصر آشور باني بال، حوالي ٦٥٠ ق م، أهم مصادر التحف الفنيّة الآشورية، الموجودة حاليا في أقسام الحضارات القديمة، في متاحف العالم أجمع.

فقدت هذه المدينة بريقها ونفوذها، بعد أن هاجمها الفرس بقيادة إكزركسس سنة ٦١٢ ق م، لكنها رغم ذلك ظلت على قيد الحياة، واستعادت وضعها كمدينة كبيرة، طوال قرون عديدة، حتى زمن سقوط بغداد في يد المغول، في القرن ١٣ ميلادي، حين هجرها أهلها، وعبروا نهر الفرات للاستقرار في الموصل، فتحوّلت بعدها إلى خرائب.

يعقوب

هو ابن اسحق ورفقة، وحفيد إبراهيم. اشتق اسمه من الفعل الذي يعني (أنه جاء في عَقِب)، ذلك بعد واقعة خروجه من رحم أمّه، ممسكا بعقب أخيه التوأم (عيسو). وكان من عادة اليهود أن يعطي الأب بركته لابنه البكري، الا أن يعقوب احتال على أبيه بسبب ضعف نظر الأخير، فوضع شعرا مستعارا غزيرا على رأسه، على غرار ما كان عليه شعر (عيسو)، وغيّر من طبقة صوته، وحصل هو على بركة البكورية. ومع أنه اختلس هذه البركة، الا أنه أصبح وارثا لكل المواعيد، التي وعد بها الربّ نسل إبراهيم.

يبدو أن تاريخ اليهود الرسمي، حتى في حالة أعظم أنبيائهم، يمتلئ بقصص الخديعة والمكر والدهاء، حيث إن يعقوب قابل راحيل ابنة لابان، عند البئر تسقي الغنم، فأحبّها وطلبها من أبيها، فاشترط الأب عليه أن يكون مهر الفتاة، هو أن يعمل يعقوب خادما لدى لابان لمدّة سبع سنوات، ثم ليلة الزفاف أدخله لابان في ظلام الليل، على ابنته الأخرى (ليئة)، التي كانت أقلّ جمالا، فاضطر يعقوب صباح اليوم التالي، بعد اكتشاف ما حدث،

إلى أن يستمر في العمل لدى لابان سبع سنوات أُخَر، حتى يتمكن أخيرا من الزواج براحيل. أنجبت له زوجتاه أحد عشر ابنا، كان آخرهم نبي الله يوسف، ثم جاءه الابن الثاني عشر وهو (بنيامين)، وبذلك اكتمل عقد الاثني عشر بطنا (أو قبيلة)، أو كما تسمّيها التوراة (سبطا) من أسباط يهوذا.

من المعروف كذلك قصّة محاولة إخوة يوسف التخلّص منه، لأنه كان المفضّل من بينهم لدى أبيه يعقوب، ثم قصّة ذهابه إلى مصر ووصوله هناك، بالذكاء الذي تميّز به، إلى منصب وزير فرعون مصر، ثم ذهاب إخوته اليه في زمن المجاعة. كان عمر يعقوب ١٣٠ سنة عند ذهابه إلى مصر، وعاش هناك ١٧ سنة. عند موته حنّط أطبّاء مصر جثّته، وذهب بها يوسف في موكب جنائزي، للدفن في مدينة (حبرون/ الخليل).

يهوذا Jude

هذا الاسم هو الأصل في تسمية الشعب اليهوذي بالشعب اليهودي، وهو اسم عبري مشتق من الجذع الذي يعني (الحمْد)، وقد يأتي في صيغة الفاعل (الحامد)، أو في صيغة المفعول به (المحمود)، وهو كذلك اسم رابع أبناء يعقوب، الذي بفضل أخلاقه الحميدة، نال بركة أبيه رغم أنه لم يكن البكري، وقد تجلّى كرم أخلاقه، عندما حاول إنقاذ أخيه غير الشقيق يوسف، من المؤامرة التي كان يدبّرها له بقية الإخوة. وقد جاء اسمه في سلسلة أسلاف الأنبياء داود وسليمان ويسوع المسيح، وقد جاء نسب المسيح إلى هذه السلسلة من الأنبياء، عن طريق والده بالتبنّي المعروف باسم يوسف النجّار، وهي السلسلة الوارد ذكرها، في الاصحاح الأول من إنجيل متّى، في بداية أسفار العهد الجديد. عند تأسيس مملكة إسرائيل من الأسباط الاثني عشر، اختار الربّ يهوذا لرئاسة الأسباط الاثني عشر، لذلك تسمّى مملكة إسرائيل كذلك مملكة يهوذا.

قائمة بأسماء أهم مراجع الكتاب:

١- أطلس الكتاب المقدّس/ توماس نيلسون/ جرولنبرج/ لندن/ ١٩٥٧

٢- الحياة اليومية في بابل وآشور/ كونتنو/ إدوارد أرنولد/ لندن/ ١٩٥٤.

٣- علاقة الملوك بالأرباب/ فرانكفورت/ مطبعة كمبريدج الجامعية/ ١٩٤٨.

٤- ديانات بابل وآشور/ هوك/ هاتشينسون/ لندن/ ١٩٥٣.

٥- صلة الأساطير بالطقوس الدينية/ هوك/ مطبعة أوكسفورد الجامعية/ ١٩٥٨.

٦- نصوص الشرق الأدنى القديم المرتبطة بالعهد القديم/ بريتشارد/ مطبعة جامعة برنستون/ ١٩٥٤.

٧- العظمة التي كانت عليها بابل/ ساجس/ سيدكويك آند جاكسون/ لندن/ ١٩٦٢.

٨- آثار وديانة إسرائيل/ أولبرايت/ مطابع أوكسفورد الجامعية/ ١٩٥٣.

٩- تاريخ إسرائيل/ برايت/ لندن/ ١٩٦٠.

١٠- الملكية المقدّسة في إسرائيل القديمة/ جونسون/ مطابع جامعة ويلز/ ١٩٦٧.

١١- عقيدة الملك الربّ في إسرائيل القديمة/ جراي/ إدنبره/ ١٩٧٩.

١٢- لفائف البحر الميّت/ باروز/ سيكير آند ووربرج/ لندن/ ١٩٥٥.

دكتور عادل: بعد التحية

وقع نظرنا على بضع كلمات رأينا الصواب فيما صوبناه، وذلك لمصلحة الكتاب وهي:

كلمة الانجيل = الإنجيل

نفاذ الزيتون والماء = نفاد الزيتون والماء

قارىء = قارئ

مبادىء = مبادئ

اله = إله وكذلك الههم = إلههم ، الاله = الإله

انسان = إنسان

وحدنا كلمة إشعياء حيث إن بعض منها كان أشعياء

بعض كلمات كانت مكتوبة بحروف تخل بالمعنى عدلنا هذه الحروف لكي يستقيم المعنى.

وحضرتك سوف تراجع الكتاب وستجد إن شاء الله ما فعلناه هو الأصوب

ولسيادتكم التحية والشكر